

إبداعات عالمية

لون الماء

(رواية)

تأليف:
جيمز ماكبرايد

ترجمة:
فارس غلوب

مراجعة:
عامر الزهير

٣٢٥



إبداعات عالمية



(رواية)

تأليف:
جيمز ماكبرايد

ترجمة:
فارس غلوب

مراجعة:
عامر الزهير

إبداعات عالمية

المراسلات:

توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب ٢٨٦٢٣ - الصفاة - الكويت 13147

صدر العدد الأول في أكتوبر ١٩٦٩
تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي
أسسها الأستاذ / أحمد مشاري العدواني
(١٩٢٣ - ١٩٩٠)

لـــون المـــاء

The Color of Water

تأليـف: جيمز ماكبرايد

ترجمة: فارس غلوب

الطبعة الأولى - الكويت:

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٠م

سلسلة إبداعات عالمية العدد ٣٢٥

ردمـــك ٢ ـ ٠٤٢ ـ ٠ ـ ٩٩٩٠٦

ISBN 99906 - 0 - 042 - 2

العنوان الأصلي

The Color of Water

مقدمة

ولد جيمز ماكبرايد وترعرع في ظروف غير عادية، إن لم تكن فريدة من نوعها، من أب أمريكي أسود وأم بيضاء من أصل يهودي اعتنقت الدين المسيحي وأصبحت تعمل بحماس لصالح كنيسة بروتستانتية كان زوجها يعمل قسيساً فيها.

ويشكل كتاب جيمز ماكبرايد، لون الماء، كتابين في مجلد واحد في الواقع، أحدهما سيرته الذاتية والآخر سيرة حياة والدته. ويميز بين الكتابين بطبع الفصول المتعلقة بسيرة حياة أمه بحرف أسود، فيما تكون الفصول المتعلقة بسيرته الذاتية بحرف عادي، ومن خلال هاتين القصتين المترابطتين يظهر تاريخ عائلة أمريكية عاشت في أواسط القرن العشرين وسط أجواء التوتر بين البيض والسود في الولايات المتحدة، وتصور هاتان القصتان أيضاً ظروف المجتمع الذي عاش فيه جيمز ماكبرايد ووالدته، والعوامل المفسدة في المجتمع التي قاومها هو وأمه كل منهما على طريقته وانتصرا عليها بعد صعوبات كثيرة.

يرسم جيمز ماكبرايد صورة والدته، روث شلسكي، بدقة ومهارة، ويصور لنا امرأة ذات شخصية قوية وإيمان ثابت بمبادئها، قررت مصيرها بنفسها رغم اعتراضات أهلها الذين تخلوا عنها بسبب زواجها من رجل أسود، القس المسيحي أندرو ماكبرايد. فكان أبوها، الحاخام شلسكي، عنصريا متطرفاً يكره السود، شأنه في ذلك شأن العديد من اليهود الذين يتحدرون أصلاً من أوروبا الشرقية. غير أن روث شلسكي التزمت بقرارها ووقفت إلى جانب زوجها وساعدته في تأسيس كنيسة تلبي حاجات السود في أحد أحياء نيويورك. وبعد انقطاعها عن المجتمع اليهودي سعت إلى الاندماج في مجتمع الأمريكيين السود، ولكن دون نجاح كامل بسبب التوترات السائدة في

العلاقات بين السود والبيض في المجتمع الأمريكي.

لم يكن جيمز ماكبرايد قد ولد بعد عند وفاة أبيه، ولكن أمه تزوجت مرة ثانية فيما بعد، وكان زوجها الثاني أسود أيضاً ذا شخصية لطيفة، وأصبح بمثابة أب ثان لجيمز وإخوته. أنجبت روث شلسكي اثني عشر طفلاً من زوجيها، وربتهم جميعاً تربية جيدة، وأصرت أن يتخرجوا جميعا في الجامعات ونجحت في ذلك، وهذا إنجاز لا يستهان به.

إن لون الماء ليس سيرة حياة شخصين، ولا تاريخ عائلة أمريكية خارقة للعادة فحسب، بل هو وثيقة تاريخية أيضاً لأنه يلقي الضوء على ظروف المجتمع الأمريكي في مرحلة مهمة من تطوره. عاش جيمز ماكبرايد فترة شبابه في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، في عصر حركة القوة السوداء ومالكولم أكس ومارتن لوثر كينغ، عصر نضال الأمريكيين السود من أجل المساواة الاجتماعية وحقوقهم السياسية. يصف جيمز ماكبرايد الحياة التي عاشتها عامة الناس في أمريكا وسط هذه التحولات التاريخية، وكيف تأثرت هذه الحياة من جراء التوترات والصراعات التي تدور حولها.

كلمة المؤلف

في صباي، لم أكن أعرف أصل أمي، ولا أين ولدت ولا من هما والداها، وكانت تقول كلما سألتها «إن الله خلقني». وعندما سألتها إذا هي بيضاء كانت تقول: «لون بشرتي فاتح»، وتغيّر موضوع الحديث. وقد ربّت اثني عشر طفلا أسود وأرسلتنا جميعا إلى الجامعة وإلى الدراسة العليا بعد التخرج من الجامعة في معظم الحالات. أصبح أولادها أطباء وأساتذة وصيادلة ومعلمين، غير أننا لم نعرف اسم عائلتها قبل أن نبلغ سن الرشد. واستغرق اكتشاف قصتها العجيبة أربعة عشر عاما من عمري - وهي ابنة حاخام يهودي تزوجت رجلا أسود عام ١٩٤٢ - وقد أفشت لي بذلك كنوع من المعروف أكثر منه رغبة في العودة إلى ماضيها. وفيما يلي حياتها كما روتها لي، وبين صفحات حياتها ستجدون حياتي أيضا.

(١)

ميتة

إني ميتة

تريد أن تتكلم عن أسرتي وها أنا ميتة بالنسبة لها منذ خمسين عاما. اتركوني وشأني ولا تزعجوني. لا يريدون أي علاقة بي ولا أريد أي علاقة بهم. هيا أسرع لننهي هذه المقابلة. لأني أريد أن أشاهد دالاس على التلفزيون. هل تعرف، لو كنت جزءا من أسرتي لما تفرغت لهذه الحماقة، أي لجذورك على حد قولك، ولكان من الأفضل لك أن تشاهد مسلسل «الأغبياء الثلاثة» بدلا من أن تجري مقابلات معهم، مثل مقابلة مع والدي، انس هذه الفكرة. سيصاب بنوبة قلبية لو رآك. إنه متوفى الآن على كل حال، وإلا فإنه في عامه الخمسين بعد المائة.

ولدت يهودية أرثوذكسية في الأول من أبريل في العام ١٩٢١، يوم كذبة نيسان في بولندا. لا أتذكر اسم المدينة التي ولدت فيها، ولكني أتذكر اسمي اليهودي: روخل دوايرا زيلسكا. تخلص والداي من ذلك الاسم لدى هجرتنا إلى أمريكا وغيّراه إلى ريتشل دبوراه شلسكي، وتخلصت أنا من هذا الاسم في التاسعة عشرة من عمري، ولم أستخدمه مرة أخرى بعد أن غادرت فرجينيا إلى الأبد في العام ١٩٤١. إن ريتشل شلسكي ميتة بالنسبة لي، وكان يجب عليها أن تموت لأتمكن أنا، أي الجزء الباقي مني، أن أعيش.

ندبتني أسرتي عندما تزوجت أباك، قامت بصلاة الحداد اليهودية وجلست لفترة الحداد. وهذه هي طريقة حداد اليهود الأرثوذكس على أمواتهم. يتلون الصلوات، يقلّبون مراياهم، يجلسون على صناديق لمدة سبعة أيام، ويغطون رؤوسهم. إنه عمل شاق فعلا. وربما

لم أعد يهودية الآن بسبب ذلك. كان هناك الكثير من القواعد الواجب اتباعها، والكثير من المحرمات «ولا يمكنك أن تفعل كذا» أو «لا يجب أن تفعل كذا». هل يقول أحد إنه يحبك؟ لا. لم نكن نتكلم هكذا في أسرتنا. كنا نقول أشياء مثل «يوجد صندوق هناك للمسامير»، أو يقول أبي «اسكتوا عندما أنام».

كان اسم أبي فيشل شلسكي، وكان حاخاما ارثوذكسيا هرب من الجيش الروسي وتسلل عبر الحدود إلى بولندا وتزوج أمي زواجا رتبه الأقارب. كان يقول إن النار أطلقت عليه عندما هرب من الجيش. واستمرت قدرته على التنصل من كل شيء لا يرضيه طوال المدة التي عرفته فيها. كنا نسميه تاته، وهي كلمة تعني أبي باللغة الييدية. كان ثعلبا، ولا سيما فيما يتعلق بالأموال. كان قصيرا وأسمر ومكسوا بالشعر وفظا. يرتدي قميصا أبيض وبنطلونا أسود ولفاع على كم قميصه، وكان ذلك بمثابة زيه الرسمي. كان يرتدي ذلك البنطلون الأسود باستمرار دون غسيل ولا تنظيف، وكان مظهره مخيفا عندما يتجه إليك على عجل، لأنه ليس من الحكمة إغضاب أبي، لقد كان قاسيا كالصخر.

كان اسم أمي هوديس، وكانت لطيفة ووديعة عكس أبي تماما. ولدت عام ١٨٩٦ في مدينة دوبريزن البولندية. ولكن إذا سألت عنها هناك اليوم، لن يتذكر أحد أسرتها، لأن اليهود الذين لم يغادروا قبل بطش هتلر في بولندا أبيدوا في المجزرة الكبرى. كانت جميلة الوجه، بشعر أسود وعظمي خدين عاليين، ولكنها كانت قد أصيبت بشلل الأطفال الذي شل جانبها الأيسر وجعل صحتها ضعيفة بوجه عام، فكانت يدها اليسرى عديمة النفع تماما. كانت ملتوية عند معصمها وتمسكها إلى صدرها. لا تكاد ترى من عينها اليسرى، وكانت تعرج عرجا شديدا في مشيها، وتجر قدمها اليسرى وراءها. كانت أمي اللطيفة امرأة هادئة، وكنا نسميها مامه، وهي الشخصية الوحيدة في العالم التي لم أنصفها.

(٢)

الدراجة

عندما كنت في الرابعة عشرة، اتخذت أمي هوايتين: ركوب الدراجة والعزف على البيانو. لم أتضايق من البيانو، ولكن الدراجة أفقدتني صوابي. كانت آلة قديمة جدا وضخمة، زرقاء بخطوط بيضاء، ذات إطارات كبيرة وسميكة ورفرفين ضخمين وزمور يعمل على بطارية مركب في وسط هيكل الدراجة وعليه زر يكبس ليزمر. يمكن لهذا الجهاز الغريب أن يكون تحفة نادرة، ويحتمل أن يساوي الآن حوالي خمسة آلاف دولار، ولكنها في ذلك الوقت كانت شيئا وجده زوج أمي الثاني في أحد شوارع بروكلين وجرّه إلى المنزل قبل وفاته ببضعة أشهر.

لا أعرف إذا كانت وفاته نتيجة لقرار اتخذه بنفسه أم لا، ولكني أعتقد أنها لم تكن كذلك. توفى وهو في الثانية والسبعين، وهو رشيق وقوي ورخي البال، ويبدو معصوما من الخطأ، وعلى الرغم من كونه زوج أمي فقط، إلا أني اعتبرته دائما بمثابة أبي. كان رجلا هادئا رقيق الكلام، يرتدي ملابس قديمة الطراز، وقبعات من اللباد، ومعاطف صوف مزررة، وشيّالات، وكان أنيقا في جميع الأوقات مهما لوّثه عمله. كان يقوم بكل عمل على مهله وبعناية، ومع بطئه الشبيه بالجرّارة، ولطفه الظاهر، كان خليطا من الهندي الأحمر الهادئ والرجل الأسود الريفي، كان واثقا بنفسه، صارما، جريئا، وسريعا. لم يكن يتحمل أي دجل ولا يفرضه على غيره. تزوج أمي وهي يهودية بيضاء لديها ثمانية أطفال سود من أصل مختلط، كنت أنا أصغرهم ولم أكمل السنة الأولى من عمري. أنجبا أربعة أطفال إضافيين ليبلغ العدد الإجمالي اثني عشر طفلا، واعتنى بنا جميعا وكأننا أطفاله، وكان يقول من باب المزح: «لدي ما يكفي لفريق بيسبول». وكان هناك ذات يوم، وفي اليوم التالي أصابته جلطة ورحل.

كدت أتخلى عن الدراسة بعد وفاته، ورسبت في كل فحص، وقضيت سنة أذهب فيها إلى السينما في ميدان تايمز مع أصدقائي. كان إخوتي يضحكون علي ويقولون: «لا يزال جيمز يمر بثورته». غير أن أخواتي كن يقلقن وأشقائي الكبار يغضبون، ولكني تجاهلتهم. فكنا أنا وزملائي الصبيان منهمكين في أفلام المغامرات وحشيشة الكيف التي كنا ندخنها بأكبر كمية ممكنة. كنت أسرق محفظات ومعروضات من المتاجر. وسرقت ذات مرة حتى من تاجر مخدرات صغير. وبعد الظهر، أثناء عودتي إلى المنزل بعد يوم حافل بالهروب من المدرسة، وقضاء الوقت في تدخين الحشيش والتلويح بالأمواس وركوب المترو، كنت أرى أمي وهي راكبة دراجتها الزرقاء.

كانت تقود دراجتها ببطء وتقطع شارعنا الذي نقيم فيه، وهو شارع موردوك في حي سانت البانز من منطقة كوينز، ولا يرى أي شخص أبيض غيرها، وكانت السيارات تنحرف حولها ويحدق سائقوها السود في السيدة البيضاء الغريبة المتوسطة العمر وهي تركب دراجتها القديمة. كانت تلك هي طريقتها في إظهار حزنها، ولكني لم أدرك ذلك حينها. كان هنتر جوردان، زوج أمي، قد توفى. أما أبي الحقيقي آندرو ماكبرايد، فكان قد توفى هو الآخر وهي حامل بي قبل ذلك بأربعة عشر عاما. وكان من الواضح أنها لم تعد تهتم بالزواج من جديد، على الرغم من جهود بعض القساوسة أصحاب سيارات الكادلاك والابتسامات الذين أدركوا أنها مفلسة، وبالتالي إننا نحن مفلسون. كانت وهي في الحادية والخمسين لا تزال رشيقة وجميلة، بشعرها الأسود المجعد وعينيها السوداوين وأنفها الكبير وابتسامتها اللامعة وطريقتها المعوجة للمشي يمكن تمييزها على مسافة بعيدة، كنا نسميها «مشية ماما الغاضبة»، وإذا مشت هكذا باتجاهك، ستقوم قيامتها. لقد رأيتها تواجه أشخاصا أقوياء للغاية وتهز قبضتها في وجوههم، ولكن ذلك كان قبل وفاة أبي. وتبدو الآن مصممة على العزف على البيانو، وتجنب محصلي الحسابات، وإجبارنا على الدراسة

في الجامعة بمحض قوة إرادتها، وتركب دراجتها في أرجاء منطقة كوينز. رفضت أن تتعلم قياة السيارة، وظلت سيارة أبي السابقة أمام المنزل لمدة أسابيع واقفة عند الرصيف، صامتة ومصقولة، تمر بها كل يوم على دراجتها، ولكنها تتجاهلها.

كانت صورتها وهي تركب هذه الدراجة ترمز إلى كل وجودها بالنسبة لي: غرابتها، وغفلتها التامة عن رأي الناس بها. وعدم اكتراث في وجه ما اعتبرته أنا خطرا وشيكا من السود والبيض الذين لم يحبوها لكونها امرأة بيضاء في عالم أسود. لم تر شيئا من ذلك. كانت تركب دراجتها ببطء شديد، حيث يبدو لمن ينظر إليها عن بعد أنها لا تتحرك، وأنها صورة مجمدة مرسومة على أفق الربيع، امرأة بيضاء في متوسط العمر على دراجة قديمة. يمر أولاد سود أمامها بسرعة على دراجات ستينغ ري وألواح التدحرج، ويركبون دراجاتهم على العجلة الخلفية فقط ويقذفون بكرات البيسبول لتئز بالقرب من رأسها، ويرمون مفرقعات تتفجر حولها، وهي تتجاهل كل ذلك. كانت ترتدي فستانا عليه زهور وحذاء مسطح أسود، كان رأسها يتأرجح وهي تمر راكبة بعدم ثبات عند المنعطف الذي ألعب عنده البيسبول بعصي المكانس مع أصدقائي، وعلى طول جادة لويستون، وتنزل التل عند شارع ميفيل حيث قتل شاب جميل اسمه روجر في حادث سيارة، ثم تصعد التل عند شارع موردوك، وتقطع رصيف الطريق لتنتهي أمام واجهة المنزل. كانت تتوقف وتترنح وتستعيد توازنها قبيل انهيار الدراجة على الرصيف، ثم تتنهد «فوه!» فيما يهز إخوتي رؤوسهم وهم يعسكرون على الدرج أمام منزلنا لمراقبتها. وكانت أختي دوتي تقول «يا ليتك لا تركبي هذه الدراجة يا أمي». ووافقتها الرأي بصمت، لأني لم أرغب أن يرى أصدقائي أمي البيضاء وهي تركب دراجة هناك. يكفي لونها الأبيض سوءا، دون أن تركب دراجة قديمة من طراز انتهى استعماله منذ مائة عام.

كنت دائما اعتبر أمي غريبة في أيام صباي، فلم تهتم أبدا بالحياة الاجتماعية مع جيراننا، وكان ماضيها لغزا رفضت أن تتحدث عنه.

كانت تشرب الشاي من كأس، وتعرف اللغة البيدية*، ولا تثق بالسلطة على الإطلاق، وتصر على خلوة تامة، الأمر الذي زاد من غرابتها وغرابة أسرتي. كانت أسرتي كبيرة فيها اثنا عشر طفلا، وتختلف عن كل عائلة أخرى رأيتها. وكان عددنا كبيرا حيث كانت أمي تنادينا بالقول «يا جيمز، جودي، هنري، هنتر، كاث، مهما كان اسمك، تعال إلى هنا دقيقة». لا يعني ذلك أنها نسيت من نحن، بل من كثرة عددنا لم يكن لديها الوقت للتفكير في تفاصيل تافهة كالأسماء. كانت القائد الأعلى للمنزل لأن زوجها لم يسكن معنا، حيث كان يقيم في منطقة بروكلين حتى وقت قريب من نهاية عمره، يبتعد عن الجماهير الحاشدة، ليعود إلى المنزل في نهاية الأسبوع، يحمل معه طعاما ودراجات ثلاثية العجلات، والعزم على ترميم أي شيء مادي كنا قد كسرناه خلال الأسبوع. أما تفاصيل تربيتنا فتركت لأمي التي عملت بصفة كبيرة الجراحين للرضوض (ضع صبغة اليود عليها)، ووزيرة الحربية (إذا ضربك أحد، استعمل قبضتك وكسّره) ومستشار ديني (ضع الله أولا)، وكبيرة علماء النفس (لا تفكر فيه)، والمستشار المالي (ما قيمة الأموال إذا كان عقلك فارغا؟) وتجاهلت الأمور المتعلقة بالعرق والهوية.

وأتذكر أني كنت أتمنى في طفولتي أن أكون في المسلسل التلفزيوني «الأب معه الحق»، الذي يعود الأب فيه من العمل كل يوم مرتديا بدلة وربطة عنق ولا يوجد أطفال أكثر مما يسعه حضنه، بدلا من أن أكون في منزلنا حيث كنا نمشي ببنطلون مخزوق وأحذية رياضية كلفت دولارا و٩٩ سنتا في محل جون للملابس الرخيصة. ووالدانا مشغولان ومتحيران، لا يظهر زوج أمي إلا في نهاية الأسبوع وهو يرتدي قميصا من دون أكمام وأدواته في يديه، وأمّنا تحمل حفاظات ودبابيس، وخرق الحمام، وقطنا لتنظيف الأذنين، وتحمل طفلا في كل ذراع، وطفلا ثالثا يشد على فستانها. لا يكاد يكون لديها الوقت لمسح مؤخرة

* لهجة من لهجات اللغة الألمانية تكثر فيها المفردات العبرية والسلافية وينطق بها شعوب روسيا وأوروبا الوسطى وتكتب بأحرف عبرية. (المراجع)

أحد أطفالها حتى يبدأ طفل آخر يصرخ بأعلى صوته. كانت أمي تضعنا في السرير كل ليلة وكأننا قطع من اللحم، تمد ثلاثة أو أربعة منا على كل سرير، واحدا برأسه إلى رأس التخت، والثاني برأسه إلى أسفل التخت، وهلم جرا. كانت تسمي هذا «الرأس إلى فوق وأصابع القدم إلى تحت»، وهي تقبلنا قبل أن ننام وتضعنا في الوضع المناسب. وفور مغادرتها الغرفة كنا نتشاجر على حق النوم بجانب الجدار، وكنت أصرخ «لي المكان في الداخل»، وكان رتشارد أخي الأكبر وبالتالي المتفوق علي يهز رأسه ويقول: «لا، لا، لا، ديفيد ينام في الداخل، وأنا في النصف، وأنت ـ يا أحمق ـ تنام على طرف السرير». وبالتالي أبقى طوال الليل أستنشق الهواء الذي يتنفسه ديفيد وأقضم أصابع قدمي رتشي. وعندما لم أعد أتحمل هذا المزيج من التنفس وأصابع القدمين، كنت انقلب وأسقط إلى أرضية الغرفة الخرسانية القاسية بصوت ارتطام.

كان الواحد منا إما قاتل وإما مقتول في منزلي، وأدركت أمي ذلك، بل هي التي أوجدت ذلك النظام. كان الولد يترك وشأنه، أو هكذا يعتقد، إلى حين يعدم الحيلة، وعندئذ تتدخل وتنقذه. كنت أشعر بالرعب عندما جاء دوري للذهاب إلى المدرسة، ومع أن المدرسة العامة رقم ١١٨ لم تبعد عن بيتنا سوى ثماني شوارع قريبة من البنايات، لم يسمح لي بالذهاب إلى هناك مشيا على الأقدام مع إخوتي لأن تلامذة الحضانة يجب أن يركبوا في الحافلة. وفي صباح اليوم المشؤوم طاردتني أمي حول المطبخ في سعيها لتلبيسي، وإخوتي يضحكون على رعبي. وقال أحدهم إن «الحافلة ليست سيئة، باستثناء الثعابين فيها». ويضيف أخ آخر: «أحيانا الحافلة لا تعيدك إلى المنزل أبدا». ويضحك الجميع.

قالت أمي «اسكتوا» وهي تتفقد زيّي المدرسي في يومي الأول في المدرسة. كانت ملابسي نظيفة، ولكنها ليست جديدة. كان بيلي يلبس البنطلون في السابق، وكان القميص لديفيد. أما المعطف فكان قد

انتقل من دينس إلى بيلي إلى ديفيد إلى رتشي، ثم إلي، وهو معطف رمادي اللون ذو قبة فرو يبدو وكأن أحدا مضغها. نفضته أمي بمكنسة صغيرة للملابس، ووضعت ثماني أو تسع طاسات، وصبت شوفانا مع حليب في كل منها، وأصدرت تعليمات للأكبر بإطعام الآخرين، ثم راحت تمشط شعري، فكان إحساسي وكأن جرارة تشد في شعري المجعد. قالت: «تعال. سأمشي معك حتى موقف الحافلة». كانت مكافأة مفاجئة أن أكون وحدي مع أمي، وهي المرة الأولى التي أتذكر أني كنت فيها وحدي مع أمي.

أصبح ذلك أجمل شيء في نهاري، ذكرى سارّة مطبوعة في ذهني وكأنها وشم: أمي وهي تمشي معي إلى موقف الحافلة، وتستقبلني بعد ظهر كل يوم وتقف على زاوية شارع نيو مكسيكو وشارع رقم ١٤٤ ترتدي معطفا بني اللون وشعرها المربوط بوشاح ملون، تراقب مع باقي الآباء والأمهات فيما تدور الحافلة المدرسية الصفراء حول المنعطف وتتوقف بهسيس من فراملها الهوائية.

وبينما مرت الأسابيع وخف الرعب من حضور المدرسة، بدأت ألاحظ شيئا على أمي، أن مظهرها يختلف اختلافا تاما عن مظهر أمهات الأطفال الآخرين، بل كان في الواقع أشبه بمظهر معلمتي في الحضانة، السيدة الكسندر البيضاء. كنت أحدق من النافذة عندما تدور الحافلة حول المنعطف وتفتح الأبواب الأمامية على مصراعيها، وألاحظ أن أمي تقف منفصلة عن الأمهات الأخريات وتكاد لا تتكلم معهن. كانت تقف خلفهن تنتظر بهدوء، يداها في جيبي معطفها، تراقب مراقبة مركزة عبر نوافذ الحافلة لترى أين أنا، ثم تبتسم وتلوح بيدها عندما أحييها بصوت عال من خلال النافذة. ثم تقبض على يدي بسرعة لدى نزولي من الحافلة، وتتجاهل تحديق النساء السوداوات وتنصرف معي بسرعة.

وبعد ظهر أحد الأيام، لدى عودتنا إلى المنزل من موقف الحافلة، سألت أمي عن سبب عدم شبهها بالأخريات. وأجابت: «لأني لست هؤلاء».

فسألتها: «من أنت؟»

«أنا أمك»

«إذن، لماذا لا تشبهين أم رودني، أو أم بيت؟ ولماذا لا تشبهينني؟»

تنهدت وهزت كتفيها، ومن الواضح أنها كانت قد واجهت مثل هذه الأسئلة مرات عدة. «إني أشبهك. إني أمك، وأنت توجه أسئلة أكثر مما يجب. علّم عقلك، لأن المدرسة مهمة. انس رودني وبيت وأميهما. تذكّر المدرسة وانس كل شيء آخر. من يهتم برودني وبيت؟ عندما يذهبان باتجاه معين، عليك أنت أن تذهب في الاتجاه الآخر. هل تفهم؟ عندما يذهبان في اتجاه معين، عليك أنت أن تذهب في الاتجاه الآخر. هل تسمعني؟»

«نعم»

«إني أعرف عن ماذا أتكلم. لا تتبع أيا منهم. التزم بإخوتك وأخواتك، هذا هو واجبك، ولا تتكلم لأحد عن شؤونك أيضا!» نهاية الحديث.

نزلت من الحافلة بعد ذلك بأسبوعين، ولم تكن أمي هناك وأصبت بذعر. كانت هناك ذكرى في مكان ما في عقلي الباطن بإنذارها لي، «يجب عليك أن تتعلم كيف تعود إلى المنزل وحدك»، ولكن هذه الذكرى ومضت كضوء بعيد للضباب في بحر هائج، وغرقت في ذعري. كنت تائها. كان منزلي على بعد مجموعتين من البنايات، ولكن المسافة كانت شبيهة بعشرة أميال لعدم معرفتي أي شيء عن

اتجاهه. وقفت على زاوية الطريق، وقاومت دموعي. نظر إلي الآباء الآخرون بعطف وسألوني عن عنواني، ولكني خفت أن أخبرهم. كان في ذهني إنذار أمي الذي لقنته لجميع أطفالها الاثني عشر منذ أن بدأنا نمشي: «لا تخبروا أحدا بشؤونكم أبدا». فهززت رأسي، لا، لا أعرف عنواني. انصرفوا واحدا تلو الآخر حتى ظل شخص وحيد، هو أب أسود وقف أمامي مع ابنه وقال: «لا تقلق، ستأتي أمك قريبا». تجاهلته، وكان يسد رؤيتي، والدموع تحجب نظري فيما أحاول التحديق من ورائه وانظر على طول مجموعة البنايات لأرى إذا ظهر ذلك المعطف البني والوجه الأبيض المألوفان على بعد، ولكنهما لم يظهرا. ولم يأت أحد على الإطلاق في الواقع، إلا زمرة من الأطفال لم يشبهوا أمي إطلاقا. كانت مجموعة متنوعة من الأولاد والبنات يرتدون ملابس رثة، بشعر أشعث وستر غير مرتبة، يصيحون ويضجون، ولم أعرف وجوه إخوتي الكبار وأختي الصغيرة كاثي الماشية وراءهم إلا عندما كادوا يصلون إلي، وركضت إلى أذرعهم وأجهشت بالبكاء وهم يجتمعون حولي يضحكون.

(٣)

كشير

كان روف قد نظّم زواج والدي وهو حاخام عالي المرتبة يذهب إلى كل من الوالدين ويهتم بالمهر ويرتب عقد الزواج كما يجب أن يكون حسب الشريعة اليهودية، ويعني ذلك أن لا علاقة للحب به. فكانت لدى عائلة أمي المكانة الطبقية والأموال. أما تاته فلا أعرف من أين أصل أسرته. وكانت أمي وسيلته للدخول إلى أمريكا، وعند وصوله إلى هناك لم يعد بحاجة إليها. لقد جاء إلى هنا بكفالة خالتي الكبرى لوري وزوجها باول شيفمان. لم يكن من الممكن دخول أمريكا، ويجب أن يكون لك كفيل، أي من يقول: «سوف أكفل هذا الشخص». فهاجر هو أولا، وبعد بضعة أشهر أرسل وراء أسرته، أي ورائي وأمي وأخي الكبير سام. عند وصولنا كنت في الثانية من عمري وسام في الرابعة، ولا أتذكر أي شيء عن رحلتنا الطويلة والخطيرة إلى أمريكا إلا ما رأيته في الأفلام. لدي وثيقة قانونية في علبة الأحذية تحت سريري تؤكد أني وصلت إلى هنا في ٢٣ اغسطس ١٩٢٣ على متن باخرة اسمها اوشترغايشت، واحتفظت بهذه الوثيقة معي أينما انتقلت لمدة أكثر من عشرين عاما، لأنها كانت حمايتي، ولم أرغب أن يطردوني من البلاد. من يطردني؟ أي شخص... الحكومة، والدي، أي شخص. ظننت أن بإمكانهم طرد إنسان من امريكا كما يطرد من مباراة بيسبول. كان والدي يقول: «أنا مواطن وانت لست مواطنة، فبإمكاني إعادتك إلى أوروبا متى أريد». كان يهددنا بذلك، بإعادتنا إلى أوروبا، ولاسيما والدتي، لأنها كانت آخر من وصل إلى هنا من أسرتها، وكانت قد قضت جزءا كبيرا من حياتها في الهروب من الجنود الروس في بولندا. كانت تتكلم عن القيصر الروسي أو الألماني، وكيف كان الجنود الروس يدخلون إلى القرية وينظمون اليهود في صفوف ويطلقون عليهم النار ببرود. وكانت تقول: «اضطررت إلى الهروب

لإنقاذ حياتي، وحملتك وأخاك في يدي وأنا أهرب» كانت أوروبا ترعبها، بينما سرها وجودها في أمريكا.

أول ما نزلنا من الباخرة أقمنا مع جدي زايده وجدتي بوبه على الزاوية بين الشارع رقم ١١٥ وشارع سانت نيقولاس في منطقة مانهاتن. إني أتذكر زايده جيدا على الرغم من كوني طفلة صغيرة، فكانت له لحية طويلة، وكان مرحا، وكان يشرب الشاي الساخن من كأس باستمرار على ما يبدو. كان جميع الرجال في أسرتي يربون لحى طويلة. كان زايده يحتفظ على مكتبه بصورة لنفسه وجدتي التقطت أثناء وجودهما في أوروبا، يظهران فيها وهما يقفان جنبا إلى جنب، يرتدي زايدة الملتحي بدلة سوداء وقبعة، وترتدي بوبه شعرا مستعارا أو شايتل وفقا للعادة الدينية. وأعتقد أن بوبه كانت صلعاء تحت شعرها المستعار. وسبب اضطرار النساء إلى تغطية رؤوسهن هو صلعتهن.

استمتعت بجدي وجدتي لأنهما كانا لطيفين، وأحببتهما كما يحب أي طفل جده. كانت لهما شقة نظيفة ومريحة مؤثثة بأثاث ثقيل وغامق اللون من خشب الكابلي. طاولة الطعام كانت مغطاة بمفرش أبيض نظيف من الدانتيلا في جميع الأوقات. كانا من اليهود الأرثوذكس المتزمتين، يأكلان طعام الكشير كل يوم. إنك لا تعرف شيئا عن الكشير، وتعتقد أنه قطعة حلاوة ويجب أن تقرأ عنه، لأني لست خبيرة. لديهم أشخاص يؤلفون كتبا عنه، فابحث عنهم واسألهم، أو اقرأ التوراة. اسأل، من أنا؟ لست أحدا، ولا أستطيع إخبار العالم بهذا. فلا أعرف. وبالأسلوب الذي كنا نتبعه، كان يجب إعداد المائدة بطريقة مختلفة لكل وجبة بمفرش مختلف وصحون وشوك وملاعق وسكاكين مختلفة، كل شيء. ويجب ألا تخلط وجباتك. فعلى سبيل المثال، لديك وجبات الألبان ووجبات اللحوم. فعليك أن تأكل كل مأكولات الألبان في وجبة، وكل مأكولات اللحوم في الوجبة التالية،

ولا يجب الخلط بينهما. ولا يجوز أكل لحم الخنزير أيضا. عليك أن تجلس وتأكل ما يجب أكله، وتفعل ما يجب فعله. كنا نستعمل مفرشا من نوع خاص للمائدة لوجبات الألبان، لأنه بإمكانك تنظيفه بخرقة بسيطة بدلا من غسله. ثم يجب عليك مساء كل يوم جمعة إشعال الشموع عند المغرب وتأدية الصلاة، ويبدأ السبت الذي يستمرحتى المغرب في اليوم التالي. فلا يجب إشعال أي أضواء ولا إطفاؤها، ولاتمزيق الورق، ولا الركوب في سيارات، ولا حضور السينما ولا حتى شيء بسيط كإشعال مدفأة. عليك الجلوس في مكانك والقراءة في ضوء الشمع، أو مجرد الجلوس في مكانك. وكان ذلك، الجلوس في مكاني، أصعب شيء بالنسبة لي، وكنت أركض حتى عندما كنت صبية. كنت أحب الخروج من البيت والانطلاق والركض. ولم يسمح لي أن أفعل شيئا يوم السبت إلا قراءة مجلات قصص الغرام، وهكذا فعلت لسنين طويلة.

أتذكر وفاة زايده في الشقة. لا أعرف كيف توفى، كانت مجرد وفاة. لم يتلكأ الناس، ولم يعبثوا في ذلك الوقت كما يفعلون الآن، بأنابيب تخرج من أفواههم وهم مصدر ثروة للأطباء وما إلى ذلك، إنما يتوفون فحسب. مع السلامة. على كل حال، توفى يا حبيبي. وضعوه على سريره واحضرونا نحن الأطفال إلى غرفة نومه لننظر إليه. اضطروا إلى رفعنا أنا وأخي سام عن الأرض لنراه. كانت لحيته منبسطة على صدره ويداه معقودتين، ويرتدي ربطة عنق سوداء صغيرة، ويبدو أنه نائم. أتذكر أني قلت لنفسي أنه لا يمكن أن يكون ميتا، لأنه يبدو أنه كان على قيد الحياة منذ وقت قليل، ينكت ويمزح، وها هو الآن ميت كالصخرة. دفنوه قبل المغرب في اليوم نفسه وجلسنا حدادا له لمدة سبعة أيام. غطيت جميع المرايا في البيت، وغطى الراشدون رؤوسهم وجلس الجميع على صناديق. ارتدت جدتي ملابس سوداء لفترة طويلة بعد ذلك. ولقد شعرت بأنهم أسرعوا بدفنه، أردت أن أسأل أحدا، «ماذا لو لم يكن زايده ميتا؟ ماذا لو كان يمزح، واستيقظ ليجد

أنه مدفون؟» ولكن الطفل في أسرتي لا يطرح أسئلة، بل يطيع الأوامر، لا أكثر.

تذكرت ذلك دائما، وأعتقد أن هذا هو سبب خوفي من الأماكن المغلقة اليوم، لأني لم أعرف ما هو الموت. تعرف أن أسرتي لم تتكلم عن الموت، ولم تسمح لأحد بلفظ الكلمة. كان اليهود التقليديون يبصقون على الأرض كلما نطقوا كلمة «الموت» باللغة اليدية. لا أعرف إذا كان ذلك خرافة أم ماذا، ولكن إذا قال والدي «الموت»، سيقذف البصاق من فمه خلال ثانيتين بالتأكيد. لماذا؟ لماذا لا؟ من حقه أن يتقيأ على الأرضية في منزله، ولم يسمح لأحد بالاعتراض عليه. لا أعرف لماذا كان يبصق، ولكن لدى وفاة جدي كنت أتساءل: «ماذا لو فرضنا أن زايده ليس ميتا؟ ويحيطه كل هؤلاء الموتى أيضا. ولا يزال على قيد الحياة؟» يا ربي، أي شيء مغلق يجعلني أشعر بأني لا أستطيع التنفس وسوف أموت. ولذلك فإني أطلب منكم جميعا التأكد من موتي عندما أتوفى. ارفسوني واقرصوني وتأكدوا من رحيلي، لأن فكرة الدفن حية والرقود هناك مختنقة ومحاطة بموتى وأنا مازلت حية، يا ربي إن هذا يميتني من الخوف.

(٤)

القوة السوداء

كنت أتساءل في صباي من أين جاءت أمي وكيف وصلت إلى هذه الأرض. وعندما سألتها من أين هي، كانت تقول «خلقني الله»، وتغير موضوع الحديث. وعندما سألتها إذا كانت بيضاء، كانت تقول «لا، لون بشرتي فاتح»، وتغير موضوع الحديث مرة أخرى. إن الإجابة على أسئلة عن سيرة حياتها الذاتية لم تنسجم مع موقف أمي من تربية اثني عشر طفلا أسمر متوحشا وفضوليا. فكانت تصدر الأوامر وحكمها هو القانون. وبما أنها رفضت الإفشاء بتفاصيل عن نفسها أو عن ماضيها، ولم يكن زوجها موجودا على العموم للرد على أسئلة عن نفسه أو عن أمي، فإني تعلمت ما تعلمته عن ماضي أمي من إخوتي. كنا نتبادل المعلومات عن أمي كما يتبادل الناس بطاقات البيسبول في معارض تجارية، نعرض معلومات متقطعة حافلة بالثرثرة والهراء والحكمة وأحيانا مجرد الحماقة. ويسخر مني أخي الأكبر رتشي عندما أسأله إذا كان لدينا أي أجداد بقوله: «ماذا يهمك؟ أنت متبنى على كل حال».

كنا أنا وإخوتي نمضي ساعات نغايظ بعضنا بعضا، وكانت تلك هي طريقتنا للتعامل مع وقائع لا نستطيع التحكم فيها. قلت لرتشي إني لا أصدقه، ورد بازدراء « لا يهمني إذا صدقتني أم لا. أمي ليست أمك الحقيقية، وأمك الحقيقية في السجن».

«أنت كذاب!»

«سترى عندما تعيدك أمي إلى أمك الحقيقية الأسبوع المقبل. لماذا تعتقد أنها لطيفة جدا معك طوال هذا الأسبوع؟»

طرأت علي فجأة فكرة أن أمي كانت فعلا لطيفة معي طوال الأسبوع. أليست لطيفة معي دائما؟ لم أتذكر، وذلك إلى حد ما

بسبب وجود خوف متنام داخل عقلي المشوش في سني الثامنة من أن رتشي قد يكون على حق، لأن أمي لم تشبهني بالفعل، كما أنها لم تشبه رتشي أو ديفيد أو أي من أولادها في الواقع. كان من الواضح أننا سود جميعا، من درجات مختلفة من السمرة، بعضنا أسمر فاتح، وبعضنا أسمر متوسط، والبعض الآخر بلون بشرة فاتح جدا، وكان شعرنا جميعا مجعدا. وكانت أمي حسب تعريفها الخاص «بلون بشرة فاتح»، وهو تصريح قبلته كحقيقة في أول الأمر، ولكني قررت في وقت لاحق أنه غير صحيح. كانت لدى أم أعز أصدقائي بيلي سميث بشرة فاتحة اللون كأمي، وعلاوة على ذلك كان شعرها أحمر، ولكن لم يكن لدي أي شك في أن أم بيلي سوداء وأمي ليست كذلك. كان هناك شعور في داخلي، هو ألم شبيه بحكة متواصلة أصبحت أكبر وأكبر كلما كبرت، وهو الذي أخبرني. يمكن القول إنه كان في دمي، وكيفما وصلت الفكرة إلي، فإنها أقلقتني كثيرا. غير أن أمي رفضت الاعتراف ببياضها، وسبب ذلك ليس واضحا، ولكن حتى أساتذتي عرفوا على ما يبدو أنها بيضاء وأني لست أبيض. وفي الليالي المفتوحة في المدرسة، كان السؤال الذي ردده أساتذتي أكثر من غيره هو «هل جيمز متبنى؟» الأمر الذي أثار إجابة غاضبة من أمي .

وقلت لرتشي: «لو كنت أنا متبنى، فأنت متبنى أيضا».

أجاب رتشي، «كلا، أنت وحدك، وستعود إلى أمك الحقيقية في السجن».

«سوف أهرب قبل ذلك»

« لاتستطيع أن تفعل ذلك. ستتعرض أمي لسوء إذا فعلت ذلك، فلا تريد أن تعرضها لسوء. وليس ذنبها أنك متبنى، أليس كذلك؟»

أربكني بذلك، وأصابني الذعر. «ولكني لا أريد أن أعود إلى أمي الحقيقية. أريد أن أبقى هنا مع أمي ».

«يجب عليك أن تذهب. أنا آسف»

استمر ذلك حتى أجهشت بالبكاء، وأتذكر أني مشيت جيئة وذهابا حتى نام رتشي وهو يضحك لمعرفته أنه قد دمر حياتي. وبقيت سهران في سريري تلك الليلة أنتظر عودة أمي إلى المنزل من العمل في الساعة الثانية صباحا. وعندئذ أدحضت الخدعة وأنا جالس عند طاولة المطبخ في ملابسي الداخلية الرثة، وضحكت قائلة «إنك لست متبنى».

«إذن، أنت أمي الحقيقية؟»

«طبعا، أنا أمك الحقيقية». وقبلتني قبلة كبيرة.

«إذن، من هم أجدادي؟»

«لقد توفى جدك ناش، وكذلك جدتك ايتا»

« من هما؟»

«كانا والدي أبيك»

«ومن أين هما؟»

«من الجنوب. هل تتذكرهما؟»

كنت أتذكر جدتي ايتا قليلا، وهي عجوز سوداء ذات وجه جميل تبدو مرتبكة جدا، تتمشى وهي ترتدي فستانا أزرق وتحمل قصبة لصيد الأسماك، والطعم والعدة، والخيط يجري في الأسفل حول كاحليها. لم تبد لي شخصا حقيقيا.

«هل عرفتهما أنت، يا أمي ؟»

«عرفتهما معرفة جيدة للغاية؟»

«هل كانا يحبانك؟»

«لماذا تسأل هذه الأسئلة الكثيرة؟»

«أريد أن أعرف فحسب. هل كانا يحبانك؟ لأن والديك الحقيقيين لم يحباك، أليس كذلك؟»

«كان والداي يحبانني»

«إذن، أين هما؟»

أجابت بعد فترة قصيرة من الصمت، «توفت أمي منذ سنين طويلة. أما أبي فكان ثعلبا. لا تسأل أسئلة أخرى هذه الليلة. هل تريد قطعة من كعكة القهوة؟». إذا كان كسب اهتمام أمي الكامل لأكثر من خمس دقائق إنجازا عظيما في عائلة ذات اثني عشر ولدا، فإن في الحصول على طعام خفيف بعد منتصف الليل متعة أكثر. استغنيت عن الأسئلة وأكلت الكعكة، مع أن ذلك لم يمنعني من التساؤل، إلى حد ما بسبب إحساسي المتنامي بذاتي وكذلك بسبب الخوف على سلامتها، لأني شعرت بوضوح بأن السود والبيض غير منسجمين، مما وضعها ـ ووضعنا كذلك ـ في موقف حرج جدا.

انتشرت القوة السوداء في كل عنصر في حيّنا سانت البانز من منطقة كوينز العام ١٩٦٦ عندما كنت في التاسعة من عمري. كان مالكولم اكس قد قتل في العام المنصرم، وأصبح أكثر عظمة بعد استشهاده. كان نمط الشعر الإفريقي دارجا، وصارت حركة الفهود السود قوة. المباني العامة، التماثيل، الأنصاب التذكارية، وحتى الأشجار كانت تظهر في المساء بألوانها الأصلية الباهتة، وفي اليوم التالي تظهر وقد طليت بـ «ألوان التحرير» اللامعة، وهي الأحمر والأسود والأخضر. كانت أصوات الطبول الطويلة تسمع في الشوارع ليلا، بينما تتجمع المراهقات ليتكلمن عن الثورة. كان إخوتي يزحفون حول البيت يتلون قصائد من «آخر الشعراء»، وهم نوع من فرق الراب الموسيقية يتلون شعرا في وجهي مع إيقاعات الطبول، وأبيات صوتية تستعمل كخلفية موسيقية، مع أغان بعناوين مثل «الزنوج يخافون من الثورة» و«في مترو الأنفاق».

وكنا أنا وأصدقائي نركب دراجاتنا الهوائية إلى زاوية شارع دنكيرك وجادة اليون لمراقبة المتسابقين المحليين بالقرب من مصنع صن ديو للمشروبات غير الكحولية، نحاول أن نرى من يسوق بأقصى سرعة فوق منحدر في طريق يجعل حتى أبطأ سيارة تطير. كان زوج أمي قد مر بهذا المنحدر بسرعة خمسة عشر ميلا في الساعة بسيارته البونتياك من العام ١٩٦٤، وقفزت قفزة عالية في مقعدي. كان هؤلاء الرجال يسوقون فوق المنحدر بسرعة تسعين ميلا في الساعة، وتطير سياراتهم وكأنها طيور، تندفع عبر الهواء وتهبط على بعد خمسة عشر قدما، وكثيرا ما تنزلق جانبا بحيث لا يتحكم فيها السائق، وتصطدم أحيانا بجدار مصنع صن ديو، ثم تترنح في كومة من المعدن الملتوي والقضبان الحديدية والمصدات. وكانوا يسمون سياراتهم أسماء مثل: «جو المدخن» و«ميكو» و«آلة الحلم» مكتوبة على مقدمتها، ولكن السيارة التي فضلناها كانت من طراز (جي تي او) لونها أسود لامع وكتبت عليها الكلمتان «القوة السوداء» بخط أبيض أنيق على مقدمتها وسقفها. كانت أسرع سيارة، وكان سائقها أمهر سائق بطبيعة الحال. كان يسوق كالمجنون، وبعد أن يترك سيارة كورفيت بطيئة في الغبار وراءه، كان يلف في دائرة بسيارته القوية، ثم يدورها ويعمل دورة انتصارية من أجلنا، يمر بنا ببطء وإحدى ذراعيه القويتين بارزة خارج النافذة وسيارته تدمدم بقوة، فيما نصفر ونهتف ونرفع قبضاتنا ونصرخ «القوة السوداء!» كان يضحك ويحرق المطاط في إطاراته الصارخة، وينطلق وسط تفجر المعدن المتألق والعادم الحار، تبرق الأضواء في مؤخرة سيارته وهو يختفي في الأزقة الخلفية قبل أن يتمكن رجال الشرطة من اعتقاله. كنا نعتبره إلها.

ولكن جزءا مني كان يخاف من القوة السوداء خوفا عميقا، للسبب الواضح: كنت أخشى أن تعني القوة السوداء نهاية أمي. كنت قد قبلت دون اعتراض خوف الأبيض من الزنجي، كما كنا نسمّى آنذاك. قد

بدأ ذلك بمراسل أبيض رزين على شاشة تلفزيوننا الأسود والأبيض يقدم فيلما إخباريا يبين مهرجانا للفهود السود نظمه بوبي سيل أو هيوي نيوتون أو أحد هؤلاء الزعماء المناضلين الشباب السود لمئات ومئات من الطلبة الإفريقيين الأمريكيين الغاضبين، «القوة السوداء! القوة السوداء! القوة السوداء!» فيما هدر الجمهور، مما أرعبني، وفكرت في قرارة نفسي «إن هؤلاء الأشخاص سيقتلون ماما». غير أن ماما لم تقلق على ما يبدو، وكان شعارها. «إذا لم يتعلق الأمر بحضورك المدرسة أو الكنيسة، لا يهمني على الإطلاق، وإجابتي هي لا، مهما كان».

كانت تصر على السرية التامة والعلامات الممتازة في المدرسة، ولم تثق بأي غريب مهما كان أصله العرقي، فأمرتنا بعدم الإفشاء بأي تفاصيل عن حياتنا العائلية لأي شخص ذي سلطة، سواء أكان معلما أو عاملا اجتماعيا أو شرطيا أو صاحب محل تجاري، أو حتى صديق. وإذا سألنا عن حياتنا العائلية، كان علينا أن نرد «لا أعرف»، وهكذا فعلت لسنين طويلة. وكان بيت أمي عالما كاملا قد خلقته، وكانت تعين أكبر طفل في المنزل «ملكا» أو «ملكة» لإدارة البيت في غيابها، ونحن بدورنا كنا نعين هزالي البلاط، وعبيدا، وعازفي موسيقى، وشعراء، وحيوانات أليفة، ومهرجين. لم تشجعنا على اللعب في الشارع، وكثيرا ما كانت تمنعه، وإذا تمكن أي منا من التسلل إلى الخارج، كانت تنذره «عد إلى البيت قبل حلول الظلام»، وتفرض هذه القاعدة بصرامة. وكثيرا ما اختبرت هذه القاعدة إلى أقصى حد، أتسلل إلى داخل البيت عند الغسق، حين تضمحل آخر ومضة من نور الشمس على الأفق الغربي، اقفل الباب بصمت وأتمنى أن تكون أمي قد ذهبت إلى العمل، ثم أدور وأجدها واقفة أمامي، يداها على وركيها، الحزام الجلدي في يدها، وعيناها تتحركان بغضب جيئة وذهابا إلى النافذة ثم إلي، شفتاها مزمومتان وهي تحاول أن تحدد ما إذا كان الظلام قد حل في الخارج أو إذا كان النور لا يزال موجودا.

وكنت أقول: «لا يزال هناك نور» بصوت متردد، وإخوتي يتجمعون وراءها لمراقبة العقاب الوشيك.

كانت ترد بشدة مشيرة إلى النافذة، «هل يبدو ذلك نورا؟»

وكان إخوتي يرددون من ورائها، «يبدو أنه ظلام دامس. إنه ظلام فعلا، يا أمي »، ويخمدون ضحكاتهم. وإذا كان حظي جيدا، كان رضيع يبكي في غرفة أخرى وتنطلق في اتجاهه، وتعلق الحزام على مسكة الباب، وتنذر «لا تفعلها مرة أخرى». وأصبح حرا.

وحتى لو اهتمت ولو قليلا بالقوة السوداء، فلم يكن لديها الوقت للتكلم عنها. كانت تعمل على الآلة الكاتبة في فترة المناوبة المسائية في بنك تشيس مانهاتن، تغادر المنزل في الساعة الثالثة بعد الظهر وتعود حوالي الساعة الثانية صباحا، وبالتالي لم يكن لديها سوى القليل من الوقت للألعاب، ناهيك عن الأزمات المتعلقة بالهوية. أدخلت هي ووالدي مزيجا يهوديا - أوروبيا وأفرو - أمريكيا غريبا من الارتياب والإحساس بالاضطهاد إلى بيتنا، فكانت لدى أبي، القسيس المعمداني اندرو ماكبرايد، شكوكه في احتمال قبول العالم لعائلته المختلطة. فكان يتأكد دائما من عدم وقوع أطفاله في أي سوء مع السلطات، وكان قلقا من الأمور المالية، واعتمد على أقدار الخالق لحل باقي المسائل. ويبدو بعد وفاة أبي وزواج أمي مرة أخرى أن زوجها هنتر جوردان واصل الأمور من حيث انتهى أبي، وأصر على التعليم والكنيسة. أما أمي فلم يكن لديها نموذج لتربيتنا غير خبرة أسرتها اليهودية الأرثوذكسية، التي على الرغم من عيوبها الظاهرة - طبيعتها المتعنتة، ووحدتها، وتركيزها على الأموال، والارتياب العميق في كل الغرباء، ناهيك عن استبداد أبيها - كانت تمثل الخير والشر في عقلية المهاجرين: العمل الجدي، وعدم قبول أفكار سخيفة، والسعي إلى الجودة، والارتياب في شخصيات السلطة، وإيمان عميق بالله والتعليم. كان والداي غير ماديين، واعتقدا بأن لا قيمة للمال من دون علم، وأن

التعليم المضاف إلى الدين هو الوسيلة للخروج من الفقر في أمريكا، وأثبتت السنون أنهما على حق.

غير أن الصراع كان جزءا من حياتنا، كتب على وجوهنا وأيدينا وأذرعنا، ولكي نرى كيف عاش التناقض، وكيف ظل قادرا على الاستمرار في جوهره، فما علينا سوى البحث في حالة أمي لا غير. كانت تناقضات أمي تتصادم وتتضارب كسيارات مدينة الملاهي في جزيرة كوني. كانت تعتقد بأن البيض أشرار ضمنيا تجاه السود، غير أنها أجبرتنا أكثر على حضور مدارس البيض لتأمين أفضل تعليم لنا، والسود يمكن الوثوق بهم أكثر، وأي شيء متعلق بالسود، فيحتمل أن يكون دون المستوى المطلوب. كانت تكره أصحاب الأموال، بينما هي بحاجة مستمرة إليها. ولم تكن تطيق العنصريين من أي لون، وكانت تنفر نفورا شديدا من البرجوازيين السود الذين يسعون إلى محاكاة البيض الأغنياء بتصنع العظمة، و«يفعلون أشياء تافهة مثل تغطية أرائكهم بالبلاستيك وإبراز الخنصر عندما يمسكون فناجين الشاي». وكانت تهمس «ما أغباهم!» لم تهتم بالآباء والأمهات الذين يتباهون بإنجازات أولادهم، ومع ذلك فقد أصرت على سعينا إلى أعلى أهداف مهنية. كانت ضد الرعاية الاجتماعية، ولم تطلبها أبدا على الرغم من حاجاتنا، ولكنها أيدت من استفاد منها. كانت تكره المطاعم ورفضت دخول أي مطعم حتى ولو قدم وجبات مجانا. كانت تفضل فعلا أن تكون بين الفقراء، فقراء الطبقة العاملة في مشاريع سكن رد هوك في بروكلين، وخلاطي الإسمنت، والخبازين، وصانعي قرص العجين (الحلوة)، والجدات، ومؤيدي الكنيسة الروحيين الذين كانوا أصدقاءها مدى الحياة. أسست هي وأبي معهم كنيسة براون المعمدانية التذكارية الجديدة، وهي كنيسة صغيرة لها واجهة مثل واجهة متجر، ولا تزال قائمة في رد هوك اليوم. إن أمي تحب هذه الكنيسة، وحتى يومنا هذا فهي لا تزال تحب رد هوك الذي هو أخطر الأحياء السكنية في مدينة نيويورك وأكثرها إهمالا. وكانت تقوم في صباح أي يوم، وتأخذ

قطار المرور من نيو جرزي من منزلها في يوينغ بولاية نيو جرزي إلى مانهاتن، ثم تأخذ مترو الأنفاق إلى بروكلين، وتتجول حول الأحياء السكنية وكأنها قداسة البابا، وهي الشخصية البيضاء الوحيدة الظاهرة للعين، تلوح بيديها إلى صديقاتها، وتتخطى المدمنين على المخدرات، وتبتسم إلى أمهات شابات يتمشين مع أطفالهن بعربات، وتتسلل إلى الدهليز المعتم لرقم ٨٠ شارع دوايت، ويحدق الشباب الغنادرة في قمصانهم الواسعة المبرنسة بخبث في العجوز البيضاء الغريبة المقوسة الساقين التي ترتدي حذاء رياضة وقميصا أحمر، والتي تعرج على ركبتين مصابتين بالتهاب المفاصل في صعود ثلاثة طوابق من الدرج المعتم الذي تفوح منه رائحة البول، لزيارة أعز صديقاتها السيدة انغرام في شقة رقم ٣ج.

في صباي، كنت أعتبر ارتياح أمي في أوساط السود شيئا مذهلا. معظم البيض الذين أعرفهم كانوا يخافون من السود خوفا كبيرا على ما يبدو، ورغم صغر سني إلا أنني أدركت ذلك. كنت أقرأ ذلك في الصحف، وأستشفه في كتابات المعلقين الرياضيين المفضلين لدي في صحيفتي نيويورك بوست ولونغ آيلند برس، في رفضهم تسمية كاسيوس كلاي بمحمد علي، وفي تصويرهم فلويد باترسون على أنه «زنجي كاثوليكي جيد»، وفي انتقادهم اللاذع لرياضيين سود مثل بوب غيبسون من فريق سانت لويس كاردينالز، والذي أعجب به. حتى إني لم أكن بحاجة إلى فتح صحيفة لأدركه، بل كنت أراه في وجوه البيض الذين يحدقون بي وبأمي وإخوتي كلما ركبنا مترو الأنفاق، يضحكون علينا أو يشيرون إلينا ويهمهمون جملا مثل: «انظر إليها مع أولئك الزنوج الصغار». أتذكر أن رجلا أبيض دفعها بشدة وبغضب حين قادت مجموعة منا على درج كهربائي متحرك، ولكن أمي تجاهلته. وأتذكر امرأتين سوداوين تشيران إلينا وتقولان: «أنظروا إلى هذه الكلبة البيضاء»، ورجلا أبيض يصرخ على أمي في مكان ما في مانهاتن، ويتهمها بأنها «تحب الزنوج». كانت أمي تتجاهلهم جميعا،

إلا إذا كانت الشتائم تهدد أطفالها، وعندئذ كانت تواجه وتقاوم من دون خوف وكأنها قطة شوارع. كان لديها أسلوب غير متكلف في تجاهل الإهانات لبياضها، شبيه بأسلوب الملاكم المحنك في تجنب اللكمات. وعندما قتل مالكولم اكس، الذي اعتبر بعبع البيض، سألتها من هو، فأجابت «كان رجلا متقدما عن زمنه». كان مالكولم اكس يعجبها بالفعل، وكادت تصنفه في الصنف نفسه مع أبطالها الآخرين في مجال الحقوق المدنية، وهم باول روبسون وجاكي روبنسون، وأليونر روزفلت، وأي فيليب راندولف، ومارتن لوثر كينغ الابن، وعائلة كينيدي- أي فرد من أفراد عائلة كينيدي ـ وعندما تكلم مالكولم اكس عن «الشيطان الأبيض»، كانت أمي تشعر بأن هذه الإشارات لا تنطبق عليها. وكانت تنظر إلى إنجازات الأمريكيين السود في مجال الحقوق المدنية وكأنها إنجازاتها، وكانت تتكلم أحيانا عن «الشخص الأبيض بضمير الغائب، وكأن لا علاقة لها به، ولم تكن لها مثل هذه العلاقة بالفعل، لأن معظم صديقاتها في دائرتها الاجتماعية كن نساء سوداوات من الكنيسة. وكانت تتساءل بعد قراءة أخبار غير معقولة في صحيفة نيويورك ديلي نيوز، «ما لهم هؤلاء البيض؟ إنهم يتخاصمون على أموال هذا الرجل بعد وفاته. لم يكن أحد منهم يريده وهو على قيد الحياة، والآن انظروا إليهم. انسيه يا حبيبتي» - هذا ما تقوله أمي للصحيفة - «لقد مات زوجك، أتفهمين؟ هو ميت وانتهت فرصتك. هل ستعيده الأموال؟ كلا!» ثم تلتفت إلينا وتلقي المحاضرة التي لابد منها: «لا تحتاجون إلى الأموال. ما هي قيمة الأموال إذا كانت عقولكم فارغة؟ علّموا عقولكم! هل العالم مجنون، أم أنا المجنونة؟ يحتمل أني أنا المجنونة».

يحتمل ذلك فعلا، أو كنت أعتقد ذلك على الأقل. لم أعرف عن أي امرأة بيضاء أخرى كانت تركب في مترو الأنفاق في مانهاتن في الساعة الواحدة من صباح كل يوم، ويغلب عليها النوم حتى تصل إلى موقفها في كوينز بعد ذلك بخمس وأربعين دقيقة. وفي أحيان

كثيرة لا أتمكن من النوم إلا عندما أسمع مفتاحها يفتح قفل الباب، لأني كنت أقلق من عدم اكتراثها بسلامتها، ولاسيما بين السود حيث تبرز بشكل لافت للانتباه وتبدو هدفا سهلا لعنف اللصوص. إني أفهم الآن بعد بلوغي سن الرشد كيف دعمتها مبادئها المسيحية وثقتها بالله لتصمد في معارك حياتها، ولكن إيماني لم يكن بهذه القوة في صباي. أخذتني أمي ذات مرة إلى منطقة هارلم لزيارة أختى غير الشقيقة جاكلين التي نسميها جاك، وهي بنت أبي من زواج سابق، وهي أشبه بعمة مما هي بأخت. وجلست المرأتان في غرفة جلوس جاك وتحدثتا حتى وقت متأخر من الليل، فيما طبخت جاك لنا أطباقا كبيرة من الطعام، المعكرونة بالجبن، وفطائر البطاطا الحلوة، والبسكوت. وقالت جاك لأمي «خذي هذا إلى المنزل للأولاد يا روث». فوضعنا الطعام في أكياس وحملناه في مترو الأنفاق دون أي مشاكل، ولكن لدى نزولنا من الحافلة في سانت البانز بالقرب من منزلنا، جاء رجلان أسودان وراءنا وانتزع أحدهما حقيبة اليد من أمي فتمزق الكيس المليء بالمعكرونة والجبن وفطائر البطاطا الحلوة، وطار الطعام في كل اتجاه فيما تشبثت أمي بحقيبتها ودارت في دوران جنوني مع اللص، لم يلفظ أي منهما بكلمة وهما يتصارعان صراعا مستميتا على الحقيبة، يدوران من الرصيف إلى الشارع الفارغ المظلم مثل راقصي باليه متشابكين في رقصة الموت، ووقفت أراقب وأنا غير قادر على الحركة نتيجة للخوف. واستولى اللص على الحقيبة في النهاية وهرب، فيما ضحك عليه زميله، وهوت أمي إلى الأرض.

قامت وأخذت يدي بهدوء، وبدأنا نمشي باتجاه المنزل بصمت. وبعد بضع لحظات سألتني، «هل أنت بخير؟»

هززت رأسي بالإيجاب. ولم أستطع التكلم بسبب الخوف. وكان كل الطعام الذي طبخته جاك لنا قد أتلف وألقي على الأرض وراءنا. وعندما استعدت قدرتي على الكلام أخيرا، سألتها «لماذا لم تصرخي؟».

فأجابت: « إنها مجرد حقيبة يد، لاتشغل بالك. فلنعد إلى المنزل».

أكد الحادث مخاوفي من أن أمي تتعرض للخطر دائما. كنا ننضم في كل صيف إلى أطفال المدن الفقراء الذين أرسلتهم منظمة صندوق الهواء الطلق إلى عائلات مضيفة أو مخيمات صيفية مجاناً. وكان المحظوظون من إخوتي يقيمون عند عائلات مضيفة، ولكني اضطررت إلى الذهاب إلى مخيمات كان يسكن فيها عشرة منا في كوخ لمدة اسبوعين،وكانت تبدو أحيانا أشبه بسجن أو فرقة أشغال، فكان الأولاد يتشاجرون دائما، وكان الطعام رديئا للغاية، وكنت أنا أتشاجر باستمرار، وكان الأولاد يسمونني كوتشيز بسبب بشرتي الفاتحة وشعري المجعد. ولكني استمتعت بالمخيم على الرغم من كل ذلك. وفي المرة الأولى أخذتني أمي إلى نقطة التجمع، وهي مركز اجتماعي في منطقة فار روكاوي التي كانت في السابق حيا للبيض من الطبقة الوسطى واليهود من أمثال الكاتب المسرحي نيل سايمون، ولكنها أصبحت حيا للسود منذ زمن طويل، وبدا لي أنه لابيض لمسافة أميال سوى أمي. كان منظمو المخيم قد نصبوا طاولة حيث خلعوا أحذيتنا وقمصاننا وفحصوا أصابع أقدامنا عن سعفة القدم وتأكدوا من عدم إصابتنا بالحصبة وجدري الماء، ثم أخرجونا لنركب في حافلة مدرسة صفراء للرحلة الطويلة إلى شمال ولاية نيويورك. وأثناء جلوسي في الحافلة أتطلع من النافذة إلى أمي ، الوجه الأبيض الوحيد في بحر من الوجوه السوداء، حضر رجل أسود مع ابنه، وهو رجل له شوارب ولحية صغيرة ويرتدي بنطلون جلد أسود وسترة سوداء وكمية كبيرة من المجوهرات وطاقية سوداء، ويبدو في منتهى الظرف، وكان ابنه وسيما وأنيقا ولطيفا جدا. وضع الأب حقائب الولد في مؤخرة الحافلة، وعندما تقدم هذا الأخير ليركب الحافلة، قدم الأب يده بدلا من معانقة ابنه، وأجرى الأب والابن مصافحة القوة السوداء المعقدة والرائعة المسماة «داب»، وهي نوع من المصافحة تستغرق خمس دقائق وتنطوي على تلوية الأصابع، ورفع الإبهامين إلى الأعلى ثم توجيههما

إلى الأسفل، ونزول السبابتين، وطقطقة المعصمين، وجلجلة الأساور، وتبدو حركة ماهرة للغاية رقبها جميع من في الحافلة. وفي النهاية ترنح الولد بضيق نفس إلى الحافلة وجلس خلفي، يدق على النافذة ويلوح بيده لأبيه الذي وقف الآن بجانب أمي يلوح بيده لابنه.

سأل أحدهم الولد «أين تعلمت هذه المصافحة؟»

وأجاب بفخر، «علمني أبي. إنه فهد أسود».

هدرت الحافلة عند تشغيلها، وأنا أشعر بذعر. فهد أسود؟ وبجانب أمي ؟ لقد تحقق أسوأ كابوس لدي. لم أعرف على الإطلاق من هم الفهود السود، والصورة الوحيدة التي رسخت في ذهني لهم، هي الصورة التي رسمتها لهم وسائل الإعلام.

أشغل السائق غيار الحافلة بينما قمت لأفتح نافذتي، لأني أردت إنذار أمي . ماذا لو أراد الفهد الأسود قتلها؟ عَلُقَت النافذة، فحاولت الانتقال إلى نافذة أخرى، ولكن مشرفا أمسك بي وأجلسني، وقلت له «يجب أن أقول شيئا لأمي».

فأجابني « اكتب إليها رسالة».

قفزت إلى مقعد ابن الفهد الأسود خلفي، وكانت نافذته مفتوحة، ولكن المشرف أعادني إلى مقعدي.

صرخت إلى النافذة المغلقة «يا أمي ، يا أمي !» وكانت أمي تلوح بيدها، وأخذت الحافلة تبتعد. وصرخت «خذي حذرك منه!» ولكننا كنا قد ابتعدنا وكانت النافذة مغلقة، فلم تسمعني.

رأيت الفهد الأسود يلوح بيده لابنه، ولوحت أمي بيدها لي، ولم يلاحظ أحدهما الآخر، على ما يبدو.

وبعد أن تواريا عن الأنظار، استدرت إلى ابن الفهد الأسود الجالس خلفي، ولكمته مباشرة في وجهه. أمسك الولد حنكه وحدق فيّ بذهول ثم انهار وجهه بالبكاء والدموع.

(٥)
العهد القديم

كان أبي واعظا متجولا، مثل أي واعظ متجول آخر، إلا أنه كان حاخاما. لم يختلف عن بقية النصابين الذين تشاهدونهم على شاشة التلفزيون في أيامنا هذه، إلا أنه كان يعظ في المعابد وكلامه أقل نعومة. كان قاسيا كالصخرة، ولم يلبث أن أدركت جماعات المصلين اليهود حقيقته وتخلصت منه، وبالتالي كنا نسافر كثيرا أثناء طفولتي. كان بإمكان أي يهودي آرثوذكسي يدعي أنه حاخام أن يعظ ويتجول وينشد كمرتل وما إلى ذلك، وكان بعض هؤلاء اليهود غير قادرين على أي عمل آخر إلا الوعظ والترتيل. فلم تكن هناك وظائف كما تعرفونها اليوم، وكانت وظيفتك هي العيش، البقاء على قيد الحياة، قراءة العهد القديم على أمل أن يكسبك ذلك شيئا من الطعام، هذا ما كان يفعله.

تعرف أن اليهود الأرثوذكس يعملون بالعقود، أو هكذا كانت تعمل أسرتي: عقد للزواج، وعقد للوعظ، وعقد لأي شيء آخر. كان المال جزءا من حياتهم لأنهم لم يملكوا أي شيء آخر، مثل منزل حقيقي، أو على الأقل لم نملك نحن أي شيء آخر. كان تاته يوقع عقدا مع أحد المعابد وبعد سنة يرفض المعبد تجديد العقد، فنحزم أمتعتنا وننتقل إلى المدينة اللاحقة. أقمنا في العديد من الأماكن بحيث لاأتذكرها: غلينز فالز في ولاية نيويورك، وبلفيل في ولاية نيو جرزي، وبورت جرفيس في ولاية نيويورك، وسبرينغفيلد في ولاية ماساتشيوستس، ومكان اسمه دوفر. أتذكر بلفيل لأن أحد الأشخاص كان دائما يعطينا ملابس مستعملة هناك. هكذا كان أشخاص من مجموعة المصلين يدفعون لنا، بطعام، ومكان للإقامة، وملابسهم القديمة. وأتذكر سبرينغفيلدفي ماساتشيوستس لأن أختي غلادس ولدت هناك، وكنا نسميها دي دي، وهي أصغر مني بأربع سنوات.

ولدت دي دي في هذا العالم في عام ١٩٢٤ تقريبا، ولا أعرف إذا مازالت على قيد الحياة أم لا، ولا يبقى أي واحد غيرها من أولاد أمي على قيد الحياة، باستثنائي أنا.

كنا ننقل كل ما نملكه من مدينة إلى مدينة بالحافلات: الملابس والكتب والقبعات واللحف الضخمة التي أحضرتها أمي من أوروبا، والمحشوة بريش الإوز. تسمى بييزينا بلغة اليهود وهي دافئة مثل بيت. كنا ننام تحتها أنا وأختي أينما أقمنا. وكنا نجلب انتباها كثيرا كلما سافرنا لكوننا فقراء ويهودا ولكون أمي معاقة. كنت أشعر بذلك تماما، إني يهودية وان أمي معاقة. وكنت أخجل من أمي، ولكن المحبة لم تصبح طبيعية لدي إلا عندما أصبحت مسيحية.

أقمنا فترة فوق متجر يهودي في غلينز فولز في شمال ولاية نيويورك، وكان اليهود اللطاف الذين أداروه يطبخون لنا فطائر ويعطوننا تفاحا. كنا نركب على زلاجات ونقوم بنشاطات كأسرة، وبدا أن والدي منسجمان. لم تكن الحياة سيئة هناك في الواقع، ولكن عقد تاته لم يجدد كالعادة، واضطررنا إلى المغادرة. ومن حسن الحظ عرضت عليه إدارة معبد في سافوك في ولاية فرجينيا، وقال لأمي «سننتقل إلى الجنوب». لم ترغب أمي في الانتقال، وقالت: «ربما نستطيع الحصول على شيء هنا»، لأن أخواتها وأمها كن في مدينة نيويورك، ولكن مخاطبة أبي كانت بمثابة مخاطبة جدار، فقال «سننتقل»، وانتقلنا إلى سافوك في فرجينيا في العام ١٩٢٩ تقريبا عندما كنت في الثامنة أو التاسعة من عمري.

مازلت أتذكر رائحة الجنوب، التي هي شبيهة برائحة الأزاليا وأوراق الأشجار والفستق السوداني. كان الفستق السوداني في كل مكان، وكان مقر شركة بلانترز للفول السوداني في سافوك. كان السيد أوبيسي يديره، وهو رجل عظيم في البلدة، رجل الفول السوداني العظيم. كان يعطي أموالا كثيرة للناس، وبنى مستشفى. كان من

الممكن شراء رطل فول سوداني في سافوك بلا شيء، وكان المزارعون يزرعون الفول السوداني وينقلونه ويصنعون منه زيت الفول السوداني وزبدة الفول وحتى شوربة الفول، وأسموا الكتاب السنوي للمدرسة الثانوية الفول السوداني. ونظموا مسابقة لمعرفة من يصمم أفضل شعار لشركة بلانترز للفول السوداني، وكسبتها سيدة، فأعطوها خمسة وعشرين دولارا، وكانت هذه مبلغا محترما في تلك الأيام.

كانت سافوك بلدة صغيرة عندئذ، تحتوي على شارع رئيسي كبير واحد، وداري سينما، إحداهما للسود والأخرى للبيض، وبضعة متاجر، وبضع مزارع قريبة، وخطوط سكة الحديد التي قسمت البلدة إلى أحياء للسود والبيض. كان أهم حدث شاهدته سافوك منذ سنين معرضا متجولا مر بالبلدة بواسطة سكة الحديد، شمل حوتا محشوا على عربة شحن. أعجب ذلك الأهالي، وكان يعجبهم أي شيء مختلف أو جديد أو من خارج البلدة، باستثناء اليهود. فكان الأطفال في المدرسة يسمونني «قاتلة المسيح» و«الطفلة اليهودية». التصق الاسم «الطفلة اليهودية» بي لمدة طويلة. تعرف أنه من السهل جرح طفل.

عمل تاته في المعبد المحلي، ولكنه وضع عينه على مبنى ضخم شبيه بمخزن للغلة على الجانب الآخر من سكة الحديد، في ما يسمى الجانب الملون من البلدة، بهدف إقامة بقالة هناك. انزعج بعض أهل المعبد من ذلك، لأنهم لم يريدوا أن يعمل حاخامهم المقدس في التجارة ـ وأسوأ من ذلك، التجارة مع الزنوج! ولكن تاته قال: «لن ننتقل بعد الآن، إني سئمت من الانتقال». كان يعلم أنهم سيتخلصون منه في نهاية المطاف لأنه كان حاخاما سيئا، علينا الاعتراف بذلك. وكان له صديق يهودي في البلدة اسمه إسرائيل ليفي وقع وثيقة مصرفية مكنت تاته من الحصول على ذلك المبنى القديم، فوضع فيه منضدة وبعض الرفوف وصندوقا مستعملا لتسجيل النقود، كما وضع لافتة خارج المحل كتب عليها «متجر شلسكي» أو ما شابه ذلك، وبدأنا نتاجر. كان السود يسمونه

«متجر الرجل المسن شلسكي»، وهذا ما أسموه، الرجل المسن شلسكي. كانوا يضحكون عليه وعلى متجره القديم المهترئ من وراء ظهره، ولكنهم، وعبر السنين، فقدأغنوا المسن شلسكي، ولم يضحك أحد بعدئذ.

كان متجرنا مبنى خشبيا ضخما غريب الشكل وآيل إلى الانهيار، ويبدو كأنه متماسك بواسطة نكاشات الأسنان والصمغ. يقع على أطراف البلدة بالقرب من السجن ويشرف على رصيف تفريغ السفن. في الطابق الأرضي كان المتجر، مع مساحة للتخزين، غرفة للثلج، ومطبخا بفرن يعمل بزيت الكاز، والساحة الخلفية. كنا ننام في الطابق الأعلى. لم تكن هناك غرفة للجلوس ولا سفرة في الطابق الأعلى، بل مجرد غرف. كنا أنا ودي دي ننام في غرفة واحدة تحت لحافنا الكبير، وكثيرا ما كانت أمي تنام في الغرفة نفسها معنا، وينام أخي سام وتاته في الغرفة الأخرى. لم يتمتع والداي بالعلاقات الحميمة التي يتمتع بها معظم الوالدين. كانت أمي زوجة وأما جيدة جدا، وعلى الرغم من صحتها السيئة بوجه عام، حيث ترى بعين واحدة بالكاد، وكانت تعاني من أوجاع في معدتها، وازداد ألمها باطراد عبر السنين، إلا أنها كانت تفعل بيد واحدة ما أستطيع أن أفعله بيدين، وكانت تطبخ مختلف المأكولات اليهودية، وأطباق الطعام الكشير أكثر مما أستطيع أن أتذكره. وكانت ترتق الجوارب، وتعلمت منها كيف أقطع السمك واللحم والخضار على خشبة شبيهة بخشبة اللحام. كانت تحتفظ بالتقاليد الدينية لربة بيت يهودية وكانت وفية لزوجها، ولكن تاته لم يحبها على الإطلاق. كان يسميها بأي اسم، ويستهزئ بعاهتها. كان يقول: «أشعر بالغثيان عندما أنظر إليك»، و«لماذا تكلفين نفسك لتكوني جميلة الشكل؟» كان زواجه بمثابة صفقة تجارية له، كان يريد الأموال فحسب، وأن يكون أمريكيا. كان يريد هذين الأمرين، وحصل عليهما، ولكن ذلك كلفه عائلته التي أوقع بها أرضا ودمرها.

لم نتمتع بحياة عائلية. وكان المتجر حياتنا. كنا نعمل هناك من

الصباح حتى الليل، إلا في أوقات المدرسة، وكان تاته يحسب الوقت لذلك. فكان يقف في الطريق خارج المتجر، يداه على وركيه، في تمام الساعة الثالثة بعد الظهر، يترقبنا أنا وسام، وفي وقت لاحق دي دي أيضا، ونحن نعدو نحو المنزل قادمين من المدرسة لنبدأ العمل على الفور. كنا نعمل وظائف المدرسة في الفترات التي يخلو فيها المتجر من الزبائن. كان متجرنا هو الوحيد الذي يفتح أيام الأحد. لأننا نحتفل بيوم السبت من مساء الجمعة حتى مساء السبت، وبالتالي ازدهرت أعمالنا في أيام الأحد لأن البيض كانوا يشترون منا إضافة إلى زبائننا العاديين.

كنا نبيع كل شيء في ذلك المتجر: السجائر بالعلب أو بمفردها - كامل ولاكي سترايك وتشسترفيلد - بسعر بني واحد للسيجارة، أو وينجز بسعر بني لسيجارتين، كما كنا نبيع الفحم والخشب والحطب وزيت الكاز، والسكريات، والكوكا كولا، ومسحوق BC، والحليب، والقشطة، والفواكه، والزبدة، والمعلبات، واللحوم. وكان الثلج من أهم منتوجاتنا، وكنا نضعه في صندوق الخشب الكبير في مؤخرة المحل ونبيعه كقطعة كبيرة أو بقطع أصغر بخمسة عشر سنتا للقطعة. كان صندوق الثلج ذلك كبيرا بحيث يستطيع المرء أن يمشي فيه، ولكني لم أفعل ذلك، لأني لم أحب أبدا أي شيء يمكن أن يغلق ورائي أو يحبسني. إني أعاني من الخوف من الأماكن المغلقة، ولا أطيق الشعور بأني معلقة أو محبوسة في مكان. إني أحب التحرك، وأنا كذلك منذ طفولتي. أما هواياتي فلم يكن لدي إلا الركض. كان هو هوايتي. وأحيانا كنت أخرج مسرعة من باب المتجر في غياب تاته، وأركض، أركض إلى أي مكان. كنت أركض في الشوارع الخلفية التي يعيش فيها السود، وأعبر سكة الحديد إلى حي البيض. كنت أحب أن أعدو بأقصى سرعة، لأشعر بالريح تهب في وجهي، ولأرى الأشياء، وألا أكون في المنزل. كنت دائما من النوع الذي يحب الركض.

طبعا، كان هناك ما يجب أن أهرب منه. كان والدي يفعل بي أفعالا

عندما كنت فتاة صغيرة لم أستطع أن أخبر أحدا عنها، مثل الدخول معي في السرير ليلا وارتكاب أفعال جنسية لم أستطع أن أخبر أحدا عنها. وعندما نذهب إلى الشاطئ في بورتسماوث. كان ينزل إلى الماء معي بحجة أنه يعلمني السباحة. وكان يمسكني بالقرب من جسمه عند أعضائه التناسلية وينتصب قضيبه. ولدى عودتنا إلى الشاطئ كانت أمي تسأل «هل تتحسنين في السباحة؟» وكنت أجيب «نعم يا أمي »، وهو واقف هناك يحملق بي فكنت أخاف منه كثيرا.

وكلما سنحت له الفرصة كان يحاول الاقتراب مني أو التسلل إلى السرير معي لاستغوائي. كنت أخاف من تاته ولم أحبه على الإطلاق. فكنت أرتاع منه وأرتاح كلما غادر المنزل. ولكن ما فعله بي قد أثر عليّ من نواح كثيرة، فكان اعتدادي بنفسي قليلا جدا في طفولتي، وبقيت على هذه الحال لسنين طويلة، وحتى الآن لا أريد مخالطة أي شخص متعجرف يتأمر عليّ، لأن ذلك يوتر أعصابي. إني أخبرك بذلك فقط لأنك ابني وأريد أن تعرف الحقيقة، ليس أقل. كان اعتدادي بنفسي ضئيلا في طفولتي وشعرت بأني دنيئة.

يقر الناس بذلك، أليس كذلك؟ يقولون: «أحست بأنها دنيئة، فتزوجت زنجيا». على كل حال، لا يهمني، فقد غير أبوك حياتي، لأنه علمني عن الله الذي رفعني وغفر لي وجددني. كان من حسن حظي أن التقيت به، وإلا لكنت أصبحت عاهرة أو ميتة. من يعلم ماذا كان سيحدث لي؟ ولدت من جديد في المسيح، وكان ذلك يجب أن يحدث بعد كل الذي عانيته. طبعا لم يعن كوني يهودية اني تعذبت أربع وعشرين ساعة كل يوم، كانت لنا أيام بأوقات جيدة، خاصة مع أمي، مثل عيد الفصح الذي كان يجب علينا فيه تنظيف البيت تنظيفا كاملا، بحيث لا يوجد حتى فتاتة خبز فطير في أي مكان. وكنا نستمتع بالإعداد له. كان يتعين استخدام صحون خاصة بعيد الفصح، وكنا نقيم عشاء كبيرا، حيث تجلس العائلة ويوضع على المائدة بسكوت فطير وبقدونس وبيض مسلوق وغير ذلك من

المأكولات اليهودية التقليدية. كنا نضع كرسيا فارغا لقدوم النبي الياس لأن اليهود يعتقدون أن المسيح الحقيقي لم يأت بعد. وكانت قراءة التفسير الديني واجبة، وكان تاته يسألنا نحن الأطفال لماذا نحتفل بعيد الفصح. وصدقني، كنا نعرف الإجابة لتحاشي قيامه بضربنا على وجوهنا، ولكني أصارحك بأني كنت أنظر إلى الكرسي الفارغ المتروك للنبي الياس عند المائدة، وأتمنى أن أستطيع الذهاب إلى المكان الذي يوجد فيه الياس، وأتناول الطعام في منزل الغير حيث لا يتسلل أبي إلى السرير معي في الليل، يقاطع أحلامي بحيث لاأعرف إذا كان هذا هو فعلا، أم أنه كان الكابوس نفسه يتكرر مرارا وتكرارا.

(٦)
العهد الجديد

كانت أمي تحب الله، وكانت تذهب إلى الكنيسة كل يوم أحد دون استثناء، البيضاء الوحيدة في المكان، تشوّه الترانيم الجميلة بصوت غنائي شبيه بمزيج من محرك بارد عند محاولة تشغيله صباحا في الخريف، وأنين غسالة. كنا أنا وإخوتي نكتم ضحكاتنا فيما تطلق أمي في الترانيم بحيوية ومتعة: «نتكل،نتكل، بسلامة وأمان..» ويرتفع صوتها الحاد إلى أعلى وأعلى، وتذكرنا بكورلي في البرنامج الفكاهي المهرجون الثلاثة. كان صوتها يبدو رديئا حيث كثيرا ما توقعت أن يقوم القس أوينز من مقعده لإيقاف الترنيمة. فكان يجلس وراء منبره، عيناه مغمضتان في نشوة روحية، يرتدي ثوبا أزرق طويلا بمنديل أبيض وأكمام فضفاضة وكأنه على استعداد للصعود إلى السماء، إلى أن تثيره إحدى نغمات أمي الخرقاء، وعندئذ يفتح إحدى عينيه فجأة وكأن أحدا سكب ماء باردا على ظهره، ويدير نظره بهدوء في دائرة يحدق في جماعة المصلين الذين يبلغ عددهم أربعين نسمة تقريبا، لمعرفة مصدر الهرير. وعندما تستقر عينه على أمي، كان يومئ برأسه وكأنه يقول «هذه ليست إلا الأخت جوردان»، ثم يعود إلى نشوته الروحية.

في عالم الواقع كانت أمي «السيدة ماكبرايد» أو «السيدة جوردان»، يعتمد ذلك على استعمالها لاسم أبي أو اسم زوجها، غير أنها كانت الأخت جوردان في كنيسة القس أوينز. وكان القس أوينز يتعجب عندما تدخل أمي وتجر ستة منا وراءها، ويقول: «أحضرت الأخت جوردان عددا غير قليل من أطفالها اليوم. عدد غير قليل». وكنا نعتبره مضحكا. كان معلمنا في مدرسة الأحد للتعليم الديني، إضافة إلى كونه الحلاق المحلي الذي أصبح يقص شعرنا بعد أن كبرنا ورفضنا مساعي أمي في هذا الصدد. كان يضع طاسة على الرأس

ويقص حولها. كان رجلا نحيفا يرتدي بدلات من قماش بوليستر ويرتب شعره على الطراز القديم ويمشطه إلى الوراء في تمويجات. لم يستطع القراءة بشكل جيد فكنت أقرأ على نحو أفضل منه عندما كنت في الثانية عشرة من عمري. كان يقف على المنبر ويمسك محرمة بيده ويكافح بقراءة آيات الكتاب المقدس كفاح المستميت. فيبدأ بالكلمات، «آيتنا اليوم هي... آه، هم... آه....». ويتصفح كتابه المقدس، ويجد الآية أخيرا، ويضع إصبعه عليها، ويمكن أن نسمع تكتكة الساعة وهو يسعى إلى لفظ الكلمات ويحرك شفتيه بصمت، فيما يجلس الحاضرون في الكنيسة في انتظار، وأختي هيلين التي تعزف البيانو في الكنيسة تخمد ضحكاتها وتحملق أمي فيها بغضب وتهز قبضتها وتعد صامتة بالانتقام منها بعد نهاية القداس.

كانت خطبة القس أوينز تبدأ كالقطار الصغير البطيء وتنتهي بهدير قاطرة ضخمة، فيبدأ بتشدق بطيء، ثم يتحمس ويقفز من موضوع إلى موضوع وكأنه يتعتع بهيجان: «نحن... (صمت) نعلم... اليوم...أره... هم... قلت إننا نحن... نعلم... أن.... المسيح (يقول المصلون «آمين!»)... آه... نزل... (نعم! آمين!) قلت إنه نزل!... (تابع قولك!) إنه نزل وقاد أهل القدس - آمين!» ثم ينتقل إلى أسلوب «آمين» السريع، حيث يتكلم بتحرك مسرع وتخرج الكلمات من فمه كطلقات المدفعية، وكانت كلمات «آمين» تطلق عبر الغرفة وكأنها طلقات. «إنه من خير عظيم آمين أن نعرف الله آمين وأقول لكم آمين تعالوا فقط آمين إلى الله بأنفسكم آمين لن ترتدوا عنه آمين آمين آمين! هل يمكنكم أن تقولوا آمين؟» (آمين).

وكنا نحن في الصف الخامس، الأخت جوردان في قبعتها وفستانها الأزرق، تضحك بصوت خفيف وتبتسم وأحيانا تلوح بيديها في الهواء مثل باقي الآخرين. كانت أمي تحب الكنيسة، أي كنيسة. وأحبت حتى كنيسة القس اوينز المعمدانية لأي كان، مع أنه ليس خطيبها المفضل

لأنه ترك زوجته، أو تركته زوجته.. لم نعرف. كانت أمي خبيرة بالقساوسة، تعرفهم كما يميز خبير بالنبيذ الفرنسي بين نبيذ بوجولي أحمر ونبيذ فوفري أبيض. ولم يكن القس اوينز من بين الخمسة الأوائل على الرغم من مواهبه في الوعظ، وتتضمن قائمة النخبة هذه والدي المرحوم، والقس المرحوم ابنر براون من كنيسة الحاضرة المعمدانية في هارلم، وصديق عائلتنا القس ادوارد بلتون، وبضعة آخرين، جميعهم سود، وقد توفوا جميعا باستثناء القس بلتون. كانت تعتبرهم أشخاصا من الماضي القديم، أصحاب كرامة ووفاء، نشأوا فى الجنوب وتذكروا كيف كانت الحياة فى قديم العهد. كانوا يعرفون كيفية إثارة جماعة المصلين فى كنيسة بالطريقة التقليدية، دون الحديث عن السياسة والشتائم والسلبية، بل بكلام حقيقي عن الله واهتمام حقيقي بالمصلين. كثيرا ما كانت تقول وهي تفكر، «كان أبوك يعطي وقته لأي كان» . لم تعجبها الكنائس الضخمة بواعظيها السياسيين، ولا الكنائس الخمسينية المغالية. وعلى الرغم من نفورها إلى حد ما من القس اوينز وأسلوبه الغريب - حيث ألقى خطبة ذات مرة عن حرف التعريف - كانت تحترمه لأن كنيسته ووعظه قريبان في أسلوبهما من كنيستها «الأصلية»، كنيسة براون التذكارية الجديدة. غير أن الكنيسة «لأي كان» ليست كنيسة تستخدم محلا تجاريا كمقر لها، خلافا لكنيسة براون الجديدة، فكانت بناية صغيرة منفردة من الطوب تبعد عن الرصيف حوالي خمسة عشر قدما، عليها لافتة فوق الباب كان قد صنعها دهان بدأ كتابة الأحرف دون أن يحسب حساب قلة المساحة المتوفرة له، حيث كتب عليها: الكنيسة المعمدانية لأي كان.

لم أر أمي أبدا في نشوة غامرة في الكنيسة المعمدانية لأي كان، بمعنى أن «الروح دخلتها» وفقدت السيطرة على نفسها. وأشكر الله، فعندما يصاب أشخاص بالنشوة، كان ذلك أكثر من طاقتي على التحمل. كان معظمهم نساء، أمهات كبيرات عرفتهن وأحببتهن، ولكن عندما تدخل روح النشوة في عظامهن، وترفعهن إلى الحرية العذبة،

كانت النساء اللطيفات الكريمات اللواتي داعبن شعري وقبلن خدي وأعطينني قطع نقود، ينطلقن من مقاعدهن مثل لاعبين من فريق بتسبورغ ستيلرز لكرة القدم، ويصرخن «آه، نعم!» ويرقصن في الممرات بين المقاعد بأذرع ممدودة، يتسللن برشاقة الفهد الوردي، ويرتعشن ارتعاشا عنيفا، ويطير جزدان في اتجاه وقبعة في اتجاه آخر، فيما يسعى شماس رزين مسكين إلى الإمساك بهن للحيلولة دون تعرضهن لضرر، ولكنهن ينفضنه وكأنه ذبابة. وأحيانا يقوم شخصان أو ثلاثة أشخاص بالقبض على المرأة المصابة لمنعها من الإضرار بنفسها ونحن نتطلع بهيبة، وهي ترتج وتصرخ «يا مسيح، يا مسيح! نعم!» والقس اوينز ينشد «آمين!» و«آه، نعم!» بحيوية. لم أفهم أبدا لماذا تدخل الروح في هؤلاء الأشخاص بمثل هذه القوة، إلى أن بلغت سن الرشد وأصبحت أفهم طبيعة بركات الله الكثيرة وقوتها، ولكني علمت حتى في صباي أن الله هو القدير بسبب خضوع أمي التام له، وأيضا لأنها كانت أحيانا تفعل شيئا في الكنيسة لم أرها تفعله أبدا في المنزل ولا في أي مكان آخر. ففي مرحلة ما من القداس، غالبا عندما تنشد جماعة المصلين إحدى ترانيمها المفضلة، كانت تحني رأسها وتبكي، ولم أشاهدها تبكي إلا في هذه الظروف. فسألت بعد ظهر أحد الأيام في أعقاب القداس «لماذا تبكين في الكنيسة؟»

«لأن الله يجعلني سعيدة»

«إذن، لماذا تبكين؟»

«إني أبكي لأني سعيدة. هل من خطأ في ذلك؟»

أجيب «لا»، ولكن هناك خطأ لأن السعداء لا يبكون كما تبكي هي على ما يبدو. يبدو أن دموع أمي كانت تأتي من مكان آخر، مكان بعيد، مكان في داخلها لم تسمح لأي من أطفالها بزيارته، وحتى في صباي شعرت بأن هناك ألما وراءها. ظننت أن السبب هو أنها أرادت

أن تكون سوداء مثل كل الآخرين في الكنيسة، ربما لأن الله يفضل السود. وبعد ظهر ذات يوم، في طريق عودتنا إلى المنزل من الكنيسة، سألتها إذا كان الله أسود أم أبيض.

تنهدت تنهدا عميقا. «يا ولدي، الله ليس أسود وليس أبيض. إنه روح».

«هل يفضل السود أم البيض؟»

«إنه يحب جميع الناس، وهو روح»

«ماهي الروح؟»

الروح هي الروح»

«ماهو لون روح الله؟»

أجابت: «ليس لها لون. لون الله هو لون الماء، والماء ليس له لون».

استطعت أن أقبل ذلك، وعندما كبرت لم أزل أقبله. أما أخي رتشي، الذي هو الأخ الأكبر مني مباشرة، والذي كنت احتذي حذوه، فلم يقبله. وعندما بلغ رتشي الرابعة عشرة كان قد تطور من ولد يضحك ضحكا كصوت الدجاجة ويعذبني، إلى شاب وسيم وخلاب في المدرسة الثانوية، يبرع في العزف على السكسفون الصادح. قبلته المدرسة العليا للموسيقى والفنون في مانهاتن ووصل إلى مرحلة أصبحت موسيقى الجاز فيها كل شيء بالنسبة له. أخذ يرتدي سترة جلد وقبعة بسطح مدور منبسط على غرار عازف السكسفون الصادح الأسطوري لستر يونغ، والتحق بفرقة موسيقية محلية، وواجهت أمي صعوبات متزايدة في إقناعه بحضور المدرسة. كان الغنادرة في الحي يسمونه «هات» ويحترمونه، والفتيات يعجبن به. وكان مفعما بالمواهب الإبداعية، ولديه أفكار طبقها على نحو مستقل دون موافقة أمي ولاعلمها. وعلى بعد بضع بنايات من بيتنا كان هناك نصب تذكاري من حجر طوله ثمانية أقدام عليه لوحة معدنية لتكريم ذكرى حدث

تاريخي أهلي، ولاحظت أمي صباح ذات يوم وهي في طريقها إلى المتجر أنه قد تم تلوين هذا الحجر بألوان تحرير السود، أي أسود وأحمر وأخضر، وتساءلت «يا ترى من فعل ذلك؟» علمت، ولكني لم أستطع أن أخبرها، فقد كان رتشي هو الذي فعل ذلك.

كان كل إخوتي، وأنا كذلك، نعاني من نوع من الارتباك حول لوننا في وقت ما، ولكن رتشي عالج ارتباكه بأسلوب فريد. كان يعتقد في صباه أنه ليس أسود ولا أبيض، بل إنه أخضر مثل الشخص في مجلات الصور المرسومة المسمى العملاق العجيب، وكان يخترع ألعابا عنه، واستوعب هذه الشخصية في حياته اليومية استيعابا كاملا. فعندما يراني آكل الجزء الأخير من السجق والجبن، كان يقول «أنا الدكتور بروس بانر. إني أحتاج إلى قطعة من سندويشك. أعطني إياها الآن، وإلا سوف أغضب. يجب علي أن آخذها. من فضلك لاتجعلني أغضب. أعطني ذلك السندويش! أعطني... آه لا، انتظر... آرررغ!» وعندئذ يصبح العملاق، وإذا لم أكن قد بلعت السندويش بحلول ذلك الوقت، كان العملاق يأخذها.

في مدرسة الأحد صباح ذات يوم، رفع رتشي يده وسأل القس اوينز، «هل المسيح أبيض؟»

أجاب القس اوينز بالنفي.

سأل رتشي «إذن، لماذا يجعلونه أبيض هنا في هذه الصورة؟» ورفع الكتاب المقدس الذي نستعمله في مدرسة الأحد.

قال القس اوينز، «المسيح من جميع الألوان».

«إذن، لماذا هو أبيض؟ إن هذا يبدو لي رجلا أبيض». ورفع رتشي الصورة إلى أعلى ليتمكن الجميع في الصف من رؤيتها. «أفلا يبدو لكم أبيض؟». لم يتكلم أحد.

كان القس اوينز في حيرة من أمره، ووقف هناك يمسح وجهه بمنديله ويصدر الصوت الذي كان يصدره أثناء وعظه «يعني... آه. يعني... آه..».

شعرت بالحرج، وتطلع الأولاد الآخرون إلى رتشي وكأنه مجنون، وتمتمت «يارتشي، انس الموضوع».

«لا. إذا وضعوا المسيح في هذه الصورة هنا، وهو ليس أبيض ولا أسود، فيجب عليهم أن يلونوه رماديا. يجب أن يكون المسيح رماديا».

توقف رتشي عن حضور مدرسة الأحد بعد ذلك، مع أنه لم يكف أبدا عن الإيمان بالله. حاولت أمي كثيرا أن تقنعه بالعودة إليها، ولكنه رفض.

كانت أمي تفتخر افتخارا كبيرا بعلاقتنا مع الله، وكل مرة عند عيد الفصح كان يتعين علينا أن نقوم بأداء عمل في كنيسة براون الجديدة، أن نعزف على آلاتنا، أو نتلو حكاية من الكتاب المقدس لجميع المصلين في الكنيسة. كانت أمي تتطلع إلى ذلك اليوم بحماس، فيما كنا أنا وإخوتي نخشاه وكأنه الطاعون، وننتظر دائما حتى صباح الحدث قبل أن نحفظ الحكاية التي سنتلوها من الكتاب المقدس. لم أواجه أي مشكلة مع هذه الجلسات لتمرين الذاكرة، ولكن أخي الأكبر بيلي، الذي خدمته ذاكرته خدمة جيدة في وقت لاحق، ومكنته من التخرج من كلية الطب في جامعة ييل، تقدم في إحدى السنوات إلى مقدمة الكنيسة وهو يرتدي بدلة وربطة عنق، وواجه جماعة المصلين، وبدأ يتكلم: «عندما جاء المسيح لأول مرة..» ثم فقد ذاكرته كليا. ووقف هناك يختلج باضطراب لا يستطيع أن يفعل شيئا، وأنا وإخوتي نتقبض ونمسك أنفاسنا لنمتنع عن الضحك.

وتمتم عرابي الشماس ماكنير من مقعده على المنصة بجانب

القسيس، «لا تقلق الآن، حاول مرة أخرى»، فيما تختلج أمي في مقعدها تراقب بيلي، ووجهها يحمر.

بلع بيلي ريقه، وقال: «نعم. عندما جاء المسيح لأول مرة إلى... لا، مهلا... القدس، كان... اصبروا لحظة..». وقف عندئذ حائرا، يحدق في السقف ويعض على شفتيه، ويسعى سعيا مستميتا كي يتذكر القصة من الإنجيل التي كان قد حفظها منذ نصف ساعة، فيما تمتم المصلون، «لا تقلق الآن... استمر في المحاولة». وحدقت أمي فيه بغضب شديد.

مرت بضع ثوان محرجة أخرى، وقال الشماس ماكنير أخيرا: «لا داعي أن تروي قصة من الكتاب المقدس، يا بيلي. اتل علينا آية فقط من الكتاب المقدس».

سأل بلي «أي آية؟»

أجاب الشماس، «أي آية تريد».

«طيب». واجه بيلي المصلين مرة أخرى، وكان كل وجه يراقبه بصمت. فقال «بكى المسيح». وجلس على مقعده.

صمت كامل. ثم قال الشماس ماكنير «آمين».

بعد نهاية القداس تبعنا أمي التي خرجت بغضب، والتقى عرابي بها عند الباب وقال ضاحكا، «كل شيء بخير يا روث».

وردت عليه «لا، إنه ليس كذلك». وبعد عودتنا إلى المنزل، ضربت أمي بيلي على مؤخرته.

(٧)

سام

كان متجرنا يقع عند مفترق طرق على أطراف البلدة على تل منحدر طويل. إذا وقف المرء أمام المتجر ونظر إلى يمينه، يرى البلدة، خطوط سكة الحديد، والمتاجر الضخمة مثل ليغيتس وولورث. وإذا نظر إلى الأمام مباشرة، يرى المحكمة، والسجن، ومكتب كاتب المقاطعة، والطريق إلى نورفوك. وعلى اليسار يوجد مسلخ جافي، ورصيف السفن عند ملتقى نهر نانسموند، وجسر الشارع الرئيسي. كان الرصيف ضخما ومظلما، وتأتي قوارب من مختلف أنحاء العالم للرسو أو لإجراء التصليحات، وكثيرا ما كان البحارة يدخلون المتجر ويدعونني وأختي دي دي إلى زيارة قواربهم. كانت أمي تقول «لا، شكرا». لم تفهم كلمة من حديثهم، ولكن حالما يقولون «تعالوا معنا»، كانت تقفز من كرسيها بجانب الباب وتقف أمام أولئك البحارة الكبار، وتهز رأسها وتقول باللغة اليدية، «لا، لا، انصرفوا. اطلب منهم أن ينصرفوا»، ولا تجعلهم يغيبون عن بصرها أبداً.

كنا عند مفترق الطرق الذي يدخل منه الطريق من نورفوك وبورتسموث إلى سافوك، وكان المرور عند ذلك المفترق كثيفا على الدوام. ولا أقصد المرور كما تراه اليوم. ولكن في تلك الأيام كانت سيارتان أو ثلاث سيارات تعتبر مرورا، أو أشخاص يمشون على الأقدام، أو مزارعون يقودون بغالا تجر عربة عليها محاصيل الفول السوداني، أو جنود في شاحنات من القواعد في نورفوك، أو سجناء مقيدون بسلاسل. كان الناس يتنقلون بأي طريقة ممكنة في تلك الأيام.

كنت جالسة وراء المنضدة في متجرنا بعد ظهر أحد الأيام، ومرّت سيارة مليئة برجال يرتدون شراشف بيضاء وقبعات بيضاء تغطي رؤوسهم، بثقبين صغيرين للعينين في كل منها لتمكين صاحبها من

الرؤية. كانوا يقودون سيارات سوداء من طراز قديم. يجلس رجلان في الجزء الأمامي المفتوح، ورجلان آخران في الجزء الخلفي الذي هو بمثابة قمرة. مرت سيارة وراء سيارة، بعدد كبير وكأنه استعراض. خرجنا من وراء المنضدة ووقفنا خارج المتجر لمشاهدتها. سألت دي دي «ما هذا؟» وأجبت «لست أدري».

كانت منظمة كوكلاس كلان تمر بالبلدة.

لم أكن أعرف شيئا عن كوكلاس كلان، ولكن زبائننا السود خرجوا متسللين وهربوا إلى بيوتهم حالما رأوهم، وظلوا مختبئين لكي لا يجلبوا الانتباه كلما ظهرت عصابة الكلان. كانت هذه العصابة تسوق سياراتها في الشارع الرئيسي في وضح النهار، ولم يتخذ أحد أي إجراءات ضدها. وكان يبدو لي أن الموت يحيط بسافوك دائما، وكنت أسمع على الدوام عن شخص وجد مشنوقا أو عائما في النهر عند رصيف السفن. كنا قلقين أيضا في أسرتي بسبب وجود كثير من المشروبات الكحولية والسكر في الجنوب، ولأن اليهود لم يكونوا محبوبين، كان تاته يضع مسدسا معبأ بطلقاته تحت المنضدة بجانب الصندوق، وكان ينظف ذلك المسدس أكثر مما ينظف بنطلونه ليكون جاهزا لأي شخص يحاول أن يأخذ منه أمواله. لم يثق بأحد، وكان يعتقد أن السود يسعون دائما إلى سرقته، ويجلس أمي بجانب الباب ويقول لها باللغة اليدية «راقبي السود». كان يسرق الكثير من هؤلاء الناس ببيعه بضائع رخيصة لهم بضعفي سعرها، وكان يقلق من احتمال سرقتهم له!

كنت أقلق دائما على تاته خوفا من أن تنطلق رصاصة، عن طريق الخطأ، فتقتله وهو ينظف مسدسه. لم أرد أن يحدث له شيء على الرغم من خوفي منه. كانت لنا جارة، السيدة براون، وهي امرأة بيضاء تعاني من ورم في إصبعها الوسطى من جراء التهاب قد أصابها، وفي تلك الأيام كان الناس يصابون بالتهابات ويفقدون أصابعهم وأسنانهم

بسهولة. في الواقع كانت لدى كل من أمي وأبي أسنان اصطناعية، ركبتها أمي أولا، وبعد ذلك ذهب تاته باستخفاء وحصل على أسنان اصطناعية له. أعطاني أمرا بصوت جاف ذات يوم مثل «احملي هذه الألواح من الصابون»، ونظرت إلى فمه ورأيت طقما جديدا من الأسنان البيضاء، فقلت لنفسي «إن صوته غريب». على كل حال، كانت السيدة براون أحد البيض القلائل في سافون الذين عاملوني بلطف. كانت لها ابنة اسمها ماريلين وابن اسمه سايمون. كان سايمون مدمنا على الكحول، ويعود إلى المنزل ليلا مترنحا في مشيه إلى أن قتله سكران تسلق إلى شرفته وطعنه بسكين في عنقه.

كانت ماريلين تعمل في وسط البلدة، وكان مديرها ينظف مسدسه في مكتبه وقتل بإطلاق النار على نفسه خطأ، واضطرت ماريلين إلى المشي فوق جثته لتخرج من هناك، الأمر الذي هزها كثيرا، وهزني أنا أيضا، لأن تاته كان ينظف مسدسه دائما، وإذا انطلقت منه رصاصة وقتلته خطأ فلن أخطو فوق جثته بالتأكيد من أجل الخروج. أفضل القفز من النافذة، وسوف يضطر إلى البقاء هامدا هناك ويتجمع عليه الذباب إلى أن يأتي أحد لإخراجه. لم أحب الموتى ولا الأسلحة النارية أبدا، لذلك لم أسمح لأطفالي أبدا أن يلعبوا بمسدسات أو ببنادق ألعاب.

غير أن الناس في تلك الأيام كانوا يستخدمون البنادق ليصطادوا وليعيشوا. كانت تلك هي الثلاثينيات. عصر الركود. وكان الناس فقراء، يستخدمون البنادق وقصبات صيد السمك للبقاء على قيد الحياة. إذا مرضت، فليعينك الله، لأنك ميت لا محالة. كان السل والنزلة الصدرية المزدوجة مستشريين في تلك الأيام، وكانت أمي تخشى إصابة أحد أطفالها بهما، لأن أحد إخوتها كان قد توفى في أوروبا من جراء وباء النزلة الوافدة. ولكن بعد أن أقمنا المتجر، أخذنا نربح أموالا وأصبح بإمكاننا أن ندفع لطبيب. كان زبائننا السود يدخلون المتجر ويشترون مسحوق بي سي ويستعملونه، فهو طبيبهم. كان هو المسحوق

القديم الذي كان الناس يشترونه ويأخذونه كما يأخذون الأسبيرين، وبي سي هو اسمه التجاري. كان يكلف خمسة وعشرين سنتا لعلبة زرقاء وبيضاء صغيرة، وكان الناس يقولون إنه يجعلهم يشعرون بصحة أفضل ويعطيهم الحيوية. طبعا كان يحتوي على كوكايين في ذلك الوقت، ولكن الناس لم يكونوا يعرفون ذلك، وكانوا يتداوون بالبي سي لأي مرض. وفي الواقع إذا دخل أحد لشراء كمية أكثر من اللزوم لامرأته أو طفله، كنا نقلق، لأنه يحتمل أن يكون الشخص الذي يأخذ هذه الكمية من البي سي مريضا للغاية، وربما على وشك الموت. كان الناس يمرضون ويموتون في تلك الأيام، وكأن ذلك رقصة جديدة. هوب! ويصبح الإنسان جثة هامدة.

يا ليت بعض هؤلاء الشباب السود اليوم يستطيعون أن يروا كيف عاش السود في سافوك في ذلك الزمن. شيء لا يصدق. أكواخ دون مياه جارية، ولا أسس ولا حمامات ولا مراحيض. لم توجد طرق معبدة ولا كهرباء. كنا نمشي أنا وأمي أحيانا على الطرق الترابية خلف المتجر، والتي كان الكثير منها ينتهي في الأحراج. وهكذا كانت حياة السود هناك طريقا مسدودا.

لم يشتكوا من ذلك. ولمن يمكن أن يشتكوا؟ الشرطة؟ الشرطة لن تذهب إلى هناك، هل جننت؟ كانوا يخافون، أو لا يرغبون. ولكن الشيء الذي كان يجذب انتباهي دائما بالنسبة للسود هو أنهم كانوا يلبسون ملابس نظيفة للكنيسة يوم الأحد، حيث لاأتمكن من التعرف إليهم. كان يعجبني ذلك. إن لهم مثل هذا التصميم عندما يأتي صباح كل يوم أحد. كانت عائلاتهم معا وتبدو سعيدة على الرغم من فقرها. كان تاته يكره السود، ويكيل الشتائم للأطفال الصغار باللغة الييدية ويستهزئ بوالديهم أيضا. وكان يقول باللغة الييدية، «انظروا إليهم يضحكون. ليست لديهم عشرة سنتات في جيوبهم، ويضحكون دائما». بينما هو كانت لديه

أموال كثيرة، ولكننا كنا دائما مكتئبين. لم يستطع أخي سام تحمل ذلك وهرب حالما كبر.

كان سام شبيها بظل، وهو قصير ومتكتل، بشعر كثيف وحاجبين كثيفين، وساعداه وساقاه ثقيلة. كانت له سلطة كبيرة علي وعلى دي دي لأنه كان أكبر مني بسنتين، ولكنه لم يستغل وضعه كشقيقنا الأكبر، بل كان هادئا ومستكينا. كانت أمي تحبه كثيرا، ولكن تاته كان يخوّفه كثيرا. كان تاته يجلسني مع سام مساء كل يوم بعد العشاء ويجبرنا على دراسة العهد القديم. كانت دي دي صغيرة لذلك، ولكننا أنا وسام لم نكن صغيرين، فكان أبي يقرأ علينا الكلمات ويجعلنا نرددها عليه. كان سفر الجامعة المفضل عند تاته: «قلت في قلبي سوف يحكم الله على الصالحين والأشرار لأن هناك وقتا لكل قصد ولكل عمل». هذا هو سفر الجامعة. مازلت أتذكر هذه الآيات، ولكني لم أحفظها محبة لله، بل لمجرد... ماذا؟ لا أعرف. الواجب. كان أبي حاخاما، أليس كذلك؟ أفلا يجب أن يعرف أطفاله العهد القديم؟ كنا نكره هذه الجلسات لأن تاته لم يتحلى بأي صبر، وكثيرا ما كان يوقفنا في وسط الآية لتوبيخنا أو ضربنا إذا أبدينا عدم الاهتمام بالكتاب المقدس، وأحيانا كان التوبيخ يجرحنا أكثر من الضرب. فكان يقول: «أنت غبي، ولست إلا أحمق وعاص، ولا خلاص لك أمام الله». وكان سام هدفه الرئيسي، وكان يجبر سام على الجلوس في الزاوية لساعات طويلة وقراءة اللغة العبرية. ولم يبد أبدا أي محبة تجاه ابنه.

هل تعلم أنه كان يجب علينا إنزال أي حاخام يزور البلدة ضيفا عندنا وإطعامه؟ كان تاته يقول: «طوفوا بفلان في أنحاء البلدة»، ونضطر إلى التجول مع هذا الحاخام المسن وإطاعة أوامره، وكنا نكره ذلك. ولكن البديل كان أن يخلع تاته حزامه ويضربنا به.

كنت أحب أن ألعب لعبة الدومنو مع سام في صغرنا، ولكنه لم يعد لديه الوقت للعب عندما كبر. كان تاته يجبر سام على العمل الشاق أكثر مني ودي دي، فكان سام يعمل أعمال الرجل وهو لا يزال صبيا. كنا نفتح المتجر في الساعة السابعة صباحا، وكان سام ينشر الخشب، ويقطع الثلج، وينضد اللحوم، ويضع البضائع على الرفوف، ويطعم البقرة في الساحة خلف المحل، كل ذلك قبل مغادرتنا إلى المدرسة. كان يكره المتجر، وبعد المدرسة يبدأ العمل مباشرة. وعندما يريد التنصل من العمل في المتجر، لم يكن يعود من المدرسة إلا قبيل حلول الظلام، وكان تاته يوبخه ويعاقبه بإجباره على العمل لساعات أطول. كان لسام علامات منخفضة في المدرسة واحترام قليل لنفسه من جراء كل هذه المعاملة. كان أصدقاؤه قليلين لأنه خجول، وحتى إذا كان له صديق، لم يسمح لنا بإقامة صداقات مع من لم يكن يهوديا، كان ذلك محرما.

أجري له احتفال ديني عندما بلغ الثالثة عشرة من عمره، ونشرت صورة له مع تاته في الصحيفة، وافتخرت أمي به، وهذه هي المرة الوحيدة التي أتذكر أني رأيته يبتسم، لأنه جعل أمه سعيدة. ولكنه هرب بعد ذلك بسنتين، في العام ١٩٣٤ تقريبا، غادر المنزل ولم يعد أبدا. كان في الخامسة عشرة من عمره تقريبا، فذهب إلى شيكاغو وكتب رسالة إلى أمي من هناك. كتبت الرسالة باللغة الإنجليزية التي لا تجيدها أمي ولا تتكلمها، ولكني قرأتها إليها، وورد فيها: «إني بخير، ووجدت وظيفة ككاتب في محل تجاري». كانت وظيفته مع منتغومري وارد أو جي سي بني أو أحد هذه المتاجر. لم يعرف أحدا في شيكاغو، ووصل إلى هناك وحده. كانت أمي قلقة للغاية من هذه الرسالة، وأمرتني، «اكتبي إليه جوابا، اكتبي إليه الآن واطلبي منه أن يعود إلى المنزل». ففعلت ذلك. كتبت إلى سام وطلبت منه العودة إلى المنزل، ولكنه لم يعد، ولم أره مرة أخرى أبدا.

التحق أخي سام بالجيش وقتل في الحرب العالمية الثانية، ولكني لم أكتشف ما حدث له إلا بعد ذلك بكثير، عندما توفي أبوك عام ١٩٦٧. كان عندي سبعة أطفال وكنت حاملا بك واتصلت بإحدى عماتي لأطلب منها مساعدة، وقالت لي «قتل أخوك في الحرب». فسألتها ماذا حدث، وأجابت «لا تتدخلي في حياتنا. كنت خارجها، فابقي خارجها». وأغلقت الخط في وجهي، ولم يعد من شيء أستطيع أن أفعله من أجل سام سوى الدعاء له.

(٨)
إخوة وأخوات

كان بيت أمي فوضى منظمة، وكوني الثامن من اثني عشر طفلا، كنت أضيع بينهم، حيث إني لم أكن أجملهم ولا أصغرهم ولا أذكاهم. في بيتنا الذي كانت فيه الأموال قليلة والطعام قليلا، كانت قوة الفرد ناجمة عن قدرته على إعطاء الأوامر للآخرين. كنت ما أسمته أمي «طفلا صغيرا»، أي أحد الخمسة الصغار الذين كانوا نقاطا مجهرية في شبكة الطاقة في منزلنا، وبالتالي كانوا عرضة للتقييد والتعذيب والدغدغة والإزعاج والتجاهل، والأوامر بالخضوع لجميع أنواع الإهانات على أيدي «الأطفال الكبار» الذين لم يجبروا على النوم مبكرا، ولم يؤمنوا بالجنية التي تضع نقودا تحت وسائد الأطفال، والذين كانت أمي تعينهم في مناصب قوة، وهي طبعا التي تتصرف بالقوة المطلقة.

كان إخوتي وأخواتي أفضل أصدقائي، ولكنهم كانوا أعدائي في ما يتعلق بالطعام لأننا كنا كثيرين وجياعا باستمرار، نفتش على أكل في الثلاجة والخزائن الفارغة. كنا نخفي الأكل عن بعضنا البعض. نختزن سندويش جبن محمص أو سندويش سجق مقلي، ولكن المخابئ كانت معروفة للجميع، وكان الجميع يتفقدها، وغالبا ما تكتشف السلعة الثمينة وتؤكل قبل أن تبرد. كانت مؤامرات كاملة تحاك حول سرقة الطعام، تنطوي على الخدعة والغدر والمكايد والسرقة الفاضحة، والتهام الأدلة. وعندما أقمنا في مشاريع رد هوك قبل انتقالنا إلى كوينز، كانت أمي تختفي في الصباح وتعود في وقت لاحق ومعها علب ضخمة من زبدة الفول السوداني التي توزعها مؤسسة خيرية من سرداب في مشاريع السكن. كنا نتجمع حول العلب ونفتحها ونأكل زبدة الفول بالملعقة وكأنها شوربة، ونضحك عندما تغلق أفواهنا بهذه المادة اللزجة. عندما تغادر أمي إلى العمل، كنا نغمس خبزا أبيض في

قطر السكر، أو نأكل السكر الأسمر كما هو من العلبة، مما يشبع إشباعا جيدا. وكان لدينا جهاز لتحميص الخبز يكهربنا كلما نلمسه، فكنا نسمي خبزنا المحمص الخبز الكهربائي، وكنا نتكهرب كثيرا حتى ينتصب شعرنا. كثيرا ما ندبت أمي بسبب عدم قدرتها على شراء فواكه لنا، لأسابيع متواصلة أحيانا، ولكننا لم نكترث، وصرفنا كل أموالنا على المأكولات غير المغذية، وكانت أمي تنبهنا «إذا أكلتم هذه المواد ستسقط أسنانكم». وكنا نتجاهلها. وتقول «إذا مضغتم لبانا وبلعتموه، ستنسد فتحات أدباركم». فنصغي إليها ولم نبلع العلكة أبدا. لقد تعلمنا كيف نتناول الطعام ونحن واقفون، وجالسون، ومتمددون وعلى وشك النوم، لأنه لم يكن ما يكفي من المقاعد عند المائدة ليجلس الجميع، وكانت دائما مزاحمة جنونية على حقيبة أمي لدى عودتها من العمل في الساعة الثانية صباحا. كان مقصف بنك تشيس مانهاتن، حيث تعمل أمي ، يقدم العشاء للموظفين مجانا، وبالتالي كانت تملأ حقيبتها بسندويشات سجق وجبن وكعك وأي أشياء أخرى تستطيع نهبها وإحضارها إلى المنزل لتلتهمها الجحافل. وأول من يستطيع الاستيلاء على الحقيبة لدى عودتها يأكل، ومن يفوته ذلك فحظه تعيس.

كان الطعام الذي تحضره من العمل لذيذا، ولاسيما بالمقارنة مع الطعام الذي تطبخه هي، فلم تكن أمي تجيد الطبخ على الإطلاق. كان جريشها شبيها بالرمل والزبدة، وفيه كتل كبيرة تستقر في الأسنان وتلتصق باللثة. أما قطائفها ففيها مادة لزجة بيضاء وقشر بيض، ويخنتها تجعل أخي الصغير هنري يهرب إلى الطابق الأعلى بتقزز ويسميها «يخنة السجن»، ولكنه يعود بعد بضع دقائق ليتناول منها قبل أن تلتهمها الجماهير. وعلى كل حال، لم يكن لدى أمي سوى القليل من الوقت للطبخ، لأنها تكون مرهقة عند عودتها من العمل. كنا ننزل من الطابق الأعلى في الصباح ونجدها لا تزال لابسة ومستغرقة في النوم عند طاولة المطبخ، يرتكن رأسها إلى صفحات

الوظيفة المدرسية لأحد أطفالها، وفنجان قهوة باردة إلى جانب رأسها النائم. وكانت أشغالها البيتية تضاهي طبخها، وكانت تعلن «أنا أسوأ ربة بيت رأيتها في حياتي»، ولم تكذب في ذلك. كان بيتنا يبدو وكأن إعصارا قد عصف به، كانت هناك كتب، وصحف، وأحذية، وخوذ لكرة القدم، ومضارب للبيسبول، ودمى وشاحنات، ودراجات، وآلات موسيقية توجد في كل مكان ويستخدمها الجميع. كان جميع الصبيان ينامون في غرفة واحدة، والبنات في غرفة أخرى، ولكن لافتات «غرفة الأولاد» و«غرفة البنات» لم يعد لها معنى، فكنا نتسلل بين الغرفتين ليلا لتبادل الأسرار، ولنتجادل، ونتعاطف، ونتجسس، ونواصل ألعاب شطرنج ومونوبولي كنا قد بدأناها منذ أيام. كان أربعة منا يعزفون الكلارينيت نفسه. ونناوله بعضنا بعضا في دهليز المدرسة على غرار ظهير مساعد في ملعب كرة القدم، وكذلك الأمر بالنسبة إلى المعاطف والقبعات وأحذية الرياضة والجوارب النظيفة وبدلات الرياضة. كان الجميع يستخدمون خرقة حمام واحدة، كما كانت فرشاة أسنان واحدة تستخدم لخمس مجموعات من الأسنان واللثة، وكان كل واحد منا يحلف بأنها ملكه الشخصي. وتألف أثاثنا من كرسيين هزازين جميلين كانت أمي قد اشترتهما من محل ميسي لأنها رأت بطلها الرئيس جون كينيدي على التلفزيون يستخدم مثل هذا الكرسي ليهدهد طفليه، وأريكة لغرفة الجلوس، وتشكيلة من الكراسي والطاولات والخزائن والتخوت. كان جهاز التلفزيون الأسود والأبيض يشتغل أحيانا، ولم يكن تصليحه مهما في سلم أولويات أمي، فكانت تسميه «أنبوب الأغبياء» ونادرا ما سمحت لنا بمشاهدته، ولكننا لم نكن بحاجة إليه.

كان منزلنا مزيجا من سيرك وحديقة حيوانات، يشمل النشاط المتواصل، والأعمال البارعة الجريئة، والموسيقى، والحيوانات. جمعنا عبر السنين مجموعة من الحيوانات الأليفة: الجرابيع، والفئران، والكلاب، والقطط، والأرانب، والأسماك، والعصافير، والسلاحف،

والضفادع، التي كانت تلحسنا وتعضنا بالتعاقب وتسبب أمراضا غامضة انتشرت في بيتنا وكأننا بلد في العالم الثالث، مما أدى بنا إلى زيارة العيادة بمرافقة أمي ، حيث قام أطباء ضجرون بحقننا في مؤخراتنا وكأننا في صف التجميع في مصنع سيارات. أحضرت أمي صوصا إلى المنزل ذات مرة بمناسبة عيد الفصح، وكبر وكبر حتى عادت إلى المنزل من العمل في إحدى الليالي ووجدت ثمانية أطفال يطاردون ديكا حول غرفة الجلوس، وصرخت، «أخرجوه!» فأخرج وحل محله في النهاية كلب ألماني شرس اسمه ايب، كان يعضنا جميعا، وأحيانا يترك كومة من غائطه في زاوية ما، ثم يهر ويتحدانا أن نضربه. كانت الكومة تبقى لا يلمسها أحد، وبعد يوم تندثر الرائحة ونتجنبها إلى أن تجف وتتصلب مثل الصخرة، وعندئذ يتقدم شخص جريء، يرفس المادة المزعجة تحت جهاز التدفئة حيث تتفسخ وتصبح غبارا إلى أن تزول أو تكتشف.

لم نستشر أمي في هذه المشاكل، لأن وقتها كان جديرا فقط بالمشاكل الكبيرة مثل «هل لا تزال أرضية المطبخ تعوم في قدمين من الماء منذ أن سببتم فيضانا فيه؟» والمدرسة التي كانت في رأس سلم الأولويات، فلم تقبل أي عذر لعدم القيام بالوظيفة المدرسية، بل كانت تضربنا. ولم تسمح لنا بلفظ المسبات، وحتى استخدام كلمة «كذب»، كان علينا أن نقول «رواية». وكانت أمي تنصحنا، «انجز وظيفتك ولا تحك روايات، فلربما تصبح مثل أخيك دينس، انظر إلى جودة عمله. ثقف عقلك كما يفعل أخوك دينس».

دينس

كان من الممكن سماع التنهدات في أرجاء البيت كلما ذكرت هذا الاسم، وهي شبيهة بصفير سكة حديد لونغ ايلاند التي يمر خطها بالقرب من بيتنا.

كان دينس، الأخ الأكبر ورائد العائلة، فنانا يرسم صورا تروي قصصا عجيبة عن الأماكن التي زارها والأشخاص الذين التقى بهم. وكانت لديه أموال في جيبه، دولارات وسنتات حقيقية وفائض من النقود. كان بمثابة عملاق بيننا، يلقي بظله المستطيل الهائل علينا نحن الأطفال كالنصب التذكاري للرئيس لنكولن، الذي كان قد زاره مرتين. كان الحديث عن إنجازاته العظيمة في غيابه فقط، لأنه لم يكن يعود إلى المنزل إلا للإجازات، وكانت تروى بأوصاف زاهية، وتحلل وتشاع وتعظم ويثنى عليها. كانت أمي تمدح الغايات التي حققها وتتفاخر بها، وهي غايات لا نستطيع نحن البشر الضعفاء إلا أن نحلم بتحقيقها. في كل زاوية من البيت، دينس أكمل دراسته الجامعية، دينس ذهب إلى أوروبا، والآن لإنجازه المتمم، يسعى دينس الرائع، دينس العظيم، دينس، إلى أروع وأعجب إنجاز يمكن أن يأمل أي إنسان، أي ابن، في تحقيقه.

دينس سوف يصبح طبيبا.

لا يوجد أي شرف أعظم من ذلك، أو على كل حال، طبيب أو أستاذ مدرسة، يمكن أن تختار أيًا منهما. لو عرفت أمي ماذا كان يفعله دينس فعلا في الكلية، إضافة إلى كونه طالبا يحقق علامات عليا باستمرار، ربما اختلف رأيها فيه. كان دينس أحد أنشط الطلبة المناضلين من أجل الحقوق المدنية في تاريخ كلية الطب بجامعة بنسيلفانيا. شارك في المسيرة إلى واشنطن، ونظم نقابة لعمال المستشفيات، وجلس في مطاعم الجنوب لتحدي التمييز العنصري، وتعرض للرش بالغاز المسيل للدموع وبخراطيم المياه على أيدي السلطات المدنية. كان دينس في حرب على النظام، ولكن أمي لم تعترض على ذلك طالما أبقى حربه خارج المنزل واستمر في كلية الطب. غير أن أختي هيلين لم تفعل ذلك، فكانت هيلين في حرب مع الرجل الأبيض، وأدخلت حربها في المنزل ووضعتها عند قدمي أمي.

كانت هيلين الثانية من شقيقاتي من حيث العمر، وجميعهن كن لطيفات وساذجات وكثيرات الكلام وفضوليات، ولذلك أبعدتهن أمي عن الشارع وعن الرجال في جميع الأوقات. كن جميعهن جميلات، من هيلين ذات البشرة السمراء الغامقة إلى كاثي ذات البشرة الفاتحة شبه البيضاء، وكانت لجميعهن سواعد طويلة، ونمش وشعر أسود أجعد، وكان كل ولد في الحي يعرف أخواتي الخمس بالاسم والوجه. كنت أمشي في الشارع، ويأتي غندور كبير لم أره أبدا من قبل ويسألني «كيف حال كاثي؟» وكنت أرد عليه بلا مبالاة «بخير». وكادت كاثي تتسبب في كسر أنفي بضع مرات، ليس هناك أسوأ من أن يضطر المرء إلى القتال دفاعا عن أخته المزعجة والقبيحة التي يعشقها نصف الحي. كانت مشكلة حقيقية.

كانت هيلين الأكثر فنية من بين أخواتي. كانت رشيقة بشعر أسود تربطه بعقدة وراء رأسها، وترتدي بنطلون جينز وسترة من قماش قطني خشن مع شعارات السلام وأزرار كتب عليها «أوقفوا الحرب»، ورقع تحرير حمراء وسوداء وخضراء مخيطة على السترة. وكان أولاد من مختلف الأجناس - سود وبيض وآسيويين ولاتينيين - يتبعونها أينما ذهبت. كانت طالبة في المدرسة العليا للموسيقى والفنون، وكانت تعزف البيانو لمجموعة المرتلين في كنيستنا، حتى عهدت هذه المهمة فجأة صباح أحد أيام الأحد إلى أختي الأصغر جودي التي بلغت التاسعة من عمرها، والتي تعزف البيانو هي أيضا. ويبدو أن هيلين اعتزلت عن العزف للكنيسة صباح ذلك اليوم. وعندما سألتها أمي لماذا، أجابت هيلين «لا أريد ذلك»، وهذا قرارها النهائي. وكانت مثل هذه الردود المختصرة على أمي غير معهودة، وراقبنا في هيبة صمود هيلين وتكرار رفضها العزف لمجموعة المرتلين في الكنيسة، وتحملت الضرب بحزام أمي دون نشيج، وهزت كتفيها لتظهر عدم المبالاة بعد أن انتهت أمي .

وبعد ذلك بقليل اتصل عميد الموسيقى والفنون ببيتنا وسأل أمي لماذا تترك هيلين المدرسة. وأجابت أمي «لابد أنك تمزح . إن جميع أطفالي طلبة يحققون علامات عالية».

وأضاف العميد: «إلا هذه البنت، لأنها تركت منذ أسبوعين، وهذا شيء مؤسف».

ضربت أمي هيلين ضربا أقسى هذه المرة، ثم تكلمت معها لساعات. بكت هيلين بعد الضرب، ووعدت أن تتغير بعد ذلك الحديث، ثم لم تكترث وظلت تغيب عن المدرسة. سجلتها أمي في مدرستين أخريين، ولكنها تركت كلا منهما، وأعلنت أن «تعليم البيض لا يناسبني». وأدهشتنا لأنها أصبحت بوهيمية تماما، تلبس الخرز والبيريه وتستخدم زيوتا عطرة قالت إنها تمنحها قدرات معيّنة، وكان هناك عازف موسيقى ريفية على القيثارة اسمه اريك بيب يتبعها في كل مكان. تهيبنا، وطلبت ماما مساندة من القساوسة والأصدقاء وزوجها، لكن هيلين تجاهلتهم، وكانت تجلس في وقت متأخر من الليل مع إخوتي الكبار وتتحدث عن الثورة ضد الرجل الأبيض، ونحن الأطفال الصغار نائمون في الطابق الأعلى. وكنا أنا وأختي الصغيرة كاثي نتسلل إلى أعلى الدرج بملابسنا الداخلية لنسمع حديث الأطفال الكبار المحتد عن «تغيير النظام» و«الثورة» وتعظيمهم فضائل مارتن لوثر كينغ بالمقارنة مع مالكولم اكس، والعكس بالعكس، ويستمعون إلى تسجيلات آخر الشعراء. كانت هيلين في السابق شخصية هامشية في تلك المناقشات، وأصبحت الآن مركز الزلزال والمحرضة والمدافعة، وكانت تصرخ، «يجب أن تقاتلوا النظام! قاتلوا الرجل!».

ويثير هذا وابلا من التعليقات الضاحكة من إخوتي الكبار، لأنهم خبراء في الحياة والحكمة، كانوا قد رأوا كل شيء وفعلوا كل شيء.

«نعم، ولكن هل الرجل أنت؟ أم أنت الرجل؟»

«هل تقصدين الرجل أم المرأة؟»

«من هو الرجل؟»

«ولكن هل أنت الرجل الأساسي؟»

(أحدهم يغني) «عندما يحب الرجل امرأة!!»

كثيرا ما استمرت هذه الجلسات البهلوانية حتى عودة أمي من العمل، وانتهت في معظم الأحيان إلى أحاديث جادة عن الحقوق المدنية.

ذات ليلة، كنا أنا وكاثي مستلقيين في الطابق الأعلى نتظاهر بالنوم - وكنا أحيانا نتسلل بين غرفتينا - وسمعنا دويا هائلا، تبعته شتائم ومسبات، فجلسنا على الفور. كانت هيلين وروزيتا تتشاجران في الطابق الأسفل.

قلما تشاجر إخوتي مشاجرات حقيقية، ولكن المشاجرات التي وقعت كانت رهيبة، تنطوي على ملاطمة بجمع الكف، وكانت هيلين قد اختارت عملاقة المقاتلات، روزيتا، هي أكبر أخت والأذكى بين كل إخوتي، وفي مقعدها، على سريرها الذي رفضت أن يشاركها أحد فيه، كانت تجلس كملكة على عرش من وسائد السرير، متربعة على غرار بوذا، وتشرب ماء مثلجا وتستمع إلى محطتها الإذاعية العامة المفضلة، وتصدر أوامر طوال النهار. كانت تأمرنا بتقديم الماء البارد لها في كؤوس طويلة، وترسلنا إلى دكان السكاكر لشراء سجائر مونتكلير وحاجات أخرى لها. وكنا نحضرها بسرعة فائقة ونقدمها لها بخضوع ملائم. كانت تنام والراديو شغال بصوت عال والأضواء مشتعلة، وحينما تغفو كنا نمر خلسة أمام سريرها خوفا من إيقاظ السيدة من سباتها، وكانت ترفض أن يتحداها أحد. كان إخوتي الكبار يرتدون قبعاتهم باتجاه مائل ويتكلمون بأصوات منخفضة عن جيم براون ومحمد علي* ، ولكن لم يتجرأ حتى

---

* بطل الملاكمة المعروف. (المراجع)

أشجعهم، وحتى أخونا الأكبر دنيس، على مضايقة روزيتا، فكانت روزيتا الملكة المقيمة في منزلنا.

سَمِعْت صوت معطف يتمزق.

وصرخت هيلين «يا كلبة!» وسمعت قبضة تضرب جسما، وصرخت روزيتا.

أخذت كاثي تبكي، وقلت لها، «اسكتي!» لم يسمح بالمسبات في بيتنا، كانت ممنوعة منعا باتا، فالمسبات تعني أن الأمور خرجت عن نطاق السيطرة.

ازدادت الضجة، وسمعت الأولاد في الطابق الأسفل يقولون: «طيب، أوقفوا المشاجرة. امسكها. يا بيلي، انتظر.» ثم دوي، وضحكات من الأولاد، وصرخة متألمة من روزيتا. «آه، سوف تنالين عقابك الآن!» وخبطة قوية وصرخة من هيلين، ومصارعة إضافية يليها صوت أثاث يتطاير، وصراخ من ديفيد، ومصباح يتحطم، ومزيد من الضحك والمسبات. عقبت ذلك مشادة محمومة، وسمعت هيلين تعلن أنها ستترك، وفجأة أخذ الأولاد الأمر على محمل الجد.

«انتظري دقيقة!»

«اصبري، اصبري!»

«هذا جنون!»

قالت هيلين: «لا تلمسوني. لا يجب أن يلمسني أحد. كلكم تقرفونني، كل واحد منكم».

ضحكات.

«لقد سئمت هذا البيت!»

صمت، ونشيج، ثم بكاء شديد.

«يا هيلين...».

سمعت صوت الباب يفتح، ثم يغلق بعنف.

في وقت لاحق من تلك الليلة، حين عادت أمي من العمل ورأت كل الأضواء مشتعلة ونحن جميعا، بما فينا الصغار، ننتظرها في الطابق الأسفل في المطبخ، علمت أن الوضع ليس على ما يرام، فسألت «أين هيلين؟» والذعر يتضح في صوتها.

قيل لها «لقد غادرت».

فسألت «لماذا سمحتم لها أن تذهب؟»

«رفضت البقاء، يا أمي. حاولنا إقناعها بالبقاء، ولكنها رفضت».

تأوهت أمي ولطمت جبينها، ثم أطبقت قبضتيها. «يا رب... لماذا لم تجبروها على البقاء؟ لماذا؟» صمت، ونحن نرمش أعيننا ونبتلع ريقنا بشدة، وحل علينا الشعور بالذنب كسحابة.

لم تعد هيلين إلى المنزل في تلك الليلة، ولا في اليوم التالي ولابعده. كانت في الخامسة عشرة من عمرها. فاتصلت أمي بالشرطة في اليوم التالي، وجاء رجالها وأعدوا تقريرا، وفتشوا في الحي ولكنهم لم يجدوها. واتصلت أمي بكل صديقات هيلين، ولكنها لم تجدها. وفي الأسبوع التالي اتصلت أختي جاك بأمي من شقتها في هارلم. فكانت هيلين تحب جاك، كما كان الجميع يحبها. وكان من الممكن التحدث معها عن كل شيء. قالت جاك «يا روث، انها عندي. هي لاتريد أن تراك، ولكن لا تقلقي. اتركي الأمر يمر وينتهي، ولاتفزعيها». غير أن أمي لم تصبر، فأنهت المكالمة الهاتفية، ودعت أخي رتشي إلى المطبخ، وأعطته أجرة السيارة وتعليمات محددة: «أخبر هيلين بأننا سامحناها عن كل شيء وعليها أن تعود إلى المنزل».

ارتدى رتشي سترته الجلدية ووضع قبعته بسطحها المدور المنبسط على رأسه، واتجه إلى هارلم بحكم الواجب، فيما تمشت أمي جيئة وذهابا بأعصاب متوترة. عاد في وقت متأخر من تلك الليلة، وقبعته

مدفوعة إلى مؤخرة جبينه، وقال «لن تعود إلى المنزل، يا أمي ».

بعد ذلك بقليل، غادرت هيلين شقة جاك نهائيا واختفت.

فقدت أمي زمام السيطرة على نفسها، وقضت ليالي بكاملها تتمشى جيئة وذهابا، واتصلت بقساوسة وأصدقاء من الكنيسة، واستنجدت بزوجها الذي جاء مرات عدة خلال الأسبوع خلافا لعادته. وجرى نقاش لحلول أخرى، وأقيمت الصلوات إلى الله، وتم التعبير عن الأسف والاعتذار، ولكن هيلين لم تعد. قال أبي: «سوف تعود، سوف تحل المشكلة». ولكنه لم يعرف كيف يتعامل مع هيلين، حيث لم يوجد بينهما أي مفهوم مشترك، فقد كان شخصا قديم الأفكار والعادات يسمي المدرسة «التدريس» ويسميني «يا ولدي» وكان قد هرب من التمييز العنصري في الجنوب واعتبر التعليم، أي تعليم، امتيازا. وكانت هيلين قد تجاوزت كل ذلك.

مرت الأسابيع والأشهر ولم تعد هيلين.

اتصلت جاك أخيرا وقالت، «لقد وجدتها. إنها تسكن مع امرأة مجنونة». وأخبرت أمي أنها لا تعرف كثيرا عن المرأة إلا أنها ترتدي أوشحة كثيرة وتستخدم البخور. سجلت أمي العنوان وذهبت إلى المكان بنفسها.

كان مشروع سكن متردما بالقرب من شارع سانت نيقولاس، يقف أمامه المدمنون على المخدرات والخمر. مرت أمي بهم ومشت عبر ضباب من دخان حشيشة الكيف وأخذت المصعد إلى الطابق الثامن. ذهبت إلى باب الشقة واستمعت. سمعت موسيقى من جهاز ستيريوفوني في الداخل وصوت أحد يتكلم على الهاتف. طرقت الباب، وخفضت الموسيقى، وسأل صوت يبدو أنه صوت هيلين «من هناك؟».

أجابت أمي «جئت لأرى هيلين».

صمت.

«أعرف أنك هناك، يا هيلين».

صمت.

«يا هيلين، أريد أن تعودي إلى المنزل. مهما كان الخطأ، سنصلحه. انسي الموضوع وعودي إلى المنزل». فتح باب في الطرف الآخر من الممر، وراقبت امرأة سوداء بصمت المرأة البيضاء المقوسة الساقين ذات الشعر الأسود وهي تتحدث إلى الباب المغلق.

«من فضلك عودي إلى المنزل، يا هيلين».

كان هناك ثقب للبصبصة في الباب، فتح وحملقت منه عين سوداء كبيرة.

«من فضلك عودي إلى المنزل، يا هيلين. هذا المكان ليس مناسبا لك. عودي إلى المنزل».

أغلق الثقب.

(٩)
شول

في سافوك، كانت هناك مدرسة للبيض ومدرسة للسود ومدرسة لليهود. كنا نسمي المدرسة اليهودية «شول» باللغة البيدية. لم تكن مدرسة بالفعل، إنما الكنيس الذي كان تاته يعطي فيه دروسا باللغة العبرية ويعلم الأطفال التوراة ويعلم الأولاد الترتيل وما إلى ذلك. كان يتمرن على الإنشاد حول البيت أحيانا، وينشد «دو ري مي فا صول» وما إلى ذلك. كما كانوا يسمحون له بتطهير الأولاد أحيانا، كان ذلك جزءا من وظيفته كحاخام أن يذهب إلى بيوت الناس لتطهير أولادهم. كانت له سكاكين خاصة لذلك. كان يذبح الأبقار أيضا على طريقة الكشير ليأكلها اليهود في البلدة، وكثيرا ما كنا نحتفظ ببقرة في الساحة خلف المتجر. كنا نأخذ البقرة إلى مسلخ جافي في آخر الطريق، وكان الجزارون يعلقونها من السقف من رجليها الخلفيتين. يفتح تاته علبة سكاكينه. كانت له علبة مخمل فيها سكاكين خاصة لهذا الغرض. وينتقي إحدى هذه السكاكين اللماعة الكبيرة بدقة، ثم يتمتم بدعاء سريع ويغمد نصل السكين في رقبة البقرة. كانت البقرة ترتجف بعنف، ويتدفق الدم من رقبتها ومن خلال أنفها إلى مصرف في الأرضية الأسمنتية وتموت. بعد ذلك، كان الجزارون ينقضون عليها ويشقون بطنها ويخرجون أمعاءها وقلبها وكبدها وأحشاءها.

كنت على أبواب سن الرشد قبل أن أتمكن من أكل اللحوم. كان منظر أبي وهو يغمد سكينه في البقرة يجعلني أنفر منها لسنين طويلة. كان أبي يرعبني. وقد وضع خوف الله في قلبي.

لم يكن للمدرسة اليهودية اعتبار لدى البيض، وبالتالي حضرت مدرسة البيض، مدرسة توماس جفرسون الابتدائية. لو كان الأمر

كله لتاته، لما سمح لي بالذهاب إلى أي مدرسة. كان يقول باستهزاء: «لن تعلمك المدرسة غير اليهودية أي شيء يمكن أن تستفيدي منه». كان ينفق لنتلقى دروسا خاصة، من أشخاص آخرين، بالخياطة والحياكة وتدوين السجلات. كان بخيلا في أمواله، ولكنه لم يبخل في مثل هذه الأمور، وأقر له بذلك. كان يفضل أن ينفق لنأخذ دروسا خاصة من أن نحضر مدرسة غير يهودية. ولكن القانون هو القانون، ولذلك اضطررت إلى حضور المدرسة مع البيض. كانت هذه مشكلة منذ البداية لأن الأطفال البيض كانوا يكرهون اليهود في مدرستي. كانوا يسألونني، «يا روث، متى بدأت تكونين يهودية قذرة؟» لم أستطع تحمل السخرية، وغيرت اسمي في محاولة للانسجام أكثر. كان اسمي الحقيقي راحيل، روخل باللغة الييدية، وهذا ما كان والداي يطلقان علي، ولكني كنت استخدم الاسم روث في أوساط البيض لأنه يبدو أقل يهودية، غير أن ذلك لم يمنع الأطفال الآخرين من مضايقتي.

لم يحبني أحد. هكذا شعرت في طفولتي. إني أعرف ما هو الشعور عندما يضحك الناس عليك وأنت تمشي في الشارع، أو عندما يسمعونك تتكلم اللغة الييدية، أو عندما ينظرون إليك والكراهية تبدو في أعينهم. تعرف، كان يمكن لليهودي المقيم في سافوك أثناء فترة مراهقتي أن يشعر بالوحدة حتى ولو كان هناك خمسة عشر شخصا يقفون في الغرفة. لا أعرف لماذا، انه الشعور بأن لا أحد يحبك، هكذا شعرت أثناء فترة اقامتي في الجنوب. كان اليهودي يعتبر مختلفا عن الجميع، ولا يحبه إلا القليلون. كانت هناك أحياء بيضاء في سافوك، مثل حي ريفرفيو، لم يسمح لليهود بالملكية فيها. ورد ذلك في سندات الملكية، وبإمكانك التحقق من ذلك، فيكتب فيها: «للأنجلو سكسون البروتستانت البيض فقط». كان ذلك هو القانون هناك، وكانوا يعنون ما يقولون. كان اليهود في سافوك يتضامنون، ولكن مكانة عائلتي كانت وضيعة بسبب تعاملنا مع السود، فلم يكن لدي الكثير من الصديقات اليهوديات أيضا.

جاءتني بنت في ساحة المدرسة أثناء فترة الاستراحة، عندما كنت في الصف الرابع، وقالت لي: «لديك أجمل شعر. فلنكن صديقتين». وقلت: «حسنا». كنت مسرورة لأن هناك من يريد مصادقتي. كان اسمها فرانسيس، ولن أنسى فرانسيس ما دمت حية. كانت نحيفة بشعر بني فاتح وعينين زرقاوين، وكانت شخصية هادئة ولطيفة، وقد منعت في الواقع من اللعب معها لأنها غير يهودية، ولكني كنت أتسلل إلى بيتها وأحضرها خفية إلى بيتي. في الحقيقة، لم أضطر إلى التسلل إلى داخل بيت فرانسيس. كنت دائما ضيفة معززة هناك. كانت تسكن بعد المقبرة، على الجانب الآخر من البلدة، في بيت من الخشب ندخله دائما من الباب الخلفي. ويبدو أن العشاء كان يقدم باستمرار في بيت فرانسيس. كانت أمها تقدمه على صحون تأتي بها من خزانة خشب للخزف الصيني: لحم خنزير، دجاج، بطاطا، ذرة، فاصوليا خضراء، شرائح طماطم، فاصوليا ليما، خبز أبيض، وكعك سخن مع كثير من الزبدة، ولم أقدر أن آكل منه شيئا فقد كان «تريف»، أي غير كشير، ويحرم على اليهودي أكله. عندما قدمت لي أمها العشاء قلت لها: «لا أستطيع أن آكل هذا»، وشعرت بالحرج إلى أن رفعت فرانسيس صوتها وقالت: «أنا لا أحب هذا الطعام أيضا. طعامي المفضل هو مايونيز على خبز أبيض». هكذا كانت تقوم بمبادرات صغيرة لتبين لك أنها متعاطفة معك. لم يهمها على الإطلاق أني يهودية، وعندما تكون موجودة حولي، لم يكن أحد في المدرسة يضايقني.

كنت آخذ سنتات من الصندوق في المتجر، لنتمكن أنا وفرانسيس من حضور أفلام في سينما تشادويك، الأمر الذي كان يكلفنا عشرة سنتات فقط. أو كنا نعبر المقبرة في طريقنا من المدرسة إلى البيت لكي لا يرانا تاته، وكثيرا ما كنا نقضي فترة العصر ونحن نجلس على شواهد القبور ونتحدث. تعرف أني أخاف من الموتى، ولا يمكن أن تقنعني بالاقتراب من مقبرة حتى يومنا هذا، ولكني لم أخف منها إطلاقا عندما كنت مع فرانسيس. كان يبدو لي سهلا وطبيعيا

للغاية أن نجلس على شاهدة قبر شخص ما في برودة ظل شجرة ونتحدث. كنا نطيل الجلوس دائما حتى آخر لحظة، وعندما يحين وقت الذهاب، كان علينا أن نركض في اتجاهين مختلفين لنعود إلى منزلينا. كنت أراقبها وهي تنصرف أولا للتأكد من عدم وجود أي أشباح تحاول مطاردتها. كانت تمشي إلى الوراء وتواجهني وتسأل: «هل هناك أي أشباح ورائي، يا روث؟ هل الطريق آمن؟» وأجيبها «نعم، إنه آمن».

ثم تدور وتنصرف مسرعة، تتفادى شواهد القبور وتصرخ من فوق كتفها: «هل مازلت تراقبين يا روث؟ راقبي من أجلي!».

وأرد عليها بصراخ، «إني أراقب، ولا توجد أشباح». ثم أصرخ بعد بضع ثوان، «سوف أعد الآن». وأعد هكذا، «واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة.. عشرة!» وأطير إلى المنزل، أطير عبر تلك المقبرة!.

لم تكن عائلة فرانسيس غنية، بل كانت مثل الكثير من البيض في ذلك العصر، مزارعين فقراء. ليسوا كالفقراء الذين تراهم اليوم. كانوا نوعا مختلفا من الفقراء، نوعا أفضل من الفقراء، ولكنهم يظلون فقراء. الذي أقصده هو أن الإنسان لم يكن بحاجة إلى الأموال بقدر ما هو بحاجة إليها الآن، ولكنها لم تكن لديه كذلك، فكاد يكون جميع الناس الذين عرفتهم فقراء. كان كثيرون من زبائننا في فقر مدقع، سواء أكانوا سودا أم بيضا. كانوا يحصلون على طعامهم من نهر نانسموند عند أسفل التل من متجرنا. كان الرجال يصيدون السمك والسرطان عند الرصيف، ويصيدون سلاحف كبيرة ويأخذونها إلى البيت ليطبخوا منها شوربة ويخنة. كان هناك رجل لم يفعل شيئا سوى صيد السلاحف. كان يعود إلى المنزل وهو يحمل سلحفاة ضخمة تحت ذراعه كما تحمل كتابا من المدرسة، وكنا أنا ودي دي نحدق فيه. يقف أحيانا عند المتجر لشراء بهارات وتوابل مختلفة من مقومات شوربة السلاحف، وتكون السلحفاة لاتزال على قيد

الحياة، ترفس وتحاول الهروب، بينما ينكب الرجل على الخضراوات ويشتري ثوما وفلفلا أخضر ليطبخها بهما. كنت أشفق على السلاحف، وكنت أريده أن يعيدها إلى الماء، ولكني لم أقل ذلك، فلم يكن هو على استعداد لإعادتها إلى الماء لأجل أي كان. إنها عشاؤه.

كان الناس فقراء ويتضورون جوعا، ولكني أقر بأني لم أكن أجوع كما كان الكثيرون، ولم أضطر أبدا إلى أكل السلاحف والسرطان من الرصيف كما اضطر الكثيرون، ولم ينقصني الطعام قبل زواجي. لكني كنت محرومة بطريقة أخرى. كنت محرومة من المحبة والود. لم يكن لي شيء من ذلك.

(١٠)

المدرسة

في الستينيات، عندما توفر لدى أمي بعض المال، وكان ذلك نادرا مايحدث، كانت تأخذنا إلى شارع ديلانسي في الجانب الشرقي الأسفل من مانهاتن لشراء ملابس المدرسة، وتقول: «يجب أن تذهبوا إلى حيث توجد الصفقات، لأنها لن تأتي إليكم».

ونسأل: «أين الصفقات؟»

«الصفقات لدى اليهود»

كنت أعتقد أن اليهود شيء من الكتاب المقدس. كنت قد سمعت عنهم في مدرسة يوم الأحد، من خلال المسيح وما إلى ذلك. قلت لأمي، «إني لا أعرف أنهم مازالوا موجودين».

فأجابت، وعلى وجهها تعبير غريب، «نعم، هم موجودون».

كان التجار اليهود المتزمتون، بطواقيهم السوداء، يحدقون باستغراب حين تدخل أمي يتبعها خمسة أو ستة منا. وعندما يستعيدون هدوءهم ويبدؤون في التفكير بالربح، كانت تعاسرهم بالمساومة وتتكلم معهم باللغة الييدية إذا واجهت صعوبة. فإذا أخذ التجار يتكلمون باللغة الييدية بين بعضهم أثناء المساومات حول حذاء، كانت تقول بحدة: «أنا أعرف ماذا يحدث هنا، أنا أعرف ماذا يحدث!» كانت تتكلم كلاما غير مفهوم بصوت غاضب، وينظر التجار إليها ببهتة. أما نحن فتصيبنا الدهشة.

عندما حدث ذلك للمرة الأولى، سألنا: «يا أمي، كيف تعلمت أن تتكلمي هكذا؟».

وتجيب: «هذا ليس شأنكم. لا تسألوا الأسئلة أبدا، وإلا أصبحت عقولكم كالحجر. بعض هؤلاء اليهود لا يطيقونكم».

عندما أعود بذاكرتي إلى الوراء، فإنني أدرك أنني لم أشعر أبدا بأي علاقة حيوية مع اليهود. كنا منعزلين عن عالمهم أو أي عالم آخر غير عالمنا. غير أن جزءا مني كان يدرك أن اليهود يختلفون نوعا ما عن البيض الآخرين، وجزء من ذلك الإدراك التقطته من خلال أمي التي كانت تبحث عن أمور يهودية كثيرة عن قصد وعن غير قصد، وجزء آخر من خلال إخوتي الكبار. فقد قامت مؤسسة جوزيف ل. فيشر، التي تدار من كنيس ستيفن وايز في مانهاتن، بدفع كل تكاليف تعليم أختي روزيتا الجامعي في جامعة هاوارد للسود مثل التدريس والكتب وحتى الملابس، علاوة على ذلك، كان دينس، أخي الأكبر، معلم الحكمة ومصدر الكثير من أخبارنا عن العالم في الستينيات، يعود إلى المنزل من الجامعة وهو يكن الاحترام للأصدقاء اليهود الذين كان قد تعرف عليهم. كان يقول: «إنهم يؤيدون حركة الحقوق المدنية». كانت أمي تؤيد كل ما يتعلق بتحسين تربيتنا ووضعنا، وعلى الرغم من حرصها على إعلامنا بأن «بعض اليهود لا يطيقونكم»، كانت بطريقتها الغريبة والمتناقضة تجعلنا نفهم أيضا أنه لو حالفنا الحظ والتقينا باليهودي المناسب في رحلاتنا ـ سواء أكان مدرسا أو شرطيا أو تاجرا ـ سيكون ألطف من البيض الآخرين. لم تتكلم عن اليهود أبدا على أنهم بيض، بل تكلمت عنهم كيهود، الأمر الذي جعلهم مختلفين نوعا ما. ظل هذا الشعور مع كل واحد منا حتى سن الرشد، ان اليهود يختلفون نوعا ما عن البيض. فى وقت لاحق، بعد أن بلغت سن الرشد، كنت عندما أسمع الناس يتكلمون عن المحبة والكراهية بين السود واليهود، كنت أفهم ذلك في صميم قلبي، ليس من جراء أي دراسة اجتماعية خارجية، بل من خبرتي الخاصة مع المعلمين والزملاء اليهود في الصف ـ الذين كان بعضهم لطفاء ومخلصين وحساسين بالفعل، فيما لم يتمكن البعض الآخر من إخفاء نفوره من وجهي الأسود ـ وهم أشخاص تعرفت عليهم من خلال اتصالاتي مع العالم اليهودي، والتي نظمتها أمي ضمنيا بإجبارها كل واحد منا على حضور مدارس يهودية عامة على الغالب.

نقلت أمي يهوديتها إلينا من خلال مفهومها للتعليم أكثر من أي شيء آخر. كانت تعجب بأسلوب الآباء اليهود في تربية أولادهم ليتفوقوا في العلم، بعزلهم عن نظام المدارس العامة الذي يمكن أن يكون ضارا وخطيرا، وتجميعهم في مجتمعات معينة ليحضروا مدارس معينة، ويعلمهم معلمون معينون يفرضون الانضباط ويشجعون العلم، فحذت حذوهم. كانت توجهنا خلال السنة الدراسية بتوجيهات دقيقة بأن نحضر إلى المنزل كل ورقة يوزعها المعلمون في المدرسة، ولاسيما في شهر يناير، وكان أي إخفاق في اتباع هذه التعليمات يسفر عن ضرب مبرح. لدى عودتنا مع هذه الأوراق وفقا لواجبنا، كانت تنكب عليها تطالعها بإمعان وتبحث «جيد.. جيد.. هذا هو!» وتمسك الاستمارة الصغيرة وتملؤها. كان الجهاز البيروقراطي الضخم المعروف باسم نظام المدارس العامة في مدينة نيويورك ينفث كل سنة جوهرة صغيرة حيث يرسل مذكرة صغيرة إلى الوالدين تمنحهم الفرصة لإرسال أولادهم بالحافلة إلى مدارس في مناطق أخرى إذا أرادوا ذلك، ولكن الوقت المتاح لتسجيلهم كان محدودا، فهي فرصة لم تدم إلا بضعة أيام فقط. كانت أمي تترقب هذا الخيار وكأنها صقر، وبلااستثناء، تختار مدارس عامة يغلب عليها الطابع اليهودي: بي اس ١٣٨ في روزديل، وجي اتش اس ٢٣١ في سبرينغ فيلد غاردنز، وبنيامين كاردوزو، وفرانسيس لويس، وفورست هلز، والموسيقى والفنون. كنا نخرج من البيت كل يوم الساعة السادسة والنصف صباحا، ونتتشر عبر المدينة وكأننا جنود مسلحون بكتب، ومساطر طويلة، وآلات موسيقية، وتصريحات تمكننا من ركوب الحافلة ومترو الأنفاق بخمسة سنتات، وقسائم في جيوبنا لنتغدى في المدرسة مجانا. حتى إن أصغر واحد منا كان يحفظ جداول مواعيد مترو الأنفاق وحافلات المدينة المحلية عن ظهر قلب. تنزلك الحافلة رقم ٣ عند الزاوية، ولكن الحافلة رقم ٣أ تدور، وبالتالي يجب أن تنزل منها. عند بلوغي الثانية عشرة، كنت أقطع مسافة ساعة ونصف الساعة إلى المدرسة الإعدادية وحدي، كنت أستقل حافلتين لكل اتجاه يوميا.

أما معلمة صفي الآنسة أليسون، امرأة بيضاء شابة بنظارات، فإنها غالبا ما كانت تتجاهلني، وكانت تهز كتفيها بعدم اكتراث حين أتأخر عشر دقائق على بداية الدرس واعتذر لأن الحافلة تأخرت. كان الأولاد البيض في المقصف يحدقون بي وأنا التهم غداء المدرسة الرديء، ولكن ذلك لم يهمني، لأنه لم يكن لدي أي شيء آخر لآكله.

في ذلك العصر، عصر ما قبل الحافلات، كنا أنا وإخوتي نختلف عن معظم الأطفال الآخرين في حيّنا، حيث كنا ننتقل مسافات طويلة إلى أحياء بيضاء يهودية على الغالب لحضور المدرسة، فيما كان أصدقاؤنا يسيرون على الأقدام إلى مدرسة الحي. تعودنا على كوننا السود أو «الزنوج» الوحيدين في المدرسة، وكنا تلامذة متفوقين ومرتبين ومؤدبين، على الرغم من المواقف العنصرية لدى الكثيرين من معلمينا الذين كانوا على استعداد لتخفيض علامة ٩٥ في المائة التي نحققها في الامتحانات إلى ٨٥ أو ٨٠ بسبب أبسط الأخطاء. لم أكن أبدا أرتاح تماما إلى كوني الزنجي الرمزي. كنت الولد الأسود الوحيد في الصف الخامس في مدرسة بي اس ١٣٨ في حي روزديل من منطقة كوينز، الذي كان للبيض فقط آنذاك. بعد ظهر أحد الأيام، قرأ المعلم الصفحة الوحيدة عن «تاريخ الزنوج» من كتابنا لتعليم التاريخ، وهمس أحد التلامذة في الجزء الخلفي من الصف، «جيمز هو زنجي»، وتلت ذلك موجة من الضحكات. أسكته المعلم ونظر إليه نظرة غاضبة، ولكن بعد أن ألحق بي الضرر. شعرت بالدم يتدفق إلى وجهي وجلست منكمشا في مقعدي، أتأجج في داخلي، إلا أني لم أفعل شيئا. تصورت ماذا كان إخوتي سيفعلون. كانوا سيستشيطون غضبا، وكانوا سيهجمون على هذا الخسيس. لم يسمحوا لأحد أبدا أن ينعتهم بالزنجي. ولكني لم أكن مثلهم. كنت خجولا ومستكينا وهادئا، ولم ينفجر غضبي ولم يزمجر بقوة أتون لصهر المعادن إلا في وقت لاحق حيث تساءلت من هو هذا الشخص، ومن أين أتى هذا كله؟

دخلت الموسيقى والكتب في حياتي في ذلك الوقت. كنت أختفي في

عالم يتألف من رحلات غليفر وشين وكتب بفرلي كليري. أخذت دروسا في عزف البيانو والكلارينيت في المدرسة، وكثيرا ما كنت أختبىء في زاوية مع الكلارينيت لأتمرن عليه، يشرد فكري في موسيقى تشايكوفسكي أو جون فيليب سوزا، أو أحاول الارتجال على السكسفون على غرار عازف الجاز جيمز مودي، وأعود إلى الواقع بعد ساعة أو ساعتين. ولأهرب بعيدا أكثر من واقعي المؤلم، فقد خلقت عالما وهميا لنفسي، آمنت بأن ذاتي الحقيقية هي ولد يعيش في المرآة. كنت أغلق باب الحمام على نفسي وأمضي ساعات طويلة في اللعب معه. كان يشبهني تماما. كنت أحدق فيه، وأقبله، وألوي وجهي أمامه، وأصدر له الأوامر. وخلافا لإخوتي، فلم تكن له آراء. كان يستمع إلي. وكنت أسأله: «إذا كنت أنا هنا وأنت أنا، كيف يمكن أن تكون أنت هناك في الوقت نفسه؟»، فيهز كتفيه ويبتسم. وكنت أصرخ عليه وأشتمه، وأزجره، «رد علي!» وأدير ظهري لأنصرف، ولكن عندما أستدير فإنه يكون هناك دائما في انتظاري. كنت أعاني من وجع في داخلي، حنين، ولكن لم أعرف من أين أتى ولا لماذا كان لدي. أما الولد الذي في المرآة، فلم يكن يعاني من وجع على ما يبدو. كان حرا. كان لا يجوع أبدا، ويحتمل أنه كان له سريره الخاص، ولم تكن أمه بيضاء. كرهته. وكنت أصرخ «ابتعد عني. هيا بسرعة! أخرج!»، ولكنه لم ينصرف أبدا. كان إخوتي يضعون آذانهم على باب الحمام ويضحكون علي وأنا أتكلم مع نفسي. كان أخي رتشي يسخر مني بقوله: «ما أبلهك!».

مع أن إخوتي كانوا يسمونني «الرأس الكبير»، لأن رأسي كان كبيرا وجسمي نحيلا، كان العالم الخارجي يرجح احتمال نجاحي. كنت ولدا ذكيا، أقرأ كثيرا، أعزف الموسيقى عزفا جيدا، أحضر الكنيسة. كان شعري ما يسميه السود شعرا «جيدا» لأنه مجعد ولكنه ليس كشعر معظم السود. كان جلدي أسمر فاتحا، وكانت البنات تعتبرنني مليحا على الرغم من استحيائي. ومع ذلك، فلم يكن لدي أي فكرة عن من

أكون. كنت أحب أمي ولكني لا أشبهها على الإطلاق. وكذلك لم أشبه أيا من القدوات في حياتي ـ زوج أمي وعرّابي وغيرهما من الأقارب ـ وجميعهم سود. أما هم، فلم يشبهوا الأبطال الآخرين الذين كنت أراهم، الرجال الذين في الأفلام، رجال بيض مثل ستيف ماكوين وباول نيومان، الذين يتغلبون على الأشرار ويحظون بالفتاة الجميلة في النهاية، و التي كانت دائما بيضاء، بالمناسبة.

عدت من المدرسة بعد ظهر ذات يوم، وبادرت أمي بالكلام بينما كانت تطبخ العشاء، وسألتها: «يا أمي، ما هو الخليط المأساوي؟».

ومض الغضب على وجهها كالبرق، وانتفخ أنفها كالمنطاد، وهو يميل إلى الاحمرار والانتفاخ عندما تغضب. وسألتني، «أين سمعت ذلك؟».

«قرأته في كتاب»

«بالله عليك! أنت لست خليطا مأسـ... ما هو هذا الكتاب؟»

«مجرد كتاب قرأته»

«لا تقرأ هذا الكتاب بعد الآن». مصت أسنانها. «خليط مأساوي. ماأغبى هذه التسمية. هل سماك أحد ذلك؟».

«لا»

«لا تستخدم هذا التعبير أبدا»

«هل أنا أسود أم أبيض؟»

أجابت بغضب: «أنت إنسان. ثقف نفسك وإلا ستكون شخصا بلاقيمة».

«هل سأكون شخصا أسود بلا قيمة أم مجرد شخص بلا قيمة؟»

أجابت بصوت جاف، « إذا كنت شخصا بلا قيمة، فلن يهم ماهو لونك».

قلت: «هذا ليس له معنى يفهم».

« أنت انسان»، وعادت إلى طبخها، فيما انصرفت تائها حيرانا.

كدت أنفجر من الحيرة، وطرحت السؤال على إخوتي الكبار. وعلى الرغم من نهل الجميع من طبق المنطق الجنوني نفسه الذي كانت أمي تقدمه، لم يشاركني أي منهم الحيرة مثلي. سألت أخي ديفيد ذات يوم، «هل نحن بيض أم سود؟»

أجاب ديفيد، الذي كان قد ربى شعره ليصبح كثيفا على طراز «الأفرو»، «أنا أسود. أما أنت فيمكن أن تكون زنجيا. من الأفضل أن تستشير بيلي في الطابق الأعلى».

ذهبت إلى بيلي، ولكنه سألني قبل أن أتمكن من الكلام: «هل تريد أن ترى شيئا؟»

أجبت: «نعم».

قادني عبر بيتنا، ومررنا بأمي التي كانت منهمكة في تغيير الحفاظات، وبغرفة الجلوس المؤلفة من كومة من الكراسي المقلوبة، وكتب، ومناصب لأوراق الموسيقى، وآلات موسيقية، وصعدنا الدرج إلى غرفة نوم الأولاد، وإلى خزانة مليئة فعلا بنفايات من أسفلها حتى أعلاها. أدخل رأسه فيها وأشار إلى مؤخرة الخزانة، وقال: «انظر إلى هذا». عندما أدخلت رأسي، دفعني إلى داخلها من الخلف وأغلق الباب بقوة ومسكه. صرخت: «يا رجل، انه مظلم هنا!» وخبطت على الباب وحاولت إخفاء نبرة الخوف في صوتي. فجأة أحسست بأيد تقبض علي في الظلام، وسمعت هدير وحش. ازداد رعبي وخبطت بجنون على الباب بكل قوتي، وصرخت بصوت عال ومتوسل، «يا بيلي!» أرخى بيلي قبضته من على الباب وخرجت مسرعا من الخزانة، وهوى أخي ديفيد منها ورائي. سقط أخواي على الأرض يضحكان، بينما رحت أركض حول البيت أنادي أمي، أهرع من غرفة إلى غرفة في حالة من الفزع.

كانت مسألة العِرق مثل قوة القمر في بيتي. هي التي تجعل النهر يسيل، والبحر يزخر، والمد يرتفع، ولكنها قوة صامتة وجامحة، لاتقهر ولا تنكر، ولذلك يمكن تجاهلها تماما. أمي جعلتنا نعيش بوتيرة مسعورة لم تترك لنا أي وقت للمشكلة. ترعرعنا على الفكر والكتب والموسيقى والفن التي كانت تغذينا بها بدلا من الطعام. كلما سنحت لها الفرصة، كانت تأخذ خمسة أو ستة منا في مترو الأنفاق، وتدفع أجرة شخص واحد وتدفعنا جميعا عبر الحاجز الدوار فيما يعبس موظفو بيع التذاكر ويحملق الركاب. كانت تأخذنا إلى كل حدث مجاني تقدمه مدينة نيويورك من مهرجانات، وحدائق للحيوانات، واستعراضات، وحفلات، ومكتبات، وحفلات موسيقية. كنا نتمشى لساعات طويلة عبر المدينة في مشاوير متعرجة طويلة شملت أحياء كاملة كنا نمر بها دون شراء شيء ولا التكلم مع أحد. كانت تأخذنا مرتين كل سنة إلى عيادة غاغنهايم لطب الأسنان في مانهاتن للعناية المجانية، حيث كان طلبة طب الأسنان أجانب يرتدون ستر أطباء ومسلحين بأدوات للتثقيب وكماشات ودون بنج، يعملون عند صف من المقاعد التي يستخدمها أطباء الأسنان ويسببون لدى كل منا الصراخ والبكاء فيما ينتظر الآخرون في الصف ويراقبون برعب. كانوا يخلعون الأسنان كالمجانين، يتكلمون بجفاء بلغاتهم الأصلية، بينما يرجّون رؤوسنا هنا وهناك وكأنها رؤوس دمى. ذات مرة خلعوا سنا من أسنان أخي بيلي ثم أرسلوها إلى أمي في غرفة الانتظار. نظرت في فمه المليء بالشاش والدم، واكتشفت أنهم قد خلعوا سنا سليما بالخطأ، فعادت إليهم في الداخل واستشاطت غضبا. في الصيف، كانت تقودنا جميعا إلى المسابح العامة وتلبس لباس السباحة وتقفز في الماء وكأنها فيل البحر، ونتبعها كالفقم، نطرطش ونغرغر بخوف وراء أمي وهي تتقدم متخبطة وتبدو بالكاد قادرة على السباحة، إلى أن يسعل أحدنا ويلهث، فتهرع عبر الماء عندئذ وتمسك الطفل المعتدي، وتجره إلى خارج الماء وتلطمه على ظهره وتضحك. لم نعتبر أنفسنا فقراء أو محرومين أو مغمومين، لأن قواعد العالم الخارجي كانت تبدو لنا كأطفال كأن لامعنى لها. غير أننا أدخلنا العالم الخارجي إلى المنزل معنا عندما كبرنا، وانتشرنا

في العالم كمراهقين وطلبة جامعة، وأخذ ذلك العالم ـ الذي كانت أمي قد بنته بعناية فائقة ـ في الانهيار.

اجتاح عقد الستينيات بيتي كموجة عارمة. كان قرار أختي هيلين بترك المدرسة والهروب وهي في الخامسة عشرة، العلامة الأولى على الكوارث الوشيكة، على الرغم من عودتها إلى المنزل بعد خمس سنوات بشهادة في التمريض وطفلة رضيعة. الآن، بدأ الآخرون يتصرفون تصرفاتهم الخاصة، وأخذ فهمنا للعدل والطموح إلى الحقوق المتساوية، اللذين كان أبي وأمي قد لقناهما لنا، يسفران عن نتيجة عكسية. أصبح أطفال مدرسة يوم الأحد اللطفاء والهادئون، الذين كانوا قد تعلموا كيف يقولون بفخر، «أنا زنجي»، ويروون إنجازات جاكي روبنسون وباول روبسون، يستلهمون الآن مالكولم اكس، وهـ. راب براون، ومارتن لوثر كينغ. ولم تكن أمي ذات لون يناسب الاعتزاز الأسود والقوة السوداء، الأمر الذي كاد يشق بيتنا إلى نصفين.

خالف إخوتي الكبار قواعدها واحدا تلو الآخر، وعادوا إلى المنزل يحملون ثمار ارتباكهم الذي كنا نسميه «ثورتهم» على سبيل المزاح. فقد اختفى أحد إخوتي الكبار وذهب إلى أوروبا، وأقامت إحدى أخواتي علاقة غرامية في الجامعة وعادت إلى المنزل بطفل غير شرعي، وكان هذا حدثا غير عادي في عام ١٩٦٧ . وتزوج أخي رتشي وهو في الثامنة عشرة على الرغم من اعتراضات أمي، وطلق، ثم دخل الجامعة وعاد إلى المنزل للعطلة الصيفية وأوقفه اثنان من الشرطة وهو يتمشى في الشارع مع صديق. كان جمع من الأولاد يمشون أمام رتشي وصديقه على مسافة عشرة أمتار تقريبا قد ألقوا ما يبدو أنه كيس من الهيروين لدى اقتراب سيارة الشرطة. جمع رجلا الشرطة الأولاد معا، وأوقفوهم عند سياج، وسألا من منهم قد ألقى الكيس، الذي تبين فيما بعد أنه يحتوي على كينا* وليس هيروين. أنكر الجميع، ففتشهم رجلا الشرطة

* اسم نبات.

ووجدا تسعين دولارا كانت قرضا من البنك لمصاريف الجامعة في جيب رتشي. عندما سأله الشرطي من أين له هذه الأموال، أجاب رتشي أنها أمواله للجامعة، وأنه نسي أنها معه. ومن يعرف رتشي لايستغرب، ويدرك أنه من طبيعته أن ينسى أنه يحمل معه تسعين دولارا، وكان ذلك مبلغا هائلا في تلك الأيام. كنا نسميه «العالم المجنون» عندما كان صغيرا، وكادت تجاربه العلمية تفجر البيت لأنه كان يتركها تغلي وتفور وينصرف بحثا عن الطعام، وينساها تماما. كان يتذكر أصعب حسابات التفاضل والتكامل، وله مستوى شبه كامل في عزف الموسيقى، ولكنه لم يكن يتذكر أن يلبس بنطلونه. كان يعزف عزفا منفردا على السكسفون مثل جون كولترين لساعات متواصلة وهو يرتدي سترة شتوية وبنطلون رياضة طول المدة. كان من هذا النوع وهو صغير، شارد الذهن، وذكيا للغاية، وأصبح كيميائيا فيما بعد. ولكنه كان في نظر الشرطة مجرد مجرم أسود آخر له قصة، فتم توقيفه وسجنه.

ذرعت أمي البيت جيئة وذهابا حين تلقت الخبر. في اليوم التالي، ذهبت مبكرا إلى محاكمة رتشي وأخذت مقعدا خلف منضدة الدفاع مباشرة. عندما أخرجوه مكبل اليدين ورأته مقيدا ووسخا بعد أن أمضى ليلة كاملة في الحبس، لم تتمكن من تمالك حزنها، وبدأت تتمتم كالمجنونة وتقلب كفيها. عبر شرودها الذهني وكلامها غير المفهوم، سمعت المحامي الذي كانت المحكمة قد عينته يميل إلى رتشي ويقدم له النصيحة القانونية، «اعترف بأنك مذنب». فانتفضت واقفة وصرخت، «انتظر!» واندفعت نحو موظفي المحكمة وصرخت في القاضي بأن هناك شيئا خطأ، وانه لم يسبق أن تورط أي من أولادها في مشكلة مع القانون، وأن ابنها طالب جامعة، وما إلى ذلك. كان القاضي الأبيض قد لاحظ أمي وهي جالسة في قاعة المحكمة التي كان معظم الحاضرين فيها سودا، فأفرج عن رتشي ليكون في رعايتها، وأسقطت التهم فيما بعد.

غير أن تلك التجربة جعلت أمي تشدد علينا نحن الصغار مثلي أكثر فأكثر. وإذا أعدنا النظر إلى ما مضى، نجد أنها كانت عبقرية في

إدارتنا. لقد اعتمدت اعتمادا كبيرا على «نظام الملك والملكة» الذي أقامته في منزلنا قبل ولادتي بكثير، والذي يقوم بموجبه الأخ (أو الأخت) الأكبر بدور الملك أو الملكة، ولا يجوز تحديه (أو تحديها) لأن الآخرين يعتبرون عبيدا. عندما كان الأكبر يترك المنزل لحضور الجامعة، كان الأخ الذي يليه يعتلي العرش. أعطانا نظام الملك والملكة شعورا بالنظام والمرتبة والذات. أعطى الكبار شعورا بأنهم مسؤولون، فيما كانت أمي هي التي تحكم العالم بالفعل. يعود ذلك أيضا إلى تربيتها الارثوذكسية التقليدية التي بموجبها كان شخص واحد هو المسيطر، وهو الذي يدير المنزل بقواعد وأحكام صارمة. على الرغم من الفوضى المنظمة في بيتنا، كنا دائما نتناول وجبات الطعام في وقت محدد، ونعمل وظائف المدرسة في وقت محدد، ونذهب إلى السرير للنوم في وقت محدد. كانت أمي تتعاون مع أي قريب أو صديق له اهتمام بأي من أطفالها، وترسلنا لننزل عند أي قريب يعد بإرشادنا، وفعل الكثيرون منهم ذلك. كانت العائلة السوداء الموسعة ورقة أمي الرابحة، وكانت تلعبها كلما تتطلب الظروف ذلك لأن عائلتها ليست متوفرة لها. عندما كبرت خطر على بالي في مرحلة ما أن لدينا بعض الأقارب الذين لم نرهم أبدا، فسألتها ذات يوم: «لماذا لايوجد لدينا أخوال وخالات؟».

أجابت: «كان لي أخ توفى، أما أختي فلا أعرف أين هي»

«لماذا؟»

«افترقنا بعضنا عن بعض»

«كيف حدث ذلك؟»

«أنا معزولة عن عائلتي»

«معزولة؟»

«معزولة. ميتة»

«من ميتة؟»

«أنا ميتة، ويحتمل أنهم ميتون هم أيضا الآن. ما هو الفرق؟ ما كانوا يريدون أن أتزوج من الجانب الأسود».

«ولكن إذا كنت أنت سوداء أصلا، كيف يمكن أن يغضبوا عليك؟»

لقد أحرجتها، ولكنها تجاهلتني: «لا تسألني أي أسئلة أخرى».

أما زوج أمي، الذي يمكن أن يكون مصدر معلومات عن خلفيتها، فلم يكن متعاونا. «آه، أمك، خذ بالك منها». كان يحبها ويبدو أنه لم تكن لديه مشكلة كونها بيضاء، الشيء الذي استغربته، لأنه من الواضح أنها تختلف عنه كثيرا. ففيما كان رخي البال ومنفتحا على العموم في ما يتعلق بالأمور الدنيوية، كانت هي شكاكة وصارمة ومتحفظة. وكلما خرجت من البيت معنا، دخلت في نوع من الحالة الذهنية التي لا يتعدى اهتمامها فيها الأطفال الخمسة الذين يتبعونها، وقبضتها المشدودة على أموالها القليلة التي كانت دائما تعدها حتى آخر سنت. لم تكن تهتم على الإطلاق بعالم يبدو أنه منزعج للغاية من وجودنا. كانت تتجاهل تماما النظرات الشاخصة والسريعة، والملاحظات والضحكات التي كنا نسمعها ونحن نتمشى، ولكني لم أتمكن من تجاهلها. عندما بلغت العاشرة من عمري، أصبحت لدي مشاعري الخاصة عن نفسي ورجولتي الوشيكة، وصار الخروج مع أمي حدثا مريعا، بعد أن كان امتيازا وشرفا حين كنت في الخامسة. بلغ الأمر معي حد الخجل منها، حيث إني لم أرغب أن يرى العالم أمي البيضاء. عند خروجي مع أصدقائي، كنت أتجنب إبلاغها أين نلعب خوفا من أن تأتي إلى الحديقة لتأخذني. أصبحت كتوما وحذرا وسلبيا وغاضبا وخائفا، وكنت أخشى دائما أن أسوأ شخص في حيّنا سينعتها بـ«بيضاء كريهة»، مما سيضطرني إلى الرد عليه، وبالتالي سيضربني ضربا محترما. بعد ظهر ذات يوم قالت لي، «تعال لنمشي إلى الدكان».

وأجبتها، «بإمكاني أن أذهب وحدي»، وكان هدفي إخفاء أمي البيضاء والذهاب وحدي.

وافقت، ولم تبد منزعجة من استقلاليتي الجديدة. ذهبت بارتياح إلى بقالة في الحي كان صاحبها رجلا أبيض فظا، وكان على وشك الرحيل عندما بدأنا نحن السود ننتقل إلى منطقة سانت البانز، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من البيض في تلك المنطقة. لم يحب الأطفال السود على ما يبدو، وبالتأكيد لم يحبني ولا يهتم بي. ولدى عودتي إلى المنزل وضعت أمي علبة الحليب التي اشتريتها على الطاولة وفتحتها، وامتلأت الغرفة برائحة الحليب الفاسد. فأغلقت العلبة وناولتني إياها: «أعده واستعد نقودي».

«هل هذا ضروري؟»

«أعده». كان ذلك أمرا. كنت طفلا صغيرا في بيتي وليس طفلا كبيرا يحق له الإدلاء بالآراء والتأثير على السيدة. يجب علي إطاعة الأوامر.

أجبرت نفسي على العودة إلى البقالة، وأنا أخشى المواجهة التي عرفت أنها وشيكة. ونظر إلي البقال نظرة غاضبة عندما دخلت، وقلت: «يجب أن أعيد هذا».

أجابني، «ليس هنا. هذا الحليب مفتوح، ولن أقبله».

عدت إلى المنزل، وبعد عشر دقائق، دخلت أمي البقالة وهي تمشي «مشيتها الغاضبة»، المشية بساقين مقوستين التي تعني أن الرعد والبرق وشيكان، وهي تدفع جسمها إلى الأمام وتبرز فكها وتجمع يديها في قبضات مشدودة، وقد احمر أنفها. تبعتها بارتباك وخجل، لأن خطتي للتصرف بمفردي وإخفاء أمي البيضاء قد فشلت تماما، وأدت إلى نتيجة عكسية على أسوأ نحو.

وضعت الحليب على المنضدة بغضب، ونظر التاجر إليها، ثم إلي، ثم إليها مرة أخرى، ثم إلي. وتحولت ملامح الاستغراب على وجهه إلى

غضب وتقزز مما فاجأني تماما. كنت قد توقعت أن الرجل سيرى أمي، ويعتقد أن لهما مصلحة مشتركة ثم يعيد إليها النقود وننصرف. ولكنه قال: «هذا الحليب مباع».

قالت أمي، «شمّه، إنه فاسد».

«لا أشم الحليب. إني أبيع الحليب»

تشاجرا على الفور مشاجرة حادة، وتجمّع حشد من الأطفال السود، يراقبون أمي البيضاء وهي تخاصم هذا الرجل الأبيض. أردت أن أغوص تحت الأرض واختفي. قلت: «لا تقلقي بالك، يا أمي»، وتجاهلتني. عندما يتعلق الأمر بالنقود، التي عادة ما يكون لديها منها القليل فقط، فإنني أدركت أن تدخلي لن يكون وراءه طائل. كانت تشتمه بكل قوتها، «يا غبي.. أعتقد أنك... أبله!» وكانت كلماتها تتمازج وتكاد لا تفهم، فيما راح أطفال الحي يهتفون وينبحون مثل الكلاب وهم يستمتعون بالفرجة.

اتضح بعد فترة قصيرة أن الرجل لن يعيد إليها نقودها، فأمسكت بيدي واتجهت إلى الباب، لكنه عندما أبدى ملاحظة أخرى فاتتني، لأنه همهمها بصوت خفيض لم أسمعه، ولكنها جعلت الحشد يقول: «أوه!» باستغراب. أما أمي فتصلبت، وكانت لاتزال تحمل علبة الحليب في يدها اليمنى، فدارت وألقتها عليه وكأنها كرة في لعبة كرة القدم، ولكنه أحنى رأسه ليتفاداها، فأصابت خزانة السجائر خلفه وبعثرت الحليب والسجائر في جميع الاتجاهات.

لم أستطع أن أفهم هذا الغضب. ولم أستطع أن أفهم لماذا لم تستغن عن الحليب. فكرت، لماذا تثير هذه الضجة؟ وكان حرجي الشخصي يطغى على كل المشاعر الأخرى. وفي طريق عودتنا إلى المنزل وأنا أمسك يد أمي وهي تنفث غضبا، فكرت أنه سيكون أسهل لو كنا من لون واحد، إما أسود أو أبيض. لم أرغب أن أكون أبيض لأن إخوتي كانوا قد لقنوني مفهوم الاعتزاز الأسود، وكنت أفضل لو كانت أمي سوداء. أما الآن، وأنا

رجل ناضج، فإني أشعر بالتميز لكوني أنتمي إلى عالمين. نظرتي إلى العالم ليست نظرة الأسود فحسب، بل نظرة الأسود بشيء من الروح اليهودية. أنا لا أعتبر نفسي يهوديا.

عندما أرى عجوزين يهوديتين صغيرتين تضحكان وتشربان القهوة في أحد مطاعم مانهاتن، فإني ابتسم لأني أسمع ضحكة أمي وراء ضحكاتهما. من ناحية أخرى، فإنني عندما أسمع «القادة» السود وهم يتحدثون عن «اليهود ملاك العبيد» فإنني أشعر بالغضب والاشمئزاز لعلمي بأنهم يثيرون الناس بأكاذيب وتاريخ مشوه، وكأن جميع اليهود السبعة الذين كانوا يملكون عبيدا في الجنوب قبل الحرب الأهلية، أو مهما كان عدد تلك القلة، هم مسؤولون عن مشاكل الأمريكيين الإفريقيين الآن. إن هؤلاء الزعماء ليسوا أحسن من نظرائهم اليهود الذين يلفقون إحصاءات بطرق عجيبة لإظهار الأمريكيين الإفريقيين وكأنهم وحوش ومجرمون وعبء على المجتمع و«حيوانات» (وهي كلمة محبوبة لوصف السود في تلك الأيام). إنني لا أنتمي إلى أي من هذه المجموعات، بل أنتمي إلى عالم الله الواحد والجنس البشري الواحد. ولكني كنت أفضل الجانب الأسود في طفولتي، وكثيرا ما كنت أتمنى أن ترسلني أمي إلى مدارس سوداء كتلك التي يحضرها أصدقائي.

وبدلا من ذلك، اضطررت إلى حضور مدرسة للبيض، مع زملاء بيض في صفي كانوا يعتقدون أني أستطيع الرقص مثل جيمز براون. كانوا يلحون علي باستمرار أن أقوم برقصة جيمز براون من أجلهم، وهي حركات للقدمين اشتهر بها «عرّاب موسيقى الروح» نفسه، الذي كان في ذروة شهرته في الستينيات. حاولت أن أوضح لهم أني لا أعرف الرقص. كنت دائما أحد أسوأ الراقصين الذين خلقهم الله على وجه هذه الأرض. كانت أخواتي يمضين ساعات طويلة في المنزل يجرين رقصات جديدة لأغاني ارتشي بيل، وفرقة «دريلز» ومارثا ريفز، وكينغ كورتس، وكورتس ميفيلد، واريثا فرانكلين، وفرقة «سبينرز». وكن يصرخن،

«تعال وارقص»، وهن يرقصن رقصة البوغي عبر الغرفة. حتى أمي كانت تنضم إليهن وترقص بانسياب، أما أنا، فإنني عندما أشترك معهن أبدو غريبا وغبيا حيث إنهن يقعن على الأرض من الضحك ويقلن، «كف عنه، إنك لا تستطيع الرقص».

لم يصدقني الأولاد البيض في المدرسة، وبعد أسابيع من التشجيع وجدت نفسي واقفا أمام الصف في يوم المواهب، أرتدي حذاء أخي الجيد وأرفع بنطلوني على غرار أحد مغنيي موسيقى الروح لدى السود من فرقة تمبتيشنز، فيما بدأ أحدهم يسمع إحدى اسطوانات جيمز براون. وزلجت كما كنت قد رأيته يزلج، وصرخت «آو شباناا»، وسرهم ذلك. حتى الأستاذ تسلَّى. صدقوا فعلا بأني أعرف الرقص! لقد خدعتهم. صرخوا يطلبون تكرارا، فأرضيتهم وحركت قدمي وزلجت على الأرضية الخشبية وقفزت في الهواء وهبطت بالقرب من السبورة هبوطا انفرجت فيه رجلاي وأنا أصيح «أي ي ي يا ا واا». اهتاجوا هياجا غامرا، ولكن حتى وأنا أجلس وتصفيقهم يرن في أذني، والضحكة على وجهي، سعيدا لأنهم تقبلوني بكوني أصبحت واحدا منهم، عارفا بأني قد أسعدتهم، رأيت التهكم على وجوههم، الابتسامات الحاذقة، لقد كانوا يضحكون على غرابة ما رأوا. شعرت حينها بنفس الألم الذي أصابني وأنا أحدق في ذلك الصبي بالمرآة. تذكرته، وتذكرت مدى حريته، وكرهته أكثر فأكثر.

(١١)
أولاد

إذا كان هناك أحد يكرهه تاته أكثر من الأغيار*، فهم السود. وإذا كان هناك من يكرهه أكثر من السود بوجه عام، فهم الرجال السود على وجه الخصوص. فمن المنطقي أن يكون أول من أغرم به في حياتي هو رجل أسود. لم أفعل ذلك عمدا. لقد كنت فتاة صغيرة متمردة بطريقة هادئة خاصة، ولكني لم أكن متمردة لدرجة الرغبة في المخاطرة بحياتي ولا حياة أي شخص آخر. كانوا يقتلون أي رجل أسود إذا نظر إلى امرأة بيضاء في الجنوب في تلك الأيام. كانوا يشنقونه، ويطردون الفتاة من البلدة. فمن يريد مشاكل كهذه؟ ولكني في سن المراهقة كنت أريد الأشياء نفسها التي تريدها أي مراهقة. أردت الحب، والملابس الجميلة، وموعد مع شاب. لم أحظ بهذه الأمور أبدا. كانت حياتي هي المتجر. لم تتغير حياتي منذ المدرسة الابتدائية. كان التنويع الوحيد الذي أحصل عليه هو عندما ترسلني أمي إلى أقاربها في نيويورك أثناء الصيف، ولكن مسؤولياتي في المتجر ازدادت في الواقع بعد فرار أخي سام. لم يتغير برنامجي اليومي الرتيب أبدا: فكنت أفتح المتجر في الساعة السابعة، أحضر المدرسة حتى الساعة الثالثة، أعود إلى المنزل مباشرة وأعمل حتى الساعة العاشرة، ثم أرتمي على السرير لأنام. كنت أعمل طوال أيام الأسبوع باستثناء يوم السبت اليهودي، وأعود إلى المدرسة يوم الاثنين. لم تكن لدي أي حرية إلا في اختلاس السنتات من درج المتجر، ثم السير إلى وسط البلدة مع دي دي لشراء مجلات المغامرات الغرامية مثل ترو لاف وترو رومانس. كانوا يمزقون غُلُف الأعداد القديمة من هذه المجلات ويبيعونها بعشرة سنتات للحزمة. كنا نقرؤها يوم السبت على ضوء الشموع، لأن إشعال الموقد، أو اللعب، أو تمزيق الأوراق، أو الركوب في سيارة، كانت تعتبر من المحرمات، ولكن القراءة مسموحة.

---

* غير اليهود

لم تكن لدي حياة عائلية جميلة لأستمتع بها. كنا نحضر المعبد معا صباح كل يوم سبت وفي الأعياد اليهودية، ولكن تاته لم يكن يحب أمي. كان ما يعتبره رحلة عائلية هو أن يأخذنا أنا وأختي إلى مزرعة دجاج في بورتسموث بولاية فرجينيا حيث يذبح دجاجات حسب شريعة الكشير ويبيعها إلى زبائن يهود. كان يجلس على صندوق منخفض أو مقعد ويلتقط الدجاجة، ويمسكها من رقبتها ويوجه رأسها إلى الأعلى، ويذبحها بقطع رقبتها، ثم يرميها ويقبض على دجاجة أخرى، فيما تتخبط الدجاجة الأولى وتهتز بضعة اهتزازات قوية وتموت.

لم يطلب أي ولد في المدرسة موعدا معي. كنت أحب الرقص ولدي ساقان طويلتان، وخضعت ذات مرة لاختبار لمسرحية موسيقية راقصة في المدرسة ونجحت فيه، ولكن عددا من البنات أثرن ضجة اعتراضا على الرقص إلى جانب يهودية، فتخليت عن الفكرة. عندما نختار شريكات للعبة التنس في درس الرياضة، كانت البنات يخترن ويخترن إلى أن أبقى واقفة وحدي. لو لم تكن فرانسيس موجودة، فلن تختارني أي واحدة منهن. أود أن أقول إني لم أهتم بزميلاتي في الصف ولابآرائهن في، ولكن عندما أصبحت في سن المراهقة، كنت أريد أن أكون مثلهن - أمريكية بيضاء انجلو سكسونية بروتستانتية - ألبس أزياء جميلة وأرقص، ولكن والديَّ لم يسمحا بذلك. الرقص؟ لا يجوز. ملابس جديدة؟ لا، أبدا. كان تاته هو الذي يحدد الملابس التي نرتديها، وكان يشتري أرخص الأشياء التي يجدها. كان قد تعود على أن نحصل على ملابس مستعملة من مجموعات المصلين، وكان ذلك يناسبه. كان يشتري سيارة جديدة من طراز V8 كل عام، ولكنه لم يفهم لماذا نشتري ملابس جديدة طالما يمكن الحصول على ملابس مستعملة مجانا. ذات مرة كنت أريد ذلك الحذاء الأبيض من طراز مكسن والذي كان موضة شائعة في تلك الأيام، وألححت على تاته أن يشتريه لي حيث طفح معه الكيل ووافق. ذهبنا إلى وسط البلدة

وأراني البائع حذاء أكبر من قياسي بقياسين، ولبسته، وقلت إنه جيد.

ونظر تاته إلي وكأني مجنونة، وقال: «إنه أكبر مما يجب».

وأجبته: «يفترض أن تكون هكذا». فكنت أخشى أن يغير رأيه. أما البائع فكان يريد بيع ذلك الحذاء ليربح أموالا، وقال بسرعة: «نعم، هو جيد، يا حاخام شلسكي، هو جيد». وتذمر تاته من ذلك، ولكنه دفع ثمنه.

كان المكسن كبيرا للغاية حيث أصررت قدميّ فيه فأخذ يصدر صوتا وكأنه غطس في سطل ماء. مشيت به وهو يصدر هذا الصوت في ردهة المدرسة فراح الأولاد يضحكون عليّ فخلعته.

لم يهتم بي أي من الأولاد في المدرسة إطلاقا، وبعد فترة وجدت صديقا خاصا لي، ولم يهتم لأني أرتدي ملابس مستعملة أو أني يهودية، ولم ينتقدني أبدا. هذه هي الصفة الأولى التي أحببتها فيه، وهي في الواقع صفة أحبها في السود طول عمري.. إنهم لم ينتقدوني. لم يسألني أصدقائي السود أبدا كم هو دخلي من الأموال، ولا أي مدرسة يحضرها أولادي، ولا أي سؤال من هذا النوع. إنما كانوا يقولون: «تعالي كما أنت». كان السود دائما مسالمين ويثقون في الغير. لا يهمني ما يعرضونه على التلفزيون، هؤلاء الشباب الأغبياء مع بنادقهم، والقتلة الذين يعرضونهم على الأخبار. هؤلاء ليسوا الأكثرية. معظم السود هم مسالمون ويثقون في الغير. لذلك يتعرضون للغش بسهولة.

كان اسم صديقي بيتر، وكان يسكن في إحدى البيوت في الطريق خلف المتجر. كان شابا طويلا ووسيما، ذا بشرة سمراء وأسنان جميلة وابتسامة جميلة. كان يدخل المتجر ويشتري الكوكا كولا. والبسكوت والعلكة وغيرها من الحاجات الصغيرة. لم ألاحظه في البداية لأني

كنت دائما مشغولة عندما يدخل المتجر. كانت هناك أعمال كثيرة عليّ القيام بها، ليس وراء المنضدة فحسب، بل أيضا في أماكن أخرى. فعلى سبيل المثال كان تجار الجملة يبيعون المرجرين دون لونه الأصفر، فأضطر إلى الذهاب إلى خلف المتجر لإضافة الصبغة الصفراء إليه وتحريكه في برميل صغير، أو إلى الثلاجة لإخراج قطع كبيرة من اللحم والثلج وأقطعها وأجهزها للعرض، وأمور أخرى عديدة. لكنه كان يأتي ويجدني بطريقة ما في المتجر وحدي، فيتباطأ ويتحدث ويمزح معي ويحاول أن يجعلني أبتسم بأي وسيلة. كان لديه حس مرهف للفكاهة ويجعلني أضحك باستمرار، وبدأت أتطلع إلى زياراته. كان يحرص دائما على عدم وجود تاته وأمي، وهذا أمر صعب لأن تاته كان يراقب ابنتيه بدقة. ولكن بيتر كان يجد لحظاته. رآني ذات يوم خارج المتجر أضخ زيت الكاز من الصهريج فجاء وطلب مني أن أتمشى معه ووافقت. كان شابا جريئا لأنه كان يخاطر بحياته من تلك اللحظة فصاعدا. الله يعلم بماذا فكرت. كان الشيء الوحيد الذي قلته له: «إذا رآنا أبي، سنقع في مشاكل». كان تاته بمسدسه المحشو سيطلق عليه النار بالتأكيد، وعلي أيضا على الأرجح، ولكن ذلك لم يهمني. كنت ساذجة وصغيرة، وسرعان ماوقعت في غرامه.

أحببت هذا الولد حتى الموت وأحبني. هكذا اعتقدت على الأقل. ماذا يهمني أنه أسود ؟ كان هو أول رجل باستثناء جدي يعاملني بلطف في حياتي، وخاطر بحياته ليفعل ذلك لأنهم كانوا سيشنقونه في طرفة عين لو أنهم اكتشفوه. ليس عصابة كو كلاكس كلان فحسب، بل سيقتله البيض العاديون في البلدة، والذين يحتمل أن يكون نصفهم أعضاء في الكلان على كل حال، فالنتيجة هي نفسها. تعرف، أن الموت كان دائما موجودا في سافوك، كان دائما موجودا. كان الطقس حارا جدا دائما، والجميع يبدون مهذبين، وكان كل شيء يبدو عاديا، ولكن في حقيقة الأمر، كان الوضع تحت السطح كالقنبلة التي توشك على الانفجار. كنت أشعر هكذا دائما بالنسبة للجنوب، ان هناك

الكثير من البنادق والكحول والأسرار وراء الابتسامات والحفاوة الجنوبية وحسن الأدب. انتهى المطاف بالكثير من تلك الأسرار وهي تعوم في نهر نانسموند عند آخر الطريق من متجرنا. كان الناس ينزلون إلى الرصيف ويلقون الشباك لصيد السرطان والسلاحف، فيصطادون بشرا. أتذكر أنهم وجدوا ابن إحدى زبوناتنا، السيدة ميفيلد، هناك، ولم يتجاوز السابعة عشرة. كان قد قتل وربط إلى عجلة عربة وألقي في الماء حتى غرق أو أكله السرطان. تعرف أن السرطان يأكل أي شيء، ولم ترني آكل سرطان حتى يومنا هذا، ولن آكله أبدا.

على كل حال، كنا أنا وبيتر ننظم لقاءاتنا السرية القصيرة والدورية تنظيما حذرا. كنا نلتقي في الساحة أو في الممر خلف المتجر، أو يكتب إلي رسالة ويوصلها إلي سرا. إذا كان المتجر مغلقا يدخل الرسالة تحت الباب الأمامي. في ليلة يوم الجمعة عندما يبدأ يوم السبت اليهودي، كنت أثار فرحا وأنا أتظاهر بأني أنزل إلى المطبخ في الطابق الأسفل، بينما أتسلل إلى المتجر لألتقط الرسائل الغرامية الحارة التي كان يدخلها تحت الباب. كان يعد بأنه سيحبني مهما حدث، ويكتب الخطة للقائنا السري. عند الموعد المحدد، كان يمر ويأخذني بسيارة فأركب في المقعد الخلفي وأستلقي لكي لا يراني أحد. كان له أصدقاء يقيمون في الريف في مناطق منعزلة، وكنا نقضي الوقت معا هناك.

حياتي كلها تغيرت بعد أن وقعت في الحب. كنت وكأن الشمس بدأت تشرق علي لأول مرة، ولأول مرة في حياتي بدأت ابتسم. لقد أصبحت محبوبة، أصبحت محبوبة، ولم أبال برأي أي كان. لم يقلق بالي أن يكتشفني أحد، ولكني لاحظت أن أصدقاء بيتر يرتعبون مني، وكانوا يبتعدون كلما اقتربت منهم. كانوا يمشون في الاتجاه العكسي إذا رأوني أمشي في الطريق باتجاههم، وإذا دخلوا إلى متجرنا لم

ينظروا إلي. بدأ ذلك يقلقني، ولكني لم أقلق كثيرا. ثم بعد فترة، تأخر حيضي لمدة أسبوع، ثم أسبوعين آخرين، ولم يأت أبدا.

بدأ الأمر كله يتعقد عندئذ. كنت حاملا ولم أستطع إبلاغ أحد. كان البيض سيقتلونه، وأبي سيقتله. ربما كنت قد بلغت الخامسة عشرة من عمري آنذاك. لم يوجد أحد أستطيع إخباره. كنت أستيقظ في منتصف الليل، وأجلس منتصبة في السرير أتصبب عرقا، وأخرج إلى الشرفة الخلفية لإخفاء دموعي عن أختي. فكرت في إخبار فرانسيس، ولكني لم أتجرأ أن أطلب منها كل ذلك. كان ذلك في العام ١٩٣٦، ما فعلته آنذاك كان يعتبر شيئا فظيعا جدا في نظر البيض. كان عناء لا يحق لي إقحام فرانسيس فيه. لم يكن هناك أحد أستطيع إفشاء السر إليه. كنت أجلس هناك على الشرفة في الليل وأبكي وأراقب القمر فيما ينام الجميع. لم أفكر في الانتحار أبدا، ولكني كنت أبكي قليلا، وبعد أن أنتهي من البكاء كنت أتطلع إلى الجزء الأسود من البلدة أبحث عن صديقي. هل تصدق ذلك؟ كنت قد وقعت في مأزق كبير ولا أزال أبحث عن صديقي. ظننت أن لديه جميع الحلول.

كان من الممكن رؤية الشوارع الخلفية وراء متجرنا في ضوء القمر. الشوارع التي يعيش فيها السود. وكنت أبحث عنه من الشرفة. عرفت كيف كان يمشي، وكيف يلبس ويتحرك وكل شيء. كنت أميزه عن بعد من مشيته. كنت أنظر لأرى إذا كان سالما في بيته، لأني كنت أسمع دائما أن عصابة الكلان تأتي ليلا لقتل الناس، وبعد أن وجدوا الشاب من عائلة ميفيلد في النهر عند الرصيف مربوطا إلى عجلة العربة، أصبحت أقلق عليه. كنت أسهر لنصف الليل أتوقع مرور الكلان أمام المتجر في سياراتهم، وما عساي سأفعل في تلك الحالة؟ لم تكن لدي أي فكرة. لم يكن القانون لصالح الأسود في فرجينيا في تلك الأيام، بل كان ضده.

تعرف أنه كان من المفروض أن أكون بيضاء، ومواطنة من الدرجة الأولى أيضا. كان ذلك شيئا مهما في الجنوب: إن الأبيض، حتى ولو كان يهوديا، يعتبر أحسن ممن يسمى الملون لأنه أبيض. على كل حال، لم أشعر بأني من الدرجة الأولى مع أي شخص إلا هو، ولم أكترث على الإطلاق أنه أسود. كان لطيفا وجيدا، كنت أعرف ذلك، وكنت أريد أن أخبر الناس بذلك. أردت أن أصرخ، «اسمعوا جميعكم، لاتهتموا بالأمر». كنت أعتقد فعلا أن الناس سيقبلون بذلك، وانهم سيفهمون أنه شخص جيد وربما يقبلوننا، وبقيت بضعة أيام أعتقد ذلك. قلت له ذات ليلة فيما بعد: «فلنهرب إلى الريف ونتزوج». أجابني، «لايمكن أبدا. إني لا أعلم أين فعلوا ذلك من قبل، أن يتزوج البيض والسود في فرجينيا، سوف يشنقونني بالتأكيد».

أصبحت أخاف خوفا حقيقيا عندئذ، لأنه لم يسبق أن تكلم هكذا أبدا من قبل، ورأيت أنه كان خائفا. قال: «إذا اكتشف البيض أنك حامل مني، سيشنقونني بالتأكيد».

صدمتني الحقيقة بقسوة، إذ أدركت أنه ليست لديه أي حلول، وبدأت أذعر. لقد كنت غبية لأني اعتقدت أنه بإمكاننا أن ننجو من العقاب! كنت أجلس على الشرفة أعنف نفسي مليون مرة على ما فعلته، وأنتظر مجيء الكلان لقتله، وقيام أبي بقتل كل منا، ولكن الأيام مرت ولم يحدث شيء. قلت لنفسي: «من حسن حظنا ألا يعرف أي من البيض عنا». كنت متأكدة أنهم لا يعرفون، وكان بعض السود من أصدقاء بيتر يعرفون، ولكن أحدا من البيض لم يعرف، باستثناء واحد. كان هناك شخص أبيض واحد يعرف.

كنا أنا وبيتر نلتقي في زقاق خلف المتجر، وكنا هناك ذات ليلة نتناقش في ما يجب أن نفعله وأسقطت سواري على الأرض. كان سوارا صغيرا ورخيصا، ولكني كنت قد اشتريته بأموالي الخاصة وأحببته. كان الظلام دامسا ولم نستطع أن نجده دون كبريت أو

ضوء فتركناه. عندما خرجت للبحث عنه في اليوم التالي، لم يكن هناك.

جاءتني أمي في المتجر بعد ذلك بيومين وأنا واقفة وراء المنضدة، وضعت السوار على المنضدة بهدوء تام. وضعته على المنضدة وعادت وهي تعرج إلى كرسيها الصغير بجانب الباب حيث تجلس دائما بمئزرها تفرز الخضراوات وتكدسها، وسألتني: «لماذا لا تذهبين إلى نيويورك هذا الصيف لزيارة جدتك؟»

(١٢)
أبي

خطر ببالي في مرحلة ما من وعيي أن لي أبا. حدث ذلك في الوقت الذي ولد فيه أخي الصغير هنتر تقريبا. أنا أكبر من هنتر بخمس سنوات، وحيث إن أحدا لم يصدم من مجيء طفل جديد على ما يبدو - كان هنتر الطفل الحادي عشر - ولكن للمرة الأولى بدأ رجل كهل وبطيء الحركة يطوف في خيالي. كان يرتدي قبعة بنية وكنزة بلا أكمام وشيالات وبنطلون صوف. كان يحمل هنتر ويرفعه في الهواء ببهجة حيث كانت تسرني رؤيته. كان اسمه هنتر جوردان الأب، وهو الذي رباني وكأني ابنه.

لم أدرك مفهوم «الأب» تماما في صغري، لأن أبي الحقيقي اندرو ماكبرايد قد توفي قبل ولادتي. كنت تحت سيطرة أمي وإخوتي الكبار وصديقات أمي وأقارب أبي وزوج أمي الذين سوف أعترف في سنين لاحقة بدورهم في إرشادي في حياتي. في غبش هذه المجموعة من الأقارب وأصحاب الشأن، كان هناك شخص مهيمن يأتي ثم ينصرف. كان زوج أمي يعمل وقادا في أتون سلطة إسكان مدينة نيويورك، كان عمله هو إصلاح وصيانة الأتن الضخمة لتدفئة مشاريع سكن رد هوك التي نسكن فيها في ذلك الوقت. تعرّف إلى أمي بعد وفاة أبي الحقيقي ببضعة أشهر، عندما كانت أمي تبيع وجبات طعام للكنيسة في الساحة أمام بنايتنا في شارع هيكس رقم ٨١١ عندما جاء واشترى وجبة عشاء تتكون من الأضلاع. عاد في الأسبوع التالي واشترى وجبة مماثلة، ثم مرة أخرى، ومرة أخرى، ومل بالتأكيد من أكل كل هذه الأضلاع. وفي النهاية جاء بعد ظهر أحد الأيام إلى المكان الذي تبيع فيه الوجبات للكنيسة، وسأل أمي: «هل تذهبين إلى السينما؟».

فأجابت: «نعم، ولكن لدي ثمانية أطفال وهم يذهبون إلى السينما أيضا».

وقال: «عندك ما يكفي لفريق بيسبول».

تزوجها وجعل فريق البيسبول فريقه بإضافته لأربعة أطفال آخرين ليجعل الفريق اثني عشر كاملة. لم يكن يميز بين أطفال ماكبرايد وأطفال جوردان، ولم نعتبر أنا وإخوتي أبدا بأننا إخوة غير أشقاء ولانذكر ذلك. أما الأطفال الصغار الذين لا حول لهم ولا قوة، وأنا منهم، فكنا نسميه «بابا»، وأما الأطفال من المستوى الأوسط فتارة «بابا» وتارة «المستر هنتر» ، وأما بالنسبة للكبار الذين يتذكرون أباهم الحقيقي جيدا، فكان دائما «المستر هنتر». كان الكبار يحبون أن يضحكوا على «المستر هنتر» وحركاته البطيئة ولهجته الجنوبية، وكانوا يقولون «هررف! هررف!» عندما كانوا خارج مدى سمعه، غير أنهم كانوا يحبونه ويقدرونه.

جاء إلى شقتنا عندما كنت في السادسة أو السابعة من عمري وحشرنا في سيارته وأخذنا إلى سانت آلبانز في منطقة كوينز. أوقف السيارة أمام بيت كبير ذي أربع غرف نوم ومزين بالجص الوردي، واختفى داخله فيما لعبنا على مساحة العشب الكبيرة أمام البيت، نقلع العشب ونتدحرج بين الأوراق. كان الموسم خريفا وأوراق الأشجار في كل مكان. خرج بعد قليل وجلس على الدرج أمام البيت وراقبنا ونحن نلعب. كنا قد مزقنا العشب إربا، وسحقنا الشجيرات المرتبة بعناية، ودسنا الأزهار، وكسرنا أحد نوافذ البيت بحصاة. بعد تخريب مساحة العشب لمدة ساعة تقريبا، خطر ببال واحد منا أن يسأله، «لمن هذا البيت؟» فضحك، ولم أره أبدا يضحك بهذه الحماسة. كان قد أنفق ما ادخره طوال حياته في شراء البيت.

كان رجلا هادئا خشن الصوت وبحس جيد للفكاهة وثابت في

طباعه. كان يحب النظافة والترتيب، مما يعني أن بيتنا في سانت البانز لا يناسبه. وعلى الرغم من حبه لنا، إلا أنه لم يتمكن من التعايش مع الجنون في بيتنا في كوينز وفضّل الاحتفاظ بشقته القديمة عند رقم ٤٧٨ شارع كارلتون في حي فورت غرين بمنطقة بروكلين. لم يأت إلى المنزل إلا في نهاية الأسبوع. يدخل غرفة الجلوس ومعه أكياس من مواد البقالة والكعك وجيب مليء بالنقود وسيارة واقفة خارج البيت كثيرا ما كان يحشوها بأكبر عدد منّا ويأخذنا إلى بيته لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. كنا نحب الإقامة في بيته في بروكلين. كان قديما ومعتما ومليئا بالأثاث القديم والبسكوت واسطوانات نات كينغ كول.

كان أبوه رجلا أسود عمل مساعدا لسائق قطار مع سكة الحديد، وكانت أمه أمريكية أصلية، وبالتالي له الكثير من ملامح الهنود الحمر في وجهه، جلد أسمر وعينان بنيتان مائلتان ووجنتان عاليتان، ويبدو وكأنه قد عاش في الهواء الطلق وتعرض لتقلبات الطقس، كان وسيما للغاية.كان قد تعلم في مدرسة ذات غرفة واحدة وترعرع في مزرعة في مقاطعة هنريكو بالقرب من رتشموند في ولاية فرجينيا، وكان أفراد عائلة جوردان متساهلين. ولكن خلف مظهرهم الهادئ، فإنهم نسل أسود صلب لن ترغب في مخالفته. رجال أشداء بأياد بنية قوية تقبض على المطارق بشدة، وبأعين تجابه عينيك مباشرة. أياديهم تلك تستطيع أن تصلح أي شيء يدور أو يتحرك أو يضخ الحرارة أو ينقل الماء، أو له صمامات أو شفاطات أو أسلاك.

هرب من فرجينيا حوالي عام ١٩٢٧ ، تحت ضغط اضطهاد البيض وملاحقة جيم كراو له، إذا صح القول. كان ضابط أبيض قد حبسه لأنه اختلس النظر تحت خيمة سيرك متجول دون أن يدفع، وحينما ترك الضابط باب الزنزانة مفتوحا بإهمال عندما ذهب ليتغدى، فقد تسلل أبي من السجن وركب أول قطار ولم يعد إلى فرجينيا أبدا إلى

أن توفى. التقى بأخيه والتر في شيكاغو، حيث تعرض للغش والنشل منذ وصوله إلى تلك المدينة وحتى مغادرته. عمل في مسالخ هناك، ثم انتقل إلى ديترويت حيث أصبح يلمع أحذية مع أخيه عند حلاق بالقرب من مصنع سيارات فورد. كان يلمع أحد حذائي هنري فورد، ووالتر يلمع الآخر، ثم إلى بروكلين في نيويورك في أواخر العشرينيات، حيث كسب الأخوان معيشتهما من بيع المشروبات الكحولية الممنوعة لفترة. كان خارج شقته يوما من الأيام حين انكسر جهاز التقطير الذي كان يصنع فيه الكحول، مما أراق الكثير من الكحول على الأرض وتسرب إلى الدور الأسفل. وضع الشخص المقيم في الطابق الأسفل كأسا تحت السقف وسكر وهام في الشارع، فيما حاول زوج أمي إعادته إلى الداخل. لكن السر كان قد انتشر، وما لبث أن داهمت الشرطة شقته، فقفز من نافذته الخلفية وبيده دورقان يحتوي كل منهما على خمسة جالونات من الكحول، ليقع في قبضة رجال الشرطة الاتحادية الذين كانوا في انتظاره. حكم عليه بالسجن لذلك، ولم يخبرنا هو ولا أمي عن ذلك أبدا. ومع ذلك فقد كنت أتساءل دائما كيف يمكن لشخص يبدو بهذه الدرجة من السذاجة أن يتقن لعبة الداما، التي لم أستطع أبدا أن أغلبه فيها.

كانوا أربعة إخوة، هو وهنري ووالتر وغارلاند، وكانوا يمثلون الرجال السود الوسام والدماث والرشقاء ذوي العادات القديمة الذين كانوا يكدون ويشربون الكثير ويرتدون ملابس أنيقة ويحبون النساء الجميلات والأموال الجديدة. كان والتر هو شقيق بابا المفضل، فهو الأكثر مرحا وتآلفا من بين إخوته. كثيرا ما كان يأخذنا إلى بيت والتر في فورت غرين بالقرب من بيته حيث كنا نلعب أنا وإخوتي مع بنت عمنا مومي الصغيرة فيما يحتفل العم والتر وأبي وأخواهما الآخران، ويشربون ويستمعون إلى اسطوانات نات كينغ كول وجين كروبا وتشارلي باركر. لم تشرب أمي أبدا في هذه المناسبات، ولم ترغب أن نتعامل كثيرا مع ظاهرة الحفلات

في أسرة أبي. لم تشرب أمي ولم تدخن أبدا. في الواقع، كان المشروب على رأس قائمة المحرمات لديها، وإذا شرب زوجها كثيرا كانت تصرخ فيه في طريق العودة إلى المنزل. كان يسوق بسرعة عشرين ميلا في الساعة على طول الطريق إلى كوينز من بروكلين، يوجه سيارته الكبيرة بحذر عبر المرور حتى يجد إحدى حافلات المدينة فيضع نفسه وراءها ويتبعها على طول الطريق إلى المنزل، ويؤكد، «لا يمكن أن يخالفوك بسبب السرعة إذا تبعت واحدة منها». كان السائقون الغاضبون في سيارة وراء سيارة يمرون بنا بسرعة، ويصرخون، «ابتعد عن الطريق» وكان يتجاهلهم. كنا نجلس في المقعد الخلفي نحني رؤوسنا ونضحك، أملا ألا يرانا أي من أصدقائنا.

كان يأخذ مجموعة منا كل صيف إلى رتشموند في الجنوب حيث بيت بنت عمه كليمي. كنا نأكل البطيخ من ساحة كليمي ونركب فرسها وننظر إلى أقاربنا الآخرين في الجنوب وهم يقومون بحركات غريبة مثل إخراج أسنانهم. كانت إحدى بنات أعمامنا تجلس على أريكة وتشرب كأس جعة وتخرج أسنانها وتجعلها تصدر صوتا، مما يدفعنا إلى الهروب من الغرفة. كان عمي هنري شخصية ظريفة، وهو ميكانيكي ومحارب قديم من الحرب العالمية الثانية قد قلد أوسمة، له سن ذهب تتألق وتلمع كلما ابتسم، وهو كثير الابتسام. كانت معدته قد تضررت من طعنة أثناء مشاجرة بالسكاكين، غير أني لم أستطع أن أتصوره غاضبا، وكنا نحبه. عندما يضحك كان صوته شبيها بسيارة أثناء محاولة تشغيلها، «هيرررا هيرررا» وكنا نضحك على ضحكته، مما يسره كثيرا ويتسبب في جولة أخرى من ضحكاته «هيرررا هيرررا»، الأمر الذي يحفزنا على مزيد من الضحكات الصارخة.

كنا نسافر إلى الجنوب في سيارتين لكثرة عددنا، يركب بعضنا

مع أبي وأمي في سيارة أبي، والبعض الآخر مع والتر وهنري في سيارة ثانية. ذات ليلة، أثناء رحلة عودتنا إلى نيويورك من رتشموند، سكر عمي هنري وكان يقود سيارته من طراز أولدزموبيل بسرعة مائة ميل في الساعة، وكنا أنا وأختي جودي وعمي والتر معه. وهدر، «إن هذه السيارة محطة لتوليد الطاقة»، وداس دواسة البنزين وانطلق مسرعا على الطريق رقم ٩٥ بين الولايات، بينما راقبت أنوار سيارة أبي الأمامية عبر الزجاج الخلفي تضعف أكثر فأكثر ثم تختفي تماما. وبينما راحت السيارة تتأرجح على جانبي الطريق، فقد صرخ العم والتر عليه، «خفف سرعتك، يا هنري، اللعنة!»، لكن العم هنري تجاهله وظل يضحك لبضع دقائق مروعة إضافية، وأخيرا أوقف السيارة عند موقف للاستراحة. بعد دقائق، وصلت سيارة أبي المحملة بأمي وباقي الأولاد وهي تصرصر، وقفز أبي من سيارته بسرعة حتى طارت قبعته من رأسه، وصرخ: «عليك اللعنة، يا هنري!» واضطر والتر إلى كبح جماح أبي، وتراجع هنري واعتذر مع أنه أكثر الإخوة جرأة. كان أبي أكثر الإخوة احتراما ونادرا ما يغضب، وكان له أسلوب مسالم وقوي لا يثير الغضب ولا يتسبب في المشاجرات. عدنا إلى نيويورك محشورين في سيارة أبي، فيما نام هنري بهدوء في المقعد الخلفي من سيارته التي ساقها والتر. واقترح والتر أن يأخذ اثنين منا معه، ولكن أبي رفض، بقوله: «لقد طفح بي الكيل منكم جميعا». فهز والتر كتفيه.

كنت أعتبر زوج أمي مختلفا. ولم يتغير رأيي به لكونه يحب أمي وهي تحبه. إنه لا يشبه آباء أصدقائي على الإطلاق، فهم أصغر سنا، ويسوقون سيارات جديدة، ويتابعون فريق نيويورك متس للبيسبول، ويتحدثون عن الحقوق المدنية، ويتسابقون معنا. لم تكن لديه أي فكرة عن معنى الستينيات، ولم يبد عليه الاهتمام بها. كانت اهتماماته الوحيدة هي علاماتي والكنيسة. حضر مراسيم إقرار عضويتي في الكنيسة وحده لأن أمي لم تتمكن من الحضور، وارتدى ملابس أنيقة

للغاية وقميصا مزررا حتى الرقبة وقبعته المغضنة على النحو المطلوب، وجلس وحده في مؤخرة الكنيسة، دون الانتباه إلى الآباء الآخرين الأصغر سنا والذين يرتدون بنطلونات واسعة وأزياء الستينيات. سلم على معلمتي في مدرسة يوم الأحد باحترام وهو يحمل قبعته بيده، وابتسمت له متأثرة بوسامته وسلوكه الهادئ، ولكنه بدا غير مهتم عندما حاولت فتح حديث معه، وأخذ يدي وتراجع وكأنه يقول بحركاته: «لا، شكرا». حضر الاحتفال بتخرج أخي دينس من الجامعة وهو يرتدي ملابسه ذات الطراز القديم، وتمشى في حرم جامعة لينكولن للسود في ولاية بنسليفانيا، يبتسم ويعتز اعتزازا عظيما، تتبعه عائلته وزوجته البيضاء، فيما حدق الطلبة السود وآباؤهم. كنت أتطلع فيه وأتساءل، «ما هي مشكلته؟ أفلا يدرك أنه يبدو غبيا؟» ولكن ذلك لم يهمه إطلاقا على ما يبدو. أما العرِق فلم يكن يتحدث عنه أبدا، وكان بالنسبة له تفصيلا يجب تخطيه كتشقق في الرصيف. وكان شخصا لا يقلق أبدا على ما يبدو، وكان يقول: «سيكون كل شيء على ما يرام» وكان ذلك شعاره.

تلقى رسالة في العام ١٩٦٩ من مدينة نيويورك تخطره بضرورة إخلاء بيته في بروكلين بسبب خطة لإقامة بناية سكنية متعددة الطبقات لذوي الدخل المحدود هناك. صعقه ذلك، لأنه كان قد رمم هذا البيت القديم من الحجر الرملي الأسمر وجدده بعد أن كان هيكلا أجوف، وكان ملجأه ومتعته وهوايته. أعطوه ١٢٠٠٠ دولار، أخذها ورحل. وبعد ذلك بعشرين عام عدت إلى فورت غرين ـ التي اشتهرت الآن بسبب أفلام سبايك لي وأصبح تحويلها إلى حي للطبقة الراقية يجبر السود الفقراء على الخروج منها حيث تباع بيوت الحجر الرملي الأسمر بحوالي ٣٥٠٠٠٠ دولار ـ وكنت أمشي أمام رقم ٤٧٨ شارع كارلتون وانظر إلى قطعة الأرض الفارغة هناك. لاشيء، بل خسارة كاملة.

عندما هدموا بيته كانوا وكأنهم اقتلعوا نصف شرايينه. جاء إلى كوينز ليسكن معنا وحوّل قسما من السرداب إلى مقر له من الطراز القديم، فحشر أثاثه العتيق وجهاز تشغيل الاسطوانات والذي يعبأ يدويا، وثلاجة صغيرة يخزن فيها كوارع الخنزير وعلب جعة راينغولد، ولكن قلبه ظل في بروكلين. كان قد تقاعد بحلول ذلك الوقت ـ حيث كان في الخامسة والسبعين من عمره ـ ولكنه كان يقوم بأعمال متفرقة ويعمل على أنظمة التدفئة مع أخيه والتر. في إحدى الليالي بعد انتقاله إلى منزلنا بحوالي ثلاث سنوات، أخذ يترنح حول المطبخ ويسب ويشتكي من وجع في رأسه، وقبل أن أدرك ما حدث جاءت سيارة إسعاف وأدخلوه فيها، فسألت أمي، «ماذا جرى له؟» ولكنها لم تقل شيئا، وكانت أطراف عينيها حمراء مما يدل على قلق عميق، فيما ركبت في سيارة الإسعاف وهي تتشبث بكنزته في قبضتها.

كان قد أصيب بسكتة. كنت في الرابعة عشرة ولم أعرف ما هي السكتة، واعتقدت أنها شيئا يصاب به الإنسان من الشمس. أما الأسبوعان اللذان قضاهما في المستشفى فكان معناهما بالنسبة لي أني أستطيع أن أسهر مع أصدقائي كما أريد وحتى ساعة متأخرة، وتجنبت زيارته إلى أن أجبرتني أمي على ذلك. ذهبت مع أختي كاثي، وصدمنا صدمة قاسية حين دخلنا غرفته في المستشفى، لأنه كان مستلقيا يرتدي ملابس المستشفى البيضاء، وكان وجهه أعوج إلى حد ما ولم يستطع أن يتكلم ولا أن يحرك ذراعه اليمنى أو جانبه الأيمن. كانت يده شبه مرتخية، تلك اليد السمراء القوية ذات العروق البارزة التي سبق وأن رأيتها تمسك المفاتيح الإنجليزية وأدوات وتركيبات للمواسير مئات المرات، الآن يغطيها الشاش ومتصلة بحقنة الأوردة. جلست أمي بجانبه صامتة ووجهها بلون الرماد. أما كاثي، التي كانت دائما ابنته المفضلة، فقد دخلت الغرفة، ولما رأته، تراجعت عنه وهي فزعة، لم تستطع أن تنظر إليه. جلست على كرسي قرب النافذة تتطلع إلى الخارج وتبكي بصوت خافت. رفع يده ليواسيها

وأصدر صوت غرغرة بغيضا في محاولة للفت انتباهها. وجاءت إليه في النهاية ووضعت رأسها على صدره وأطلقت العنان لبكائها. خرجت من الغرفة وأنا أمسح دموعي وأترنح باتجاه المصعد. كنت أغطي عيني لكي لا يراهما أحد، بينما تراجعت الممرضات والتمرجية عن طريقي.

عاد إلى المنزل من المستشفى بعد حوالي أسبوع وبدا أنه يتعافى. عادت قدرته على الكلام ولو أنه كان يدغم الكلمات. كان يجلس في مقره في السرداب يسترد صحته، فيما نتحرك بهدوء في البيت وتمشي أمي بصمت وتوتر، ولاتزال أطراف عينيها حمراء. طلب مني يوما من الأيام أن أنزل إليه وأساعده في اللبس، وقال: «أريد أن أخرج في مشوار بالسيارة». كنت أكبر طفل يسكن في المنزل في ذلك الوقت، حيث كان إخوتي غائبين في المدرسة. لبس كنزته وبنطلونه الصوف وقبعته ومعطفه الأزرق القصير، وعلى الرغم من مرضه ونحوله، كان لايزال يبدو حاضر الذهن. صعد الدرج ببطء وخرج، وكان الطقس في شهر مايو منعشا وكاد يكون باردا في الخارج. دخلنا المرآب وركبنا في سيارته البونتياك الذهبية اللون، وقال: «أريد أن أذهب إلى مسقط رأسي مرة أخرى». كان يتكلم عن رتشموند في ولاية فرجينيا حيث ترعرع، ولكنه كان ضعيفا إلى حد لا يسمح له بقيادة سيارة، فجلس هناك خلف عجلة القيادة يحدق في جدار المرآب وبدأ يتحدث.

قال إن لديه القليل من الأموال التي قد وفرها لأمي ، وقطعة أرض في فرجينيا، ولكنها غير كافية. وأضاف أن علي الاعتناء بأمي وإخوتي وأخواتي الصغار لأني أكبر واحد يسكن في المنزل، ولأن «أنتم جميعكم متميزون وخصوصيون جدا بالنسبة لي». كانت المرة الوحيدة التي سمعته يشير فيها إلى الأصل العرقي، مهما كانت الإشارة غامضة، ولكن ذلك لم يهمني، لأني أدركت في ذلك الوقت بالتحديد

أنه على وشك الموت، واضطررت إلى الطرف بعيني للجم دموعي. أردت أن أقول له إني أحبه وأتمنى له الشفاء من صميم قلبي، ولكني لم أتمكن من صياغة الكلمات في فمي. لم نكن قد تحادثنا أبدا بهذه الطريقة، فقد كنا نتكلم ونمزح، ولكن أهم اهتماماته كان تعليمي و«تربيتي في الكنيسة» كما أسماها. لم يكن رجلا للحوار، واعتبر ذلك وظيفة أمي.

تعرض لانتكاسة بعد ذلك بيومين، وجاءت سيارة إسعاف لتأخذه. رن الهاتف حوالي الساعة الرابعة صباحا. كنا أنا وكاثي مستلقيين على السرير نستمع، وسمعت أخي الكبير رتشي يقول لأمي عبر ما يبدو وكأنه ضباب: «كل شيء على ما يرام، يا أمي، كل شيء على ما يرام».

وصرخت أمي: «إنه ليس على ما يرام، انه ليس على ما يرام!» وناحت وناحت، وطاف صوت نواحها حول البيت وكأنه روح، واستقر على كل الممرات والأسرة التي كنا مستقلين عليها نبكي بصمت.

(١٣)
نيـــويورك

عرفت أمي أني حامل وأنني في ورطة. بالنظر إلى الماض
أجدها قد عرفت، فشكل ما كانت تفعله هو الجلوس بجانب ب
طول النهار ترتب الخضراوات وترعى ابنتيها. كنا أنا ودي د
شابتين وعرفت أن هناك رجالا في كل مكان. لم تقل كلمة
أبدا. لم تكن أمي امرأة لجوجة، بل كانت هادئة وحذرة، ع
شلل الأطفال كما تعلم، وكانت تغطي يدها اليسرى العوجا
مطوية أحيانا لإخفائها عندما تتمشى. كادت تكون عمياء
واحدة وكانت تعاني من نوبات إغماء بين الفينة والفينة، و
تكن ضعيفة العقل. لاحظت أني غير سعيدة هناك، فبدأت
إلى نيويورك كل صيف تقريبا بواسطة الحافلة لأنزل عند
لم يكلف الذهاب إلى هناك سوى تسعة عشر دولارا.

كان لأمي خمس أخوات وأخ واحد في نيويورك، إضافة
وكان جميعهم يعيشون برفاهية. كانت خالتي لورا وزو
شيفمان يملكان مباني شقق في منطقتي برونكس وهارل
هال، كان يملك متجر كشير للمواد الغذائية في بروكلين
بيرناديت تزوجت من فراء، وأقامت خالتي ماري مصنعا للجا
كانت عائلة مضحكة. يحتفظون بمشاعرهم كأسرار تكظم ف
حتى تنتفخ وتتفجر كبالون مليء بالماء عند الضغط علـ
اثنتان من خالاتي، هما برناديت وروندا، قد رفضتا التكلم مـ
البعض منذ خمسة عشر عاما، ولا أعرف لماذا. كان ذلك س
لايجب السؤال عنه، فلم أسأل.

لم تكن خالاتي يرغبن في الاهتمام بي كثيرا لأني كنت اب
المشلولة المسكينة. كنت القريبة الفقيرة من الجنوب. كن

ه على وشك الموت، واضطررت إلى الطرف بعيني للجم دموعي.
يدت أن أقول له إني أحبه وأتمنى له الشفاء من صميم قلبي، ولكني
ٍ أتمكن من صياغة الكلمات في فمي. لم نكن قد تحادثنا أبدا بهذه
طريقة، فقد كنا نتكلم ونمزح، ولكن أهم اهتماماته كان تعليمي
تربيتي في الكنيسة» كما أسماها. لم يكن رجلا للحوار، واعتبر
لك وظيفة أمي.

تعرض لانتكاسة بعد ذلك بيومين، وجاءت سيارة إسعاف
أخذه. رن الهاتف حوالي الساعة الرابعة صباحا. كنا أنا وكاثي
ستلقيين على السرير نستمع، وسمعت أخي الكبير رتشي يقول
مي عبر ما يبدو وكأنه ضباب: «كل شيء على ما يرام، يا أمي،
ِ شيء على ما يرام».

وصرخت أمي: «إنه ليس على ما يرام، انه ليس على ما يرام!»
احت وناحت، وطاف صوت نواحها حول البيت وكأنه روح، واستقر
ى كل الممرات والأسرة التي كنا مستقلين عليها نبكي بصمت.

(١٣)
نيـــــويورك

عرفت أمي أني حامل وأنني في ورطة. بالنظر إلى الماضي فإني أجدها قد عرفت، فشكل ما كانت تفعله هو الجلوس بجانب باب المتجر طول النهار ترتب الخضراوات وترعى ابنتيها. كنا أنا ودي دي فتاتين شابتين وعرفت أن هناك رجالا في كل مكان. لم تقل كلمة عن ذلك أبدا. لم تكن أمي امرأة لجوجة، بل كانت هادئة وحذرة، عانت من شلل الأطفال كما تعلم، وكانت تغطي يدها اليسرى العوجاء بمنشفة مطوية أحيانا لإخفائها عندما تتمشى. كادت تكون عمياء في عين واحدة وكانت تعاني من نوبات إغماء بين الفينة والفينة، ولكنها لم تكن ضعيفة العقل. لاحظت أني غير سعيدة هناك، فبدأت ترسلني إلى نيويورك كل صيف تقريبا بواسطة الحافلة لأنزل عند عائلتها. لم يكلف الذهاب إلى هناك سوى تسعة عشر دولارا.

كان لأمي خمس أخوات وأخ واحد في نيويورك، إضافة إلى أمها، وكان جميعهم يعيشون برفاهية. كانت خالتي لورا وزوجها بول شيفمان يملكان مباني شقق في منطقتي برونكس وهارلم. خالي هال، كان يملك متجر كشير للمواد الغذائية في بروكلين. خالتي بيرناديت تزوجت من فراء، وأقامت خالتي ماري مصنعا للجلود، لكنها كانت عائلة مضحكة. يحتفظون بمشاعرهم كأسرار تكظم في داخلهم حتى تنتفخ وتتفجر كبالون مليء بالماء عند الضغط عليه. كانت اثنتان من خالاتي، هما برناديت ورونـدا، قد رفضتا التكلم مع بعضهما البعض منذ خمسة عشر عاما، ولا أعرف لماذا. كان ذلك سرا كبيرا لايجب السؤال عنه، فلم أسأل.

لم تكن خالاتي يرغبن في الاهتمام بي كثيرا لأني كنت ابنة اختهن المشلولة المسكينة. كنت القريبة الفقيرة من الجنوب. كن يلقبننا

بـ«الأغرار» باللغة الييدية، لأننا كنا آخر من وصل إلى أمريكا ولم نتأمرك بعد، ولكني كنت أحب زيارتهم رغم ذلك لأن نيويورك كانت مليئة بمشاهد عجيبة بالنسبة لي. علاوة على ذلك، كان الجميع يبدو مشغولا بحيث لا يهمه أصلك العرقي ولا دينك، وكنت معجبة بذلك.

لم أكن أبدا قد رأيت مثل هذا العدد الهائل من الناس المسرعين. كنت أتساءل: «إلى أين يذهب هؤلاء، ليسرعوا بهذه الطريقة؟»، ولكني أردت أن استعجل مثلهم، وانضممت إلى برنامجهم بأسرع ما يمكن. أحيانا كنت أخرج وأمشي معهم، لا لشيء إلا لأستعجل مثلهم. لم أقصد أي مكان معين، بل أمضي بجنون وأسرع مع الآخرين!.

كنت أنزل عند جدتي أو خالتي ماري أو خالتي لورا في زياراتي. كانت خالتي لورا أكبر وأغنى أخوات أمي، وهي امرأة مدققة ترتدي ملابس رائعة مثل كفوف بيضاء وفساتين بألوان جميلة. كانت تعيش في شقة ضخمة في شارع وست اند في مانهاتن، بأرضيات من خشب صلب لامع، وأثاث كابلي جميل، وخادمة ألمانية تسكن في الشقة لتطبخ وتعتني بالمنزل. غير أنه لا يوجد من يستطيع تنظيف بيت خالتي لورا أكثر من خالتي لورا نفسها. لم تكره أشغال البيت، وكانت تجثو على ركبتيها وتغسل أرضية مطبخها حتى تلمع. كانت الخادمة تقدم الوجبات كأطباق متتالية للجالسين، وكان يجب الاستئذان للقيام من المائدة. كانت عائلتها تقضي الصيف على شاطئ روكاوي أو أجمير، حيث كان لها بيت صغير لا يبعد كثيرا عن الماء. كان يتعين على كل ذوي الشأن أن يملكوا بيتا صغيرا بالقرب من الشاطئ.

أما خالتي ماري فكانت تسكن في غراند كونكورس في منطقة برونكس، وتدير مصنعا يصنع حواشي الجلد لمعاطف وستر من الفرو، وفراء لتدفئة اليدين، وقبعات وغيرها من الملابس (شركة هركوليس للتحفيفات). عملت في مصنعها في تشغيل آلة تقص الأحزمة، إضافة إلى أعمال متفرقة أخرى وكل ما أمرتني بالقيام به. كانت

تعاملني معاملة سيئة للغاية، «يا راحيل، افعلي هذا، واستعجلي، ويا راحيل، افعلي ذلك»، ولكنها كانت امرأة بارعة ولم يكن من المعتاد في الثلاثينيات أن تقوم امرأة بإدارة شركة، وكانت قد أقامتها من أفكارها الخاصة وبمساعدة أصدقائها الذين كانوا خبراء في تجارة الفرو.

كانت لخالتي ماري ابنتان، لويس وإينيد، وهما من عمري تقريبا، ولكنهما لم تجبرا على العمل في معملها مثلي. كانتا تبقيان في المنزل مع الخادمة السوداء التي كانت تتأكد أن لديهما الكثير من حلويات الشكولاتة ويانكي دودل، ولن أنسى ذلك أبدا. كان يانكي دودل كعكا مغطى بالشكولاتة في داخلها قشطة، وكنت أحبها ولكنه لم يسمح لي بتناولها. كانت الخادمة تلبس لويس وإينيد فساتين قطن بيضاء جميلة أيام الأحد، وكانتا تقفان أمام المرآة وتحملقان بعضهما في بعض وكأنهما عارضتا أزياء. كانت إحداهما تقول للأخرى «مظهرك جميل للغاية، يا عزيزتي».

«شكرا، يا عزيزتي»

«هل أنت جاهزة للذهاب، يا عزيزتي؟»

«نعم، طبعا، أنا جاهزة، يا أختي»

كانتا تذهبان إلى السينما بالقرب من زاوية الطريق، وتسرف الخادمة في الاهتمام بهما أثناء مشيهما. كنت أقف هناك، ولكنه لم يخطر على بالهما دعوتي للحضور معهما. لو أردت مرافقتهما لتحتم علي دفع ثمن تذكرتي، فبقيت في المنزل. تعرف، أن أفراد عائلة أمي لم يتكلموا كثيرا، كانوا يعتنون بي دائما اعتناء مبدئيا، ولكنهم لم يتكلموا معي كثيرا أبدا. لم أشعر بأنهم يحبونني. لم يحبني أحد منهم فعلا سوى جدتي بوبه. بوبه كانت تحبني. كانت قد انتقلت من مانهاتن إلى شقة في رقم ١٠٢٠ شارع بريزيدنت بعد وفاة زايده، وهي

قريبة من بروسبكت بارك في بناية أعتقد بأن زوج خالتي ديف كان يملكها. كانت بوبه امرأة ودودة ومسلية، لم تتكلم اللغة الإنجليزية، ولكنها تتدفق حيوية ونشاطا. كانت ثقيلة وقصيرة، وبعد قضاء فترة هنا، تخلت عن الشعر المستعار الذي كانت تلبسه في أوروبا، وأصبحت تمشط شعرها الأبيض اللامع الطويل وتعقده على شكل كعكة في أعلى رأسها. كانت بالغة النظافة حيث تكوي مرارا وتكرارا، ويجب تنظيف وكي كل شيء تلبسه. كانت فساتين القطن التي تلبسها في المنزل مغسولة ومكوية من جديد، وحتى مفارش المائدة، التي كانت تستبدلها ثلاث مرات كل يوم - حيث يجب استبدال مفارش المائدة لكل وجبة لمن يأكل طعام الكشير - كانت مكوية وناصعة البياض. تعرف، أنا لم أعرف الكي، ولم أعرف كيف أكوي قميصا إلا بعد زواجي. كنت أعرف كيف أوازن دفاتر الحسابات في المتجر، وأسوق عربة مليئة بالبضائع، وأنشر الخشب، وأضخ زيت الكاز، وأقطع الثلج بفأس خاص للثلج، ولكني لم أعرف الكي ولا تدبير شؤون البيت ولا طهي قدرة من المجروش لأنقذ بها حياتي، ومازلت لا أعرف. نعم، لقد أصيب أبوك بصدمة بعد أن تزوجني.

كانت بوبه تعاني من مرض السكري، واضطرت إلى تناول الإنسولين كل يوم، وعادة كانت خالتي بتسي هي التي تحقنها. كانت تتبع حمية محدودة بسبب السكري، ولذلك كنا نحتفظ بالكثير من الجريبفروت والبرتقال في البيت. كانت تتناول البرتقال في حال إصابتها بصدمة سكرية، وطلب مني أن أعطيها قطعة من البرتقال إذا حدث ذلك. كنت أقلق من ذلك باستمرار، وكثيرا ماكنت أتسلل إلى غرفتها عندما تغفو لفترة قصيرة وأراقب تنفسها، وإذا رأيتها ترتعش، أيقظتها، «يابوبه، يا بوبه!»

«ماذا؟ ماذا؟.»

«هل أنت نائمة؟» ولم أعرف ماذا أقول بعد ذلك.

«نعم، أنا نائمة، ولكني أستطيع أن أتكلم أثناء نومي، ولا توجد أي مشكلة في ذلك، فلنتكلم. ماذا بك، يا راحيل؟» كانت دائما لطيفة. كانت بوبه هي التي أخذتني إلى أول ركوب لي بالحافلة الكهربائية التي كانت تسير على طول شارع بيرغن في بروكلين في تلك الأيام. كانت تكلفة الرحلة فيها خمسة سنتات ومقاعدها من خشب. بإمكان من يكون في الخلف أن يركب وكأنه في الهواء الطلق. كنت أخرج رأسي من جانبها لتهب الريح في وجهي، هووش! وكنت أحب أي شيء يتحرك، السرعة، القطارات، الحافلات الكهربائية، والمزالق. كانت بوبه تحب الجلوس على المقاعد المصفوفة على الجانب الشرقي من الحديقة بالقرب من بيتها، وتحيك أغطية للأسرة، وكنزات، وأغطية لعلاّقات الملابس، وتتكلم مع صديقاتها اليهوديات اللواتي كن جميعا عجائز مهاجرات جئن إلى هنا مع أولادهن وأعجبتهن أمريكا. كثيرا ما كانت بوبه تعقد جلسات وتتحدث باللغة اليدية مع صديقاتها، فيما يمر الناس في طريقهم إلى العمل. كانت تقول وتطقطق إبرتها وهي تتكلم، «إنِ هؤلاء الشباب في أمريكا يبالغون في السرعة»، ثم تشير إليّ «حفيدتي راحيل لا تستطيع البقاء في المنزل، وتريد أن تركب الحافلة الكهربائية طول النهار». كانت العجائز يهززن رؤوسهن ويبتسمن لي ويقلن، «نعم، نعم، ولكنه يجب عليك أن تبقي في المنزل وتكوني بنتا لطيفة، يا راحيل». لقد كن عجائز مضحكات.

كانت خالتي بتسي، وهي أصغر أخوات أمي، تعيش مع بوبه خلال تلك السنوات، وتعمل في حفظ دفاتر الحسابات في متجر للملابس الداخلية في الجانب الشرقي من مانهاتن. كانت جميلة، شأنها في ذلك شأن كل أخوات أمي. كان لها شعر أسود طويل وعينان سوداوان، وترتدي ملابس أنيقة وتعتني بنفسها اعتناء جيدا للغاية. كانت لها صديقات كثيرات يزرن الشقة ويتحدثن معي على نحو يجعلني أشعر بأني راشدة. يتكلمن دائما عن التسوق في محل كلاين في الشارع الرابع عشر بمانهاتن لشراء فساتين بأسعار مغرية. كانت خالتي بتسي

شابة منسجمة إلى حد ما مع التيارات العصرية، وعندما جئت حاملا إلى نيويورك في صيف عام ١٩٣٦، أدركت أن شيئا ما ليس على ما يرام بالنسبة لي. وعلى الرغم من أن الحمل لم يظهر بعد، إلا أنها أدركت أن شيئا قد حدث بسبب قلقي الشديد. ظلت تسألني «مابك، يا راحيل، مابك؟» وفي النهاية لم أتمالك نفسي وأخبرتها. لم تسألني أي سؤال آخر، بل تصرفت بالطريقة العملية التي كانت عائلة أمي تتبعها لمعالجة الأمور. أجرت بعض الاتصالات الهاتفية، ووجدت طبيبا يهوديا في مانهاتن، وأخذتني إلى مكتبه حيث أجريت لي عملية إجهاض. كانت مريعة ومؤلمة، لأن الطبيب لم يستخدم أي مخدر. تألمت بعدها لدرجة أني لم أستطع المشي، فجلسنا أنا وخالتي بتسي على الدرج أمام مكتب الطبيب وبكيت، واعتذرت لها من خلال دموعي لأني كنت أشعر بالعار. قلت، «أنا آسفة، لم أريد إزعاجك».

وأجابت خالتي بتسي: «لابأس، ولكن لا تسمحي لهذا أن يحدث مرة أخرى». وانتهى الأمر.

شعرت دائما بالامتنان تجاه خالتي بتسي لذلك. وعلى الرغم من أنها نبذتني في سنين لاحقة، إلا أنني لم أشعر أبدا بمرارة تجاهها. كانت لها حياتها الخاصة وآلامها الخاصة التي كان عليها التعامل معها، وعلى أي حال فلم أكن ابنتها. كانت أخوات أمي يهتممن بالأموال أكثر من أي شيء آخر، وكن يخفين أي آلام تصادفهن في الطريق. كن يبذلن قصارى جهدهن من أجل التأمرك، ولا يعرفن ماذا يجب الاحتفاظ به، وماذا يجب التخلي عنه. ولكنك تعرف ماذا يحدث عندما تفعل ذلك. إذا رميت ماء على الأرض، صدقني أنه لابد أن يجد مصرفا.

(١٤)

رَجُل الدجاج

ظلت أمي تمشي حول البيت وكأنها عمياء لأشهر طويلة بعد وفاة زوجها، تؤدي الأعمال اللازمة للحياة أداء واهنا. وزعت ملابس أبي وأدواته وقبعاته على المحتاجين. أرسلتنا إلى المدرسة، وحاولت الاحتفاظ ببيتها المجنون كما هو عادة، تتكلم بشدة عن أمور مختلفة، ولكن حماستها كانت قد خمدت. كثيرا ما كانت تجلس عند طاولة المطبخ في المساء مستغرقة في التفكير، أو تتوقف عن الكلام في وسط الجملة وتبتعد بصمت وتغطي وجهها. كانت تبكي في غرفة نومها، غير أنها كانت تخفي دموعها عنا دائما. بقيت سيارة أبي البونتياك الذهبية أمام البيت لأشهر طويلة، تتجمع الأوراق حول عجلاتها كما تتجمع فضلات الطيور على مقدمتها. ووَعَدت أمي، «سأتعلم قيادتها»، ولكنها بدلا من ذلك، بدأت تركب دراجتها وتأخذ دروسا على البيانو، وتجلس عند البيانو مساء كل يوم تحملق في نوتة الموسيقى وتعزف ببطء وبألم نغمات ترتيلتها الإنجيلية المفضلة، «ياله من صديق هو المسيح». كانت تعزف كل نغمة منفردة، ويتردد صداها عبر البيت وتقع على الجدران كالدموع. لم أطق سماعها. كنت أغطي أذني أثناء الليل، أو أفضل من ذلك كنت أخرج من البيت. لم يكن هناك أحد يمنعني من ذلك.

انهارت علاماتي في المدرسة على الفور تقريبا. كنت أحضر مدرسة بنيامين كردوزو الثانوية في حي بيسايد بمنطقة كوينز، وبينما كنت تلميذا جيدا في الصف التاسع، إلا أنني فشلت في العام اللاحق وسقطت في كل مادة. كنت أخرج من المنزل في الصباح، ولكنني لم أحضر المدرسة. وكما فعلت أمي من قبلي، شرعت في عملية الهروب الخاصة بي، أقطع اتصالي بها عاطفيا، وكأن ذلك سيمكنني من إبعاد آلامها عني. أصبحت أخيرا الملك في بيتي بعد سنين من الانتظار.

الولد الأكبر القادر على إصدار الأوامر على إخوتي الصغار وتعذيبهم كما كان الكبار يأمرونني ويعذبونني، ولكن الآن، وبعد أن حانت تلك اللحظة المنتظرة، أصبحت أقضي وقتي خارج المنزل بقدر المستطاع. تركت الكنيسة وتجنبت عرّابي المتدينين تدينا عميقا. كنت أول ولد في مجمّع بناياتنا يدخن ويحشش. التحقت بفرقة موسيقية للسود اسمها بلاك ايس في الجانب الآخر من المدينة، وكنت أعزف أي آلة أستطيع الحصول عليها من سكسفون وناي وباص، وكلها مستعارة. كنا نعزف أغاني فرقة كول آند ذي غانغ لساعات متواصلة، ندخن حشيشة الكيف، ونشرب الكحول الإنجليزي، ونتمرن في سرداب الطبال لأيام متواصلة إلى أن تطردنا أمه، وعندئذ نجد مكانا آخر لنعزف فيه. جذبت فرقتنا جموعا غفيرة من الأتباع ـ من فتيات كنت مازلت أخشاهن كثيرا في سني الرابعة عشرة، وأصدقاء جدد ـ شبابا لطفاء يسمون بيني، ومارفن، وتشنك، وبيغ، وباكي، كانوا يدخنون السجائر وحشيشة الكيف، ويعجبون بموسيقى الفرقة. «نعم، انك تجيد العزف، يا رجل. إنك تدخن..».

مارسنا أنا وأصدقائي السرقة من المتاجر. سطونا على سيارات، وتسللنا إلى خطوط سكة حديد لونغ آيلند وسطونا على عربات الشحن، نسرق منها دراجات وأجهزة تلفزيون وخمرا. ذات مرة، فاجأنا شرطي هناك ونحن ننوي السرقة، ولكن لم يكن معنا أي بضائع مسروقة. أوقفنا أمام عربة شحن وفتشنا، وضرب أحد الأولاد في وجهه بهراوته لأنه حاول الادعاء أنه ليس معنا. قادنا الشرطي حول الفناء المخصص للشحن لحوالي ساعة كاملة، يهددنا بمسدسه ويلح به تحت أنوفنا ويقول: «أنتم الزنوج حثالة، ويجب أن أطلق النار عليكم حالا». كنا نعتقد أننا سنموت، ولكنه أخلى سبيلنا. ولم يردعنا ذلك، بل وجدنا ذات مرة عربة شحن مليئة بالنبيذ فسرقنا منها صناديق عديدة، وظل نصف المراهقين في سانت البانز سكرانين لمدة أسابيع. حاول رجال الشرطة ضبط الوضع

وفاجأوا أربعة منا ذات ليلة ونحن نفرز صناديق النبيذ المسروق في طريق مسدود. هجموا علينا بسيارتي نجدة بأضواء مطفأة وبرجال على مقدمتيهما ومؤخرتيهما، تهدر محركتاهما وتصرصر إطاراتهما، فيما تشتتنا كالذباب إلى مساحة للنفايات قريبة من المكان، ونجيت بالكاد. ركضت وراء صديقي الكبير والبطيء مارفن، ولم أتمكن من الوصول إلى السياج على الجانب الآخر من الساحة حيث نجا الآخرون جميعا. هويت تحت شاحنة لإلقاء النفايات متروكة هناك، واستلقيت بصمت ممسكا زجاجة نبيذ بطعم النعناع بيدي، أصر على أسناني وأكاد أبول على نفسي وأنا أراقب أحذية رجال الشرطة وأرى أشعة مصابيحهم الكهربائية تلمع قريبة من قدمي. في اليوم التالي، سكرت احتفالا بنجاتي ولم أستطع العودة إلى منزلي. حملني صديقي جو إلى بيتي حيث سقطت على الأرض، وقمت، وبلت في الشارع أمام أخواتي اللواتي بذلن جهدا جهيدا لإدخالي إلى البيت دون أن تراني أمي، ثم انهرت انهيارا كاملا. عندما استيقظت، كانت أمي جالسة على نهاية سريري والحزام بيدها. جلدتني دون رحمة والدموع في عينيها، ولكن ذلك لم يفد. أصبح أصدقائي هم أسرتي، وتحولت أسرتي وأمي إلى مجرد أشخاص أسكن معهم.

من الواضح أني كنت مختبئا، واني غاضب أيضا، ولكني لم أعترف بذلك أبدا حتى لنفسي. أما الفوضى المنظمة الرائعة التي كانت أمي قد بنتها بمثابرة لإدارة منزلها بسهولة، فقد انهارت عند وفاة أبي، ولم تكن أمي في حالة نفسية مناسبة لترميمها. تجاهلت توصية زوج أمي الأخيرة لي، وتنصلت عن كل مسؤولية، وبقيت خارج البيت بقدر المستطاع، وهكذا تجنبت الصدمة العاطفية الناجمة عن مراقبة آلام أمي. بالمقابل، فقد زاد ألمها لأنه لم يكن لديها أحد لمساعدتها في تربية الصغار. علاوة على ذلك، لم تكن لديها أي أموال لدفع فواتير التدفئة والكهرباء والهاتف، وصرفت كل فلس من معاش تقاعد زوجها والراتب البسيط من عملها والضمان الاجتماعي على إخوتي في

الكلية والجامعة. تدهور البيت تدريجيا إلى حالة تستدعي الترميم، وتجاهلت ذلك. لكسب بعض المال، فقد كنت أبيع حشيشة الكيف، واحتفظ بكمية منها مخبأة عند سكة الحديد. عند نفادها، أقنعت صديقي جو بالسرقة من تاجر عرفت أن لديه كمية كبيرة منها، كان لدى جو مسدس عيار ٢٢، وكنت أحمل موسى حلاقة بنصل مستقيم كنت قد وجدته بين ممتلكات زوج أمي. اعتدينا على التاجر لنأخذ الحشيشة، وضربته عندما احتج، فتراجع. حين نفدت الأموال التي ربحتها من بيع الحشيشة، انتزعنا جزدانا في شارع نيوبورغ من عجوز سوداء صاحت وصرخت فيما ضحكنا وهربنا. حصلنا من ذلك على دولار واحد وستة عشر سنتا، وحنّ جو على المرأة ورفض أن يفعل ذلك مرة أخرى، فاضطررت أن أفعل ذلك وحدي، أنتظر في المدخل المظلم لمحل حلاق مغلق فيما تنزل النساء من حافلة، وأنتزع الجزادين من أيديهن الممانعة وهن يصرخن من الخوف والصدمة. على الرغم من خساستي، كنت أأسف لهن وصرخاتهن تدوي في مسمعي عندما أهرب، وقلبي يخفق بقوة حيث أشعر وكأنه طابوق يخبط على صدري، ولكني لم أأسف لهن بما فيه الكفاية. كانت أحاسيسي قد تخدرت، وشعرت بأني أنتقم من العالم للمظالم التي قاسيتها، ولكن لو جلست معي وسألتني ما هي المظالم التي أتكلم عنها، لن أستطيع تحديدها بأي شكل من الأشكال. كنت أنتزع جزادين العجائز كما كنت قد رأيت أحدا ينتزع جزدان أمي وأنا في الثامنة من عمري، ولكن بذهني أن لاعلاقة بين العمليتين. لم تكن لدي مشاعر، لأني كنت قد أخمدتها، وكلما انتعشت، أخمدتها في داخلي كما يحشو الإنسان ملابسه في جارور ويقفله. ساعدتني حشيشة الكيف والخمر في نسيان آلامي، وكلما ازداد الألم والشعور بالذنب، كلما تفاقمت مشاكلي مع المخدرات.

بذلت كل ما في وسعي لإخفاء حياتي الخسيسة عن أمي. سرقت عددا من نماذج التقارير من مكتبة المدرسة للحيلولة دون رؤية أمي علاماتي الرديئة التي كانت صفرا في الواقع، لأني لم أحضر المدرسة.

كان ذلك مشروعا معقدا تطلب براعة فعلية، وساعدني فيه صديق اسمه فينسنت، ولكني أخطأت وطلبت من أختي كاثي أن تملأ النموذج الذي استخدمته لنفسي، لأني خفت أن تعرف أمي خطي. وبدلا من تسجيل علاماتي المعتادة ـ التي كانت بتقدير ممتاز ـ دونت كاثي علامات بتقدير جيد. نظرت أمي إلى العلامات وقالت: «جيمز ليس تلميذا يأخذ تقدير جيد فقط، واتصلت هاتفيا بالمدرسة، وتلقت صدمة عنيفة.

لم تتمكن من معاقبتي، عرفت ذلك. كنت قد كبرت كثيرا وأصبحت قويا جدا، وتدهور وضعي كثيرا. سجلتني في مدرسة صيفية وطردت منها. عاد إخوتي الكبار إلى المنزل من الجامعة وأنبوني وضربوني في مختلف أنحاء البيت. ولكني مازلت مستمرا في التحشيش والبقاء خارج البيت في جميع الأوقات. أخيرا، أرسلتني أمي لأنزل عند أختي جاك التي كانت قد انتقلت من هارلم إلى لويسفيل في ولاية كنتاكي مع زوجها الجديد. قالت أمي بازدراء: «ستقوم جاك بتقويمك»، وأجبت أني أشك في ذلك.

المحبوبة جاك. كانت امرأة سوداء مسيحية جميلة وصغيرة، لها نمش وعينان بنيتان تتنبهان لكل شيء. كانت تلبس شعرا مستعارا مزينا وتتكلم بلهجة جنوبية واضحة. كانت تلف رأسها بمناديل أحيانا وتعمل طباخة أو خادمة عند البيض عادة، ولكنها امرأة بصيرة وذكية تحت مظهر الخادمة، وكانت تفهم عني بصفتي طفلا مختلطا أكثر مما أفهم عن نفسي. كانت جاك قد عاشت في هارلم لمدة عشر سنوات قبل انتقالها إلى كنتاكي، وتعرف أكثر مني عن الشارع.

لم تكن زيارة جاك أثناء الصيف عقوبة بالنسبة لي. كانت حرية جميلة، ونزلت هناك صيفا لثلاث سنوات متتالية. كنت أعمل دائما على أن أطرد من المدرسة الصيفية في مدينة نيويورك عن قصد لكي أرسل إلى هناك. كانت جاك مشغولة بحيث لا تستطيع مراقبتي، أو

هكذا اعتقدت. كان لديها طفل رضيع، وتعمل طوال النهار طباخة في مطعم، وزوجها صعب المراس. قالت لي في المرة الأولى التي جئت فيها إلى بيتها، «هل تريد أن تقضي بعض الوقت خارج البيت؟ اخرج، وسترى، ولكن إذا دخلت بيتي ومعك مسدس، سأطلق عليك النار بنفسي»، وكانت تقصد ذلك. سمحت لي، ولو على مضض، بالتجول مع زوجها، رتشارد الكبير، الذي أعجبني كثيرا. كان رجلا طويلا ونحيفا بلون الشكولاتة وله شوارب. يحب ارتداء النظارات الشمسية وقمصان بأكمام قصيرة وأحذية لامعة وبنطلونات من قماش أملس بنقوش صغيرة، وكان دائما يمسك سيجارة مشتعلة بين أسنانه. كان رتشارد الكبير رجلا حاذقا يتعامل مع أشخاص شرسين في لويسفيل، وكان العديد من أصدقائه قد تعرضوا للشرط والطعن والجدع وإطلاق النار، ولكن رتشارد الكبير لم يصب بأذى لأن دماغه كان يعمل كمضخة، يمتص المعلومات على الفور من أي وضع، ويعمل عقله بوعي متواصل وراء نظارات الشمس في جميع الأوقات. كان بإمكانه الدخول إلى ناد ليلي وشم الخطر على الفور، والانسحاب رأسا. يقول: «سوف يطلق النار على أحد هنا». وفعلا، نسمع في اليوم التالي أن النار قد أطلقت على البعض.

كان رتشارد الكبير يعمل في مصنع تبغ براون ووليامسون، ولكننا كنا أنا وإياه نمضي الوقت مع زملائه الشباب طوال النهار، وفي الليل، قبل فترة مناوبته، على «الزاوية» عند متجر فيرمونت للمشروبات الكحولية على بعد حوالي ميلين من بيت جاك على تقاطع الشارع الرابع والثلاثين وجادة فيرمونت في الجانب الغربي من المدينة، شكل صيف تلك السنوات الثلاث التي قضيتها عند متجر فيرمونت للمشروبات الكحولية على الزاوية تربيتي الحقيقية في الشارع.

كان الرجال على الزاوية عمالا جنوبيين، من سماكرة ونجارين ودهانين ونصابين وجنود متقاعدين من فورت نوكس القريبة، وعمال

تبغ من شركة براون وويليامسون، وبعضهم ليسوا إلا طفيليين. كانوا رجالا كبارا بعضلات قوية وأسنان بيضاء وسواعد ضخمة، يرتدون ملابس العمل وقمصان وبنطلونات دهانين وأحذية عمل ويدخنون سجائر بال مال وتاريتون من دون فلتر ويسوقون سيارات كبيرة من طراز الكترا ٢٢٥، أو كدلاك، أو أولدزموبيل طويلة. كانوا يحبون النساء الجميلات، والوسكي الجيد، وألعاب القمار، والرابطة المحلية للعبة السوفتبول التي شاركوا فيها بفريق من المدمنين على الكحول. كانوا يلاعبون فرقا أخرى مؤلفة من آخرين مدمنين على الكحول، وعلى الرغم من نشوب عراك بالأيدي أحيانا، إلا أن ذلك نادرا ماأدى إلى استخدام الأسلحة النارية. كان الرجال عند الزاوية شرّابي خمر شرفاء لهم قواعدهم الأخلاقية الخاصة بهم: فكلام الرجل ميثاقه، ولا يجب إهانة امرأة أي شخص، ولا الشرب من الزجاجة نفسها التي شرب منها رجل اعترف بأنه مارس الجنس شفهيا مع امرأة، ولاترجيح النرد أثناء ألعاب القمار، وإذا سحب أحد مسدسه ـ ويجب ألا يفعل ذلك ـ عليه استخدامه قبل أن يستخدمه أحد عليه. كان لديهم أسماء مثل «رد» (أحمر) و«هوت سوسج» (سجق حار)، و«ون آرمد جيمز» (جيمز ذو الذراع الواحدة) و«تشيكن مان» (رجل الدجاج) وهو عجوز سكير كان صديقي المفضل.

كان رجل الدجاج رجلا صغيرا له جلد غامق اللون شبيه بلون النحاس الأحمر، ووجه مجعد، وعينان ضاحتكان. كان يرتدي قبعة قديمة لصيادي الأسماك يبدو وكأنها تغطي وجهه بكامله، وبنطلونا من قماش اسكتلندي يبين حوالي بوصتين من جوربيه وأربع بوصات من كاحليه، وتفوح منه رائحة الخمر والجعة دائما، ولكن أحد جيوبه مليء بالحلويات التي كان يوزعها على مختلف الأطفال الذين يمرون بمتجر المشروبات لرؤيته، بعضهم من أقاربه والبعض الآخر لا يمت له بصلة. كان يمكنك رؤيته قادما من بعيد، ظاهرا فجأة من لا مكان كملاك، يبدو وكأن شكله ينبعث من الأرض في الحرارة كالسراب،

غيرأنه يكون قد خرج في الواقع من أحد البيوت الآيلة للسقوط المصطفة على جانب الطريق على بعد نصف ميل. كان يتقدم مترنحا في الشارع الرابع والثلاثين كطائر هائم ضل طريقه، يداه ممتدتان على جانبيه وكأنه يطير، يلوح بهما إلى السيارات التي تزمر له، ويصل إلى الزاوية سكران في الساعة الثانية بعد الظهر. كان يقيم الزاوية مكانا للعمل وكأنها مكتبه، يجلس أمام متجر المشروبات الكحولية على صندوق خشب ويشرب حتى ينفد منه المشروب أو المال، وعندئذ ينصرف مترنحا، وهو يسكر حتى لا يعي ما يفعله، ويضحك من فلسفة حمقاء قد أعلنها لتوه. كان رجل الدجاج رجلا لطيفا، لايفهم كلامه على الإطلاق عندما يسكر، ولكنه أحد أهم فلاسفة الزاوية وهو صاح. كان يجلس أحيانا على صندوقه كالفرعون توت عنخ آمون، ذراعاه معقودتان ويهز رأسه، يعلق على الحياة والحرية والسعي إلى السعادة والأموال والخمر «لا تخلط مشروب الذرة والنبيذ الرخيص أبدا» والنساء «لا تضاجع امرأة وهي حائض، لأن جسمها يفرز أوساخا». وكان رجل الدجاج يسمي الرجال البيض «مستر تشارلي» أو «تشاك» من باب الهزل.

فسر رجل الدجاج يوما من الأيام أن أصل اسم المستر تشارلي يعود إلى الإنسان الذي يسكر، ويناديه هكذا: «تشارلييي!» ويتظاهر بأنه يتقيأ. ولكن إذا كان الإنسان ثملا للغاية، يناديه تشاك، هكذا: «تشاككك!» ويتظاهر بالتقيؤ الشديد.

وسألت، «وماذا عن رالف؟» لأني عرفت أننا نسمي تقيؤ الغندور «رالف»، أو هكذا نسميه في نيويورك على الأقل.

«انس رالف، انه لا يحسب حسابه، المستر تشارلي هو المهم. والآن اشتر لي جعة»

لم يول الرجال على الزاوية أي اهتمام بالمستر تشارلي على مايبدو،

وكان أقرب تعامل معه هو عند مرور رجال الشرطة، الذين يقفون أحيانا ليسألوا إذا كان أحد قد رأى فلانا، وكانوا يواجهون بصمت كامل أو أحيانا بالنكات والضحك. يبدو أن الرجال لا يخشون الشرطة ولكنهم لايكرهونهم. تبدو حياتهم كاملة دون الرجل الأبيض، وأعجبني ذلك. كان عالمهم انعزاليا وبعيدا عن عالم الواقع الذي كنت أهرب منه. كانوا يسمونني «نيويورك»، وسمحوا لي بالجلوس هناك طول النهار أتمرن على الناي وأدخن حشيشة الكيف كلما أرغب في ذلك. بلغت الخامسة عشرة عند الزاوية، ولكنه كان بإمكاني التصرف وكأني في الخامسة والعشرين، ولم يبال أحد. كان بإمكاني الاختباء فلا أحد يعرفني. لا أحد يعرف شيئا عن حياتي الماضية أو عن أمي البيضاء أو أبي المتوفى، لا شيء. كانت حياة كاملة لا عيب فيها. وبدت مشاكلي بعيدة كل البعد.

كان أحد أصدقاء رتشارد الكبير المقربين رجلا اسمه بايك، له جلد غامق وشوارب وسلوك هادىء. سرقت بعض بطاريات السيارات مع بايك إلى أن اكتشفنا أحدهم في الطريق أمام بيته ليلا، وأشعل الضوء عند مدخل بيته وأطلق علينا النار. بعد أن نجينا قال بايك وهو يلهث ليستعيد أنفاسه، «لا داعي أن تعمل هذا أبدا». ولم يسمح لي بالخروج معه بعد ذلك، وكان يعتني بي، شأنه في ذلك شأن معظم الغنادرة عند الزاوية، ولدى احتجاجي بأني أحتاج إلى أموال، قال لي: «لا تقلق، سوف أجد لك وظيفة في مصنع للروث لتكسب كل الأموال التي تحتاج إليها».

وسألته، «ما هو مصنع الروث؟».

«إنه مصنع يصنعون فيه الروث». قال لي ذلك بعد ظهر أحد الأيام عندما كنا أنا وهو ورتشارد الكبير نتجول بسيارته. كان رتشارد الكبير يركب في السيارة وكأنه حارس لها، يطبق أسنانه على سيجارته ويحدق من النافذة ليمنع نفسه من الضحك.

وقلت، «أريد الوظيفة. وماذا يتعين علي أن أفعل فيها؟»

«تجلس على كرسي كبير، وتطفو قطع الروث على طول مجرى مائي طويل، وتفرز القطع الكبيرة عن القطع الصغيرة»

«وكيف أفعل ذلك؟»

«لديهم أداة تستخدمها، وبإمكانك استخدام يدك، مهما كان لايهم. والأموال جيدة، هل تريد الوظيفة أم لا؟»

«أريدها، يا رجل، أريد الوظيفة! خذني إلى هناك!»

وأخيرا وجدت وظيفة حقيقية عند محطة بنزين تبعد حوالي ميل واحد عن الزاوية. كان صاحبها رجلا أسود قوي البنية وضخم الصدر ولئيم للغاية اسمه هيرمان. في يومي الأول في الوظيفة قال لي الميكانيكي في المحطة، وهو شاب أسود فاتح البشرة، «لا تُغضب هيرمان، لأنه سبق أن قتل رجلين». ولم أسأل أي سؤال عن هذين الرجلين، بل أخذت حذري لكي لا أكون الثالث، لأن هيرمان كان رجلا كبيرا ولئيما وسريع الغضب ويضرب الناس. كان يناولني سطلا مليئا بالبنزين كل ليلة قبيل إغلاق المحطة، ويأمرني، «امسح هذه الأرض اللعينة ولا تدخن أثناء قيامك بذلك»، ثم يقف خارج الباب مباشرة ويدخن ويراقبني وأنا أمسح أرض محل خدمة السيارات بكاملها. لم يسرق أحد من محطة هيرمان طوال عملي هناك، ولم يستفزه أي من الزبائن أبدا.

كانت وظيفتي ضخ البنزين وتغيير الإطارات وتصليح المثقوب منها وعدم إغضاب هيرمان بشكل عام، وفعلت ذلك تقريبا، ولكني اشتبكت بالأيدي مع أحد أصدقائه، وهو شاذ فظ الطابع له ندبة على وجهه كان يضايقني. لا أعلم لماذا، ربما لأن وجهي كان يشبه وجوه البنات، أو بسبب لهجة نيويورك التي أتحدث بها، لكنه حاول إغوائي بعد

ظهر أحد الأيام، فلكمته في وجهه مرتين قبل أن يذهب ليأخذ مسدسه من تحت مقعد سيارته ويطاردني حول المحطة. تسبب الضجيج في شجار كبير وفصلني هيرمان من العمل على الفور. انسحبت إلى الزاوية لأخطط للانتقام واستلهم الحكمة من رجلي الرئيسي، رجل الدجاج، وكان رجل الدجاج صاحيا وله نصيحة بسيطة، فقال لي، «انسه».

وأجبته، «لا أستطيع أن أنساه. لو كان عندي مسدس لأطلقت عليه النار».

ضحك رجل الدجاج ضحكة هادئة، وقال، «إنك لا تعرف شيئا على الإطلاق. هل تريد أن تنتهي هكذا، أن تدخل السجن بسببه؟ وسوف تنتهي هناك، تقضي عقوبة السجن، وتبقى عند هذه الزاوية بعد خروجك. هل هذا هو ما تريده لنفسك؟ بإمكانك أن تحقق ذلك إذا أردت. فتفضل».

وقلت، «أنا إنسان ذكي، ولست مجبورا على تحمل إهانة من هذا النوع. ولايعرف أحد مدى ذكائي الحقيقي، يا رجل الدجاج، ولكني ذكي».

وأجابني رجل الدجاج بحدة، «ولن يهتم أحد بذلك، لأن الجميع عند هذه الزاوية أذكياء، ولست أذكى من أي شخص هنا. وإذا كنت ذكيا للغاية، لماذا تأتي إلى هذه الزاوية كل صيف؟ لأنك تسقط في المدرسة. وتعتقد بأنك إذا تغيبت عن المدرسة فإن أحدا سيتوسل إليك أن تعود؟ لا، أبدا، لن يترجوك أن تعود، يا أسود. فما هي مميزاتك الخاصة التي تجعلهم يترجونك؟ من أنت؟ أنت لست أحدا! إذا أردت أن تترك المدرسة وتطلق النار على الناس وتبقى عند هذه الزاوية مدى الحياة، تفضل، انها حياتك!».

لم أسمع رجل الدجاج أبدا وهو يتكلم بهذه القساوة، ولم يؤثر

قوله علي، ليس على الفور. قلت لنفسي «إنه سكران»، وواصلت مغامراتي. غير أن رجلا اسمه مايك، وهو رجل هادئ وفكاهي طوله متران، تشاجر عند الزاوية مع صديقته مستانغ، وهي امرأة سوداء رشيقة وجميلة، ذات مؤخرة سوداء كبيرة تتلوى مثل الثعلب. تطورت المشاجرة وبدأ مايك يصفع مستانغ بشدة، فأردت أن أتدخل، ولكن رجل الدجاج منعني بقوله: «أتركه وشأنه، يا نيويورك! إن هذا بينه وبين امرأته. لا تتدخل أبدا بين رجل وامرأته». غادرت مستانغ الزاوية في سيارتها تحرق مطاط إطاراتها من السرعة وتعد بالعودة مع صديقها الجديد ليقتل مايك. سرعان ما أصبحت الزاوية مهجورة، فلا شيء مثل الخوف من معركة بالأسلحة النارية لإقناع الجميع بالعودة إلى المنزل. في اليوم التالي، أعطاني رتشارد الكبير تعليمات صريحة بالابتعاد عن الزاوية، ولكني تسللت إلى هناك وراقبت مايك وهو يأتي بعد الظهر في سيارته البويك الكبيرة، يستمع إلى موسيقى مارفن غي على مسجله. أوقف المحرك ونزل يصفر بأعصاب باردة تماما، وكأنه يداوم يوما آخر في مكتبه. مشى إلى مؤخرة سيارته وأخرج كرسيا طويلا، ومنشفة، وبندقية صيد مختزلة بماسورتين ملفوفتين بشريط. وضع الكرسي أمام المتجر وجلس عليه. وضع زجاجة من الشراب على الأرض إلى جانبه، وزجاجة من النبيذ إلى الجانب الآخر، ووضع البندقية في حضنه والمنشفة فوقها، وقال ببرود، «سوف أجلس هنا وأشرب وأتأرجح وانتظره».

جلس هناك لمدة يومين يتأرجح ويشرب، فيما تجاوزه الرجال على رؤوس الأصابع، يراقبون الطريق بعين، ومايك بالعين الأخرى. وصديق مستانغ الجديد لم يظهر أبدا.

في الأسبوع التالي عاد مايك ومستانغ إلى الزاوية ذراعه بذراعها، يقبلان بعضهما بعضا ويتعانقان.

قال رجل الدجاج: «لهذا السبب لا أتشاجر مع أي امرأة، لأن ذلك لا يؤدي إلى شيء إلا الوقوع في المشاكل». غير أنه تشاجر مع امرأة بعد ذلك بقليل. تشاجرا في الصباح ثم انصرف ونسي الأمر. في وقت لاحق من ذلك اليوم دخلت تلك المرأة إلى متجر المشروبات وطعنته وهو ينتظر في الصف لشراء الجعة. سعل بضع مرات، ثم وقع على الأرض ميتا.

(١٥)

التخرج

كتبت رسالة إلى تاته بعد عملية إجهاضي وأخبرته بأني لا أريد أن أعود إلى سافوك. سجلت اسمي في المدرسة التجارية الثانوية للبنات في شارع بيرغن عام ١٩٣٦ . كانت المدرسة قريبة من بيت بوبه، ولكن الدراسة كانت صعبة، كافحت طوال السنة الأولى، أنام على أريكة بوبه وأبذل جهدا جهيدا مع علم الجبر كل ليلة. كانت المدرسة الثانوية للبنات متقدمة عن مدرسة سافوك الثانوية تقدما كبيرا، ولم يكن بوسعي التخرج في الوقت المحدد، وبالتالي عدت إلى فرجينيا بعد نهاية السنة الدراسية لإكمال دراستي الثانوية. وكان أول شيء قلته لبيتر لدى عودتي إلى سافوك: «لا نستطيع أن نلتقي بعد الآن، فلا تأت لزيارتي».

وأجابني: «إني انتظرتك، ومازلت أحبك»، واقتنعت لأني كنت لاأزال أشعر بحب عميق له.

كنت في المتجر وراء المنضدة بعد ذلك بقليل، ودخلت امرأتان سوداوان شابتان. سمعتهما تتحادثان عن بيتر، وقالت إحداهما: «نعم، سيتزوج قريبا». كدت أسقط على الأرض. كان تاته يقف بجانبي مباشرة، فمسكت خرقة وبدأت أمسح المنضدة وأقترب منهما تدريجيا لأسترق السمع. كدت أسقط على المنضدة في محاولتي للاستماع إليهما. وقالت إحداهما للأخرى: «نعم، إنه جعل فلانة حاملا». وذكرت اسم فتاة سوداء تسكن وراءنا في الحي.

خرجت على الفور ووجدته. لم أهتم بمن سيعرف عنا عندئذ. كنت غاضبة لدرجة جعلتني أمشي في الطريق إلى بيته في وضح النهار وأخرجه، وامرأته، «قل لي الحقيقة». فاعترف وقال: «إنهم

يجبرونني على تزوجها، إن أهلي يجبرونني».

«وهل حملت منك؟»

«نعم»

لقد أغاظني ذلك. أخبرته بأني لا أريد أن أراه بعد الآن. عدت عبر حي السود إلى المتجر، وصعدت إلى الطابق الأعلى وبكيت بكاء طويلا لأني كنت لا أزال أحبه. لقد تحملت كل هذه المحنة وها هو يقيم علاقة مع فتاة أخرى. أما كونه أسود والفتاة التي سيتزوجها سوداء فهذا زاد من ألمي. لو كان العالم عادلا لتزوجته على ما أعتقد، ولكنه من المستحيل أن يحدث ذلك في فرجينيا عام ١٩٣٧.

عقدت العزم عندئذ على مغادرة سافوك إلى الأبد. كنت في السابعة عشرة من عمري وبدأت أكون آرائي بنفسي لأول مرة في حياتي. لم تكن لي أي حياة هناك. كنت أخطط للمغادرة إلى نيويورك، ولكن كانت لدي أمي، كما تعلم، وكنت عينيها وأذنيها في أمريكا. لم تكن تتكلم الإنجليزية، وكنت أترجم لها وأعتني بها، لأن تاته لم يهتم بها مطلقا. كانت معدتها قد بدأت تؤلمها، كما بدأت تعاني من نوبات الإغماء حيث يغمى عليها في منتصف النهار، ولم يكترث تاته أبدا. استأجر امرأة سوداء للاعتناء بأمي، واعتنت تلك المرأة بها فعلا أكثر منه. كانت تعتني بأمي حتى ولو لم يدفع لها أجرها، وحتى إذا دفعه كان أجرها ضئيلا. كان يعتقد بأن الأموال التي أنفقها على الاعتناء بزوجته يمكن أن تعوض عن عدم حبه لها. لكن الزوجة تحتاج إلى الحب. كانت زوجة يهودية جيدة له، ولكن زواجهما بدأ ينهار لأنه لم يهتم بها، ولذلك عرفت أني سأترك المنزل. لن أقبل زواجا يتم الترتيب له مسبقا مثل زواج والدي. أفضل الموت على ذلك، وقد مت نوعا ما، لأني خسرت أمي وأختي عندما تركت المنزل.

على أي حال، كان التلامذة في مدرستي الثانوية مبتهجون

ويضحكون بسبب الحفلة الراقصة واحتفال التخرج ويخططون لهما، ولكني كنت قد ذهبت إلى نيويورك ورأيت أحداثا أعظم، ولم أعتزم حضور أي منهما. لم يدعني أحد إلى الحفلة الراقصة على أي حال، ولكن فرانسيس ظلت تلح علي، «من فضلك احضري التخرج يا روث، سنمشي معا في يوم التخرج». لم أخبر فرانسيس عن أي من المتاعب التي عانيتها، ولا كل المعلومات عن بيتر وعملية إجهاضي في نيويورك، وكانت تعرف أن حياتي في المنزل ليست كاملة، ولكن فرانسيس لم تكن من النوع الذي يستجوب الإنسان، إنما كانت كريمة ولطيفة. لذلك قررت حضور احتفال التخرج من أجلها، لأن فرانسيس كانت أعز صديقاتي وكنت أعمل أي شيء من أجلها.

كانت مدرسة سافوك الثانوية تقيم احتفال التخرج الذي يصطف فيه التلامذة الكبار بقبعاتهم وأثوابهم خارج المدرسة ويسيرون في الشارع الرئيسي بخطين متوازين إلى الكنيسة البروتستانتية لإقامة المراسيم. كانوا يسمونها مراسيم ما قبل التخرج أو الباكالوريا أو شيئا من هذا القبيل. اضطررت إلى طلب النقود لشراء القبعة والثوب من تاته، وحالما سمع أني سأسير إلى كنيسة بروتستانتية، قال، «انسي الموضوع. لن تدخلي في أي كنيسة بروتستانتية». كان يعارض ذلك معارضة شديدة. تعلم أن والدي كانا أوروبيين محافظين للغاية في عاداتهما. فلو دخل موظف الخدمة الاجتماعية إلى بيتي وتكلم مع والدي لكان وكأنه تكلم مع الجدار. كانا ثابتين على طباعهما، ولايمكن أن يتغيرا على الإطلاق. كان لايزال أبي، ومازلت أنا مراهقة تسكن في بيته، وكان بإمكانه خلع حزامه ليضربني ضربا مبرحا كلما أراد ذلك، وماذا أستطيع أن أفعله؟ لم يشغل باله حول تخرجي. الذي أقلقه أكثر من ذلك أنه لم يكن لدي أي احتمالات للزواج، وأخذ يصطحبني معه في رحلاته التجارية إلى بورتسماوث ونورفوك، إلى المتاجر ومخازن التموين بالجملة ويعرفني على التجار وأبنائهم إذا كان لهم أبناء، وكأنه يقول، «هذه هي ابنتي أعرضها عليكم، ما رأيكم؟»

كان يرسلني أحيانا في مشاوير وحدي، أقود السيارة التي تجر المقطورة، أنا ودي دي، وكنّا نملأ المقطورة بالبضائع من المخازن ونسير عبر المستنقع الموحش حول بورتسماوث ونورفوك. كان الناس ينذروننا، «خذا حذركما من حارة الأضواء الحمراء (المقصود بذلك حارة بيوت الدعارة) في نورفوك». وكنا نتجول في نورفوك ونحن نتجنب إشارات المرور الحمراء.

على كل حال، غضبت من تاته بسبب حفل التخرج ولم نتكلم مع بعض لفترة، ولكنه كان قد وصل إلى مرحلة كان فيها بحاجة ماسة إليّ لمساعدته في إدارة المتجر، لأن سام قد ترك ولم تكن أمي بصحة جيدة. بدأت معدتها تؤلمها كثيرا، لدرجة جعلتها تنثني على نفسها من الألم. كنا نأخذها إلى الطبيب في البلدة، وكان يقول هذا وذاك. ذكر عملية من نوع ما، ولكنه لم يعرف. كان رجلا كريها، زرته مرة فتصرف تصرفا خليعا. كان يلمسني في أماكن لا داعي للمسها ويقول كلاما بذيئا، فلم أعد إليه أبدا. لم أتكلم مع أحد عن ذلك بطبيعة الحال. ولكنه نظر إلى أمي وقال إنه لا يعرف ما هو مرضها.

على كل حال، تجادلنا أنا وتاته حول القبعة والثوب لفترة طويلة، وفي إحدى المراحل غضبت غضبا شديدا حيث أفشيت بخطتي للمغادرة إلى نيويورك بعد التخرج، وقلت له، «سأذهب إلى نيويورك، سوف أغادر». خرج من الغرفة غاضبا يشتم ويلعن، وبعد ذلك ببضع دقائق تبعته أمي وتكلمت معه (وكانا نادرا ما يتكلمان آنذاك)، وجاءني في اليوم التالي، وأعطاني النقود لشراء القبعة والثوب، وقال لي، «بإمكانك المشاركة في المسيرة، ولكن لا تدخلي تلك الكنيسة، لأنه ممنوع».

وأجبته، «سوف أحضر المراسيم».

وأصر، «احترميني واحترمي أمك، ولا تخالفي شريعة الكتاب المقدس. لاتدخلي كنيسة الأغيار».

لقد عقدت العزم على كل حال.

فتحنا المتجر أنا ودي دي في يوم التخرج وجهزنا اللحوم، وكدسنا الخضراوات الطازجة، واشتغلت وراء المنضدة حتى حان وقت الذهاب. رفض والداي الذهاب إلى تخرّج الأغيار بطبيعة الحال، فلبست قبعتي وثوبي وقطعت ست مجموعات من البنايات إلى مدرسة سافوك الثانوية وحدي وانتظرت فرانسيس في موقف السيارات. تأخرت فرانسيس في الوصول، مما أعطى التلامذة الآخرين وآباءهم منظرا ليحدقوا فيه، أنا واقفة هناك وحدي. كنت على استعداد للانصراف والعودة إلى المنزل بحلول وقت وصولها. قلت لها، «يا فرانسيس، لاأعتقد أني أستطيع دخول تلك الكنيسة». فأجابتني، «إني أفهم، ياروث، إذن سأتخرج وحدي، لأني لا أريد أن أتخرج بجانب أي شخص إلا أنت». شعرت بأني لا أستطيع أن أجعل الأمر يحدث هكذا، وقلت، «أستطيع أن أذهب، فلنذهب». التقطت لنا صورة بالقبعة والثوب، ووقفنا في الصف في خطين متوازيين وسرنا معا. خرج الصف من ساحة مدرسة سافوك الثانوية إلى الشارع الرئيسي، وتباطأ حين تكدس المتخرجون عند مدخل الكنيسة. عندما اقتربنا من الكنيسة بدأت أرتجف وأعرق، وخرجت من الصف قبيل وصولنا إلى مدخل الكنيسة. لم يكن بإمكاني الدخول إلى تلك الكنيسة. كنت لا أزال يهودية في صميم قلبي. كنت قد ارتكبت بعض الخطايا في حياتي، ولكني لم أزل طفلة والدي.

استدرت مبتعدة، ولكن بعد أن رأت فرانسيس دموعي، خرجت هي أيضا من الصف، ولكني أشرت إليها بالعودة إليه، وقلت لها، «ادخلي، يا فرانسيس، لا يجب أن تفوتك المراسيم بسببي». فدخلت واضطرت إلى مسح دموعها، ولكنها عادت إلى الصف واجتازت المراسيم وحدها، وجلست طوال مراسيم التخرج بجانب مقعدي الفارغ.

عدت إلى المنزل بقبعتي وثوبي مشيا على الأقدام وأنا أبكي، وأخذت حافلة غريهاوند إلى نيويورك في اليوم التالي.

(١٦)
قيادة السيارة

أيقظتني أمي صباح أحد أيام السبت في عام ١٩٧٣، بعد عودتي من لويسفيل ببضعة أسابيع، وبعد وفاة زوجها ببضعة أشهر فقط، وقالت، «سوف نخرج لمشوار في السيارة». فزجت ابنة أخي (Z) البالغة سنتين من العمر بين ذراعيها (كان ذلك اسمها (Z) فقط)، وخرجنا إلى سيارة بابا.

كان زوج أمي قد حافظ على سيارته في حالة جيدة لا تشوبها شائبة، وهي بونتياك من العام ١٩٦٨ ذهبية اللون وداخلها أزرق. قبلها كانت لديه سيارة شفروليه إمبالا من العام ١٩٦٥ كان قد اشتراها بثمن باهظ، وهي بيضاء اللون، وداخلها أحمر، وكانت رديئة. كان يسميها «علبة الجبنة». كان يقول بغضب، كلما توقفت في المرور وهي مليئة بالأطفال ومحركها يصدر بخارا وينفث، «لن أشتري سيارة شفروليه أخرى أبدا». كان الأمر يبدو وكأنها تتعطل كل خمس دقائق. لم تكن هناك حاجة إلى مفتاح عندما تشتغل، لأن مجرد تحريك مفتاح الاشتغال كان يشغلها، وقام شخص بذلك مساء ذات يوم عندما كان أبي واقفا عند نافذة المطبخ يغسل صحوننا. راقب بصمت بينما انطلق الرجل بسيارته في سحابة من الدخان الأزرق. قال، «يبدو أن هذا يوم حظي».

لم تقد أمي سيارة أبدا كما أعرف. كانت تخشى القيادة، فكانت تركب في وسائل نقل نيويوك على الدوام وتعرف اتجاهات كل قطارات مترو الأنفاق، وفي أي محطة يجب النزول، والمسافة إلى المحطة اللاحقة إذا فاتتها تلك المحطة واضطرت للعودة إليها مشيا على الأقدام. كانت نتيجة اعتمادها على وسائل النقل العامة انها كانت تتأخر على كل شيء -العمل، والليالي المفتوحة في المدرسة، وإحضارنا

كلما دعت الضرورة إلى ذلك. لدى عودتي في كل صيف من مخيم «صندوق الهواء الطلق»، كانت حافلات المدارس الصفراء توصلنا إلى مانهاتن، وكنت أراقب باكتئاب ثلاثمائة عملية جمع شمل سعيدة بين أولاد المخيم وآبائهم وهم يتعانقون ويتبادلون القبلات، فيما يدفع المشرفون نقودا لمن ينتظر معي، وعندئذ تظهر أمي أخيرا من وراء زاوية الشارع الثاني والأربعين ـ كنت أرى ساقيها المقوستين على بعد ميل ـ وتركض إلي بضيق نفس، وتعانقني فيما يتطلع المشرفون بتعبيرات تعني «لم يكن لدي فكرة».

غير أن هذه الأيام قد انتهت، وأصبحنا بحاجة إلى سيارة، وحان الوقت لتتعلم أمي قيادتها. ركبنا في السيارة، وقالت أمي، «إني أكره هذا، ويجب أن تخبرني ماذا عليّ أن أفعله». كنت على وشك أن أبلغ السادسة عشرة في ذلك الوقت، وكنت أعرف القيادة على الرغم من عدم حصولي على رخصة بعد. كنت قد أمضيت الكثير من الوقت في قيادة سيارة أبي في غياب أمي، ناهيك عن السيارات الأخرى التي كان من المفروض ألا أقودها. من حنانها أنها لم تناقش كيف تعلمت قيادة السيارات، ولكني كنت قد بدأت أتغير بحلول ذلك الوقت. عرفت في قرارة نفسي أن صديقي القديم رجل الدجاج كان على حق، واني لم أكن أذكى ولا أحكم ولا أجرأ من الرجال على الزاوية، وإذا اخترت ذلك النمط من الحياة فسوف أنتهي عند الزاوية مهما كان عقلي أو قدراتي. عرفت أني لم أنشأ لأشرب كل يوم ولا للعمل في محطة بنزين، ولا لأقتل في مشاجرات مع أشخاص مثل هيرمان والأغبياء في محطته. إن الحياة ليست طائشة وخالية من الهموم كما تبدو ظاهريا بأي حال من الأحوال. إنها خشنة وقاسية، ولم أرغب أن أنتهي هكذا، أن أطعن حتى الموت بعد مشاجرة على زجاجة من النبيذ، ولا أن يقوم أحدهم بإطلاق النار علي لأنه يحاول انتهاك رجولتي. نصحتني أختي جاك أكثر من مرة، «يجب أن تختار بين ما يتوقعه العالم منك وما تريده لنفسك. توكل على الله، ولن تخطئ».

كنت أعرف أن جاك على حق، ولدى عودتي إلى نيويورك في خريف عام ١٩٧٣ لسنتي الأولى في المدرسة الثانوية، عقدت العزم على العودة إلى الدراسة بمثابرة وإعادة بناء نفسي. ومثل مافعلته أمي في أوقات الشدة، تضرعت إلى الله. كنت أضطجع في سريري ليلا أدعوه أن يقويني ويخلصني من غضبي ويجعلني رجلا، واستمع إلي فبدأت أتغير.

لم أتغير على الفور. كنت لا أزال استمتع بحشيشة الكيف. كنت أشاهد مذيعي التلفزيون من أمثال روجر غريمزبي والشاب جيرالدو ريفيرا يقدمان تقارير مروعة على أخبار القناة السابعة عن أخطار الإدمان على حشيشة الكيف، وكنت أضحك، وأقول لأصدقائي: «لا يمكن الإدمان على حشيشة الكيف، وأستطيع الإقلاع عنها وقت ما أشاء». ولكني عرفت في قرارة نفسي أني مدمن، وكنت أغار من الأشخاص في حلقة المخدرات التي أنتمي إليها الذين استجمعوا قواهم وخرجوا منها. كنت أجد نفسي في بيت شخص ما أحشش وأسكر فيما يحشو مناشف تحت الباب لمنع تسرب الرائحة. كما كنت أعاني أحيانا من الذكريات نتيجة لاستخدامي حامض الليسرجيك كثيرا خلال العام المنصرم. كانت العودة إلى السابق تحدث دون أي سبب واضح، أو يمكن أن يحفزها تدخين حشيشة الكيف أو سيجارة أو لا شيء، حيث كنت أمشي في الشارع وأجد فجأة أني مسطول باستبصار الغيب الناجم عن ذلك الحامض والذي يجعل الأشخاص يبدون وكأنهم مصنوعون من زجاج، ويصبح ظاهر اليد نجمة بنفسجية. كنت أهيم على وجهي في الحي في حالة ارتياب، أتجنب كل من أعرفه إلى أن تنتهي حالة الانتعاش. أشكر الله أن مخدر الكراك لم يتوفر في ذلك الحين، وإلا لكنت أصبحت مدمنا على الكراك بالتأكيد. كنت أشعر يوميا، في طريقي إلى المدرسة، وأثناء الدراسة، وفي طريق عودتي إلى المنزل، أنه يجب علي أن أفقد الوعي. إذا نفدت معي حشيشة الكيف كنت أشرب النبيذ، وإذا لم أستطيع الحصول عليه كنا أنا وصديقي مارفن نشرب نايكويل (شراب السعال)،

الذي يسكر الإنسان وينعسه ويسبب التقيؤ إلى حد ما. كنت أعود إلى المنزل مسطولا كل ليلة، تفوح مني رائحة محششة، وأعد نفسي بأني لن أنسطل في اليوم التالي فيما أدخل المفتاح في قفل الباب، وأجد أمي واقفة وراء الباب تصرخ علي، «ماذا بك؟ عيناك حمراوان وتفوح رائحة غريبة منك». كنت أريد الإقلاع عن حشيشة الكيف ولكني لم أستطع، لأنها كانت صديقتي وساعدتني على الهروب من الواقع. والواقع هو أن أمي كانت تنهار.

عندما أتذكر الماضي، أرى أن استعادة أمي لقوتها بعد وفاة زوجها استغرقت حوالي عشر سنوات. لم تكن المسألة وفاة زوجها المفاجئة فحسب، بل أيضا تراكم زمن من الألم الصامت، لم نعرف أنا وإخوتي عن بعضه أبدا. كان ماضيها سرا دائما بالنسبة لنا، وظل هكذا حتى بعد وفاة زوجها، ولكن الذي تركته وراءها كان كبيرا وشاملا بحجم لم تتمكن من التخلي عنه نهائيا، وهو تفكك أسرتها اليهودية، وشعورها بالذنب لتخليها عن أمها، وافتراقها عن أختها، ووفاة زوجها الأول المفاجئة والمأساوية، والذي كانت تحبه كثيرا. وعلى الرغم من أنها لم تظهر أبدا أنها على وشك أن يختل عقلها، إلا أنها تأرجحت على شفا الهاوية في بعض اللحظات، وكأنها مفقودة في الفضاء. حتى وأنا منغمس في ملذاتي كنت قلقا عليها، وعندما كنا ـ أنا وإخوتي ـ نستعيد عاطفتنا ببطء، كانت أمي تترنح في ذهول عاطفي لما يقارب السنة. إلا أنها لم تسقط على الرغم من ترنحها وترددها، بل كان رد فعلها السرعة والحركة. لم تتوقف عن الحركة. كانت تركب دراجتها، وتمشي، وتركب الحافلات في مشاوير طويلة إلى متاجر كبيرة وأسواق مركزية كبيرة وبعيدة، حيث تتفرج على البضائع لساعات طويلة وتصرف خمسين سنتا. لم تدرك تماما ماذا يجب أن تفعله بعد ذلك، ولكنها واصلت الحركة وكأن حياتها تعتمد عليها، وهي اعتمدت عليها فعلا من بعض النواحي. كانت تركض كما ركضت في الجزء الأكبر من عمرها، ولكنها تركض هذه المرة من أجل سلامة عقلها.

كانت تتصرف على نحو تلقائي، تقوم صباح كل يوم وتحثنا على الإسراع في الخروج إلى المدرسة وكأن الأمور لاتزال على حالها، ولكنها لم تستطع اتخاذ القرارات. كان أبسط خيار، كالخيار بين شراء جهاز هاتف باللمس أو بالقرص، يتطلب مداولات هائلة ومستفيضة. إذا تعطلت التدفئة كانت تظل معطلة، ليس بسبب نقص الأموال لإصلاحها، ولكن بلا سبب وجيه. كانت دائما غير منظمة لدرجة لا تصدق، ولكنها بلغت الآن حضيضا جديدا في عدم التنظيم. ذهبت إلى درس الرياضة وفتحت كيس ورق من بيتنا كنت قد وضعت ملابسي الرياضية فيه فوجدت فيه ملابسها الداخلية. كانت تختفي من بيتنا لساعات طويلة وتعود دون أي تفسير للمكان الذي ذهبت إليه. بعد وفاة زوجها بعام تقريبا، توفت أقرب صديقة لها وهي امرأة سوداء رائعة اسمها آيرين جونسون، وتأرجحت أمي على حافة الهاوية مرة أخرى، وكانت تقف عند حوض غسيل الصحون تغسل القدرة نفسها لمدة ساعات، وتحبس دموعها، وتقول بصوت غاضب كلما اقترينا منها، «ابتعدوا عني!» وكانت تلح علينا، «لن يكون لك سوى صديق واحد أو صديقين جيدين في عمرك»، وبالنسبة لها كانت آيرين صديقة من هذا النوع. كانت هي وآيرين قد عادتا إلى هارلم في الأربعينيات أول ما جاءت أمي إلى نيويورك، وكانت آيرين تدرك مدى إنجازاتها. ساعدتها آيرين على تربية أولادها الكبار وكانت بمثابة أخت لها. غير أنها رفضت حضور قداس تأبين آيرين وقالت، «لقد طفح معي الكيل من الجنازات». إلا أن الألم ظهر بوضوح في وجهها عندما رفعت سماعة الهاتف للاتصال بأخت آيرين للاستفسار منها عن التفاصيل الأخيرة من حياة صديقتها العزيزة، وأضافت قائلة، «أرجو منك البقاء على الاتصال». وظلت أخت آيرين على الاتصال لسنين طويلة.

كانت أمي مرتبكة من كل شيء باستثناء المسيح. فالفتاة اليهودية الشابة التي لم تسمح لنفسها بدخول كنيسة للأغيار لم تعد قادرة

على الاستغناء عنها. وكانت عاداتها اليهودية الأرثوذكسية قد تحولت منذ زمن طويل إلى مسيحية تامة. كان المسيح أمل أمي وخلاصها، وهو الذي دفعها إلى الأمام. كانت تقوم في ساعة مبكرة كل يوم أحد، مهما كانت مرهقة أو مكتئبة أو مفلسة، وتلبس أفضل ملابس لديها وتتجه إلى الكنيسة. عندما كبرنا، نحن أولادها، حيث لم تعد قادرة على إجبارنا على حضور الكنيسة، كانت تذهب وحدها، وتركب القطار من كوينز إلى بروكلين، إلى كنيسة براون التذكارية الجديدة التي كانت قد أسستها مع أبي. كانت الكنيسة تنعشها وتشحنها، وكانت تعود متجددة إلى حد ما، حتى أعلنت بعد الظهر في أحد أيام السبت أنها سوف تقود سيارة زوجها.

جلست وراء عجلة القيادة تنقر عليها بيدها بعصبية وتتمتم، فيما ثبتُّ في المقعد الأمامي وأمسكت بـ (Z) بينَ ذراعي. لم نهتم بأحزمة المقاعد. وضعت المفتاح في مكان التشغيل. زمجر المحرك لدى تشغيله، وسألتني، «ماذا أفعل الآن؟».

وأجبت، «شغلي مسنن الحركة».

وقالت، «إني أعرف ذلك»، وشغلت مسنن الحركة بعنف وانطلقت في سحابة من المطاط المحترق والدخان، تنحرف وهي تمشي في الشارع وتصرخ بهستيرية، «ووو!».

وقلت، «خففي سرعتك، يا أمي!».

تجاهلتني، وصرخت، «ليست لدي رخصة! وإذا أوقفوني سأدخل السجن!» فيما انحرفت السيارة من جانب إلى آخر. مرت بحوالي أربع مجموعات من المباني وتجاوزت إشارة مرور حمراء دون توقف، ثم دارت إلى اليسار عند المفرق اللاحق في دائرة واسعة مقوسة، وداست فجأة على دواسة البنزين، وجعلت السيارة الكبيرة تترنح

على الجانب الخطأ من الشارع، فيما انحرفت السيارات القادمة من الاتجاه المعاكس من أجل تجنبنا. صرخت، «انتبهي! ماذا تفعلين؟ أوقفي السيارة!».

وردت علي بصرخة، «يجب أن أذهب إلى محل أي اند بي ! هذا ماأقود من أجله، أليس كذلك؟» ومرت السيارة ببضع مجموعات من المباني برجات عنيفة ولم يوجد رجال شرطة في أي مكان، ووصلنا بمعجزة إلى محل أي اند بي. وقفت بجانب سيارة مصفوفة لأنها لم تعرف كيف تصف بموازاة الرصيف وداست على الفرامل بقوة، ثم داست على فرملة الوقوف بقدمها، ونزلت تاركة المحرك دائرا، وقالت، «انتظر هنا». فمسكت (Z) بين ذراعي، فيما ركضت أمي إلى داخل المحل. بعد عودتها أفلتت فرملة الوقوف، وأشغلت مسنن الحركة وانطلقت دون أن تنظر إلى الوراء. وفجأة داست على دواسة الفرامل بكل قوتها دون أي سبب واضح - ربما لأنها ارتبكت بين دواسة البنزين ودواسة الفرامل - فتصلبت الفرامل وألقي بي باتجاه الزجاج الأمامي و(Z) الصغيرة بين ذراعي، واندفع رأس الطفلة نحو لوحة أجهزة القياس بحركة مفاجئة ونجا بالكاد من الاصطدام بها، ولو حدث لأصابه بجرح خطير. وقفت السيارة هناك ومحركها يهمهم بصوت منخفض، فيما لهثت أمي لاستعادة أنفاسها، ثم قالت، «هذا يكفي، سوف أكف عن القيادة» . قادت السيارة إلى المنزل ببطء وأوقفتها، وابتعدت عنها وكأنها لم ترها أبدا. ولم تركب فيها مرة أخرى بعد ذلك، وظلت السيارة هناك لمدة أشهر، تتجمع أوراق الأشجار حول عجلاتها مرة أخرى ويتراكم الثلج على مقدمتها، حتى باعتها في النهاية، وقالت، «لن أتعلم أبدا كيف أقودها».

والمفارقة هي أن أمي كانت تعرف قيادة السيارات قبل أن تبلغ الثامنة عشرة، فكانت تقود سيارة أبيها من طراز فورد لعام ١٩٣٦ في سافوك بولاية فرجينيا. لم تكن تقودها فحسب، بل تقودها

قيادة جيدة حيث تجر وراءها قاطرة معبأة بتموين بالجملة لبقالة عائلتها. كانت تقود السيارة مع القاطرة على طرق معبدة ومتربة بين نورفوك وسافوك وبورتسماوث وفرجينيا بيتش وكارولاينا الشمالية، وتستطيع إرجاع القاطرة المحملة بالبضائع، وإنزال الحمولة منها عند البقالة، وإرجاع السيارة إلى الفناء، وفصل القاطرة عنها وإرجاع السيارة إلى المرآب وإيقافها هناك. غير أنها قد تركت ماضيها وراءها، حيث لم تعد تعرف كيف تقود سيارة. لقد استطاعت راحيل دبوراه شلسكي أن تقود سيارة وتجر قاطرة وراءها، ولكن روث ماكبرايد جوردان لم تلمس عجلة القيادة أبدا قبل ذلك اليوم في العام ١٩٧٣، ولا شك في ذلك.

(١٧)

ضالة في هارلم

عندما جئت إلى نيويورك بعد المدرسة الثانوية، عملت في معمل خالتي ماري للجلود ونزلت عند بوبه التي كانت قد انتقلت إلى منطقة برونكس. لم يكن وضعا جيدا حيث إنني لم أعد طفلة، وقد تخلت أخوات أمي عني. سمحت لي خالتي ماري بالعمل في معملها، ولكنها لم تعطني أي فرصة على الإطلاق. كانت قد أصبحت بدينة ولكن وجهها ظلّ جميلا جدا، وكانت تحكم من حولها بقبضة حديدية، بما في ذلك زوجها إسحق، الزوج الذليل الذي يعمل إسكافيا في معمل هـ. بندل الممتاز للأحذية عند مفرق الشارع الثالث والخمسين والجادة الخامسة. كانوا يصنعون الأحذية لبعض أغنى النساء في نيويورك، وممثلات الأفلام من أمثال جانت غينور وميرنا لوي. كنت أعتقد أنه يعمل في أجمل وظيفة في العالم، حيث يلتقي بممثلات الأفلام، ولكني كنت أخاف منه. كان في طريقه إلى الصلع وله اختلاجة عصبية في وجهه ويشرب كثيرا فور دخوله إلى المنزل. كان دائما يخفي زجاجة من الخمر في خزانة المطبخ ويشرب منها جرعات كبيرة ويستند إلى المنضدة يتنفس تنفسا ثقيلا، ثم يحمر وجهه ويصبح بذيئا ولئيما.

في غضون ذلك كانت زوجته، خالتي ماري، تقيم علاقتها الخاصة مع رجل اسمه السيد شتاين، وهو زوج أعز صديقة لها. يا لها من فضيحة. كان ذلك الرجل جميلا، طويلا ووسيما. كان يأتي إلى مكتبها في المعمل مرتين في الأسبوع، ويغلقان الباب ويتعانقان ويتناولان النبيذ والجبن والبسكوت. إني أعرف ذلك لأن خالتي ماري كانت ترسلني إلى المستودع لإحضار مرطباتهما، وتقول بجفاء: «يا راحيل، أحضري لي بعض النبيذ والجبن والبسكوت!» ويظهر السيد شتاين فعلا بعد قليل، ويتسلل إلى مكتبها ليتمكنا من إغلاق الباب والتعانق. تخرج خالتي ماري بعد ساعة أو ساعتين وشعرها أشعث ومستحضرات تجميلها

متسخة وقد احمر وجهها. وطبعا كنت أتظاهر بأني لم أر شيئا من كل ذلك. كنت سعيدة بأن لي وظيفة.

بعد وصولي إلى هناك بقليل، حوالي عام ١٩٣٩، وظفت خالتي رجلا جديدا كان قد وصل لتوه إلى نيويورك قادما من كارولاينا الشمالية اسمه اندرو ماكبرايد. كان يسمي نفسه باسمه الثاني، دينس. كان ذلك هو أبوك. كان رجلا بكل معنى الكلمة. وأعني بذلك أنه كان فضوليا وفكاهيا ولطيفا وأمينا. كان دينس حرفيا بارعا في الجلود، وسرعان ما أصبح أحسن عامل لدى خالتي ماري. كانت خالتي ماري تحب أن تعطي أوامر إلى كل عمالها، وأمرت دينس ذات يوم بحمل لفة هائلة من الجلد ونقلها إلى مانهاتن بواسطة مترو الأنفاق. كان وزن اللفة يقارب مائة رطل، فرفض دينس قائلا: «أنا متأسف، ولكنه مستحيل أن يحمل شخص واحد كل هذا وحده». كانت إحدى المرات الأولى التي رأيت فيها رجلا، أي رجل، يتصدى لخالتي ماري، وتراجعت.

كان دينس يرى أن خالتي ماري تعاملني معاملة قاسية، كما لاحظ لقاءاتها الغرامية مع السيد شتاين، ولم يقل أي شيء أبدا عن تصرفاتها مع السيد شتاين، ولكنه كان دائما يتكلم معي كلاما لطيفا، أو ينكت، فكان لديه حس مرهف للفكاهة وبإمكانه أن يجعل كلبا يضحك. كان يحضر لي فنجان قهوة أحيانا، أو يعامل الناس معاملة لطيفة، ليس بالنسبة لي فحسب، بل لأي شخص كان، لأنه كان شخصا من هذا النوع. كان ألطف رجل عرفته حتى يومنا هذا، ولو كنت عاقلة لتزوجته على الفور، ولكني كنت شابة أحاول الابتعاد عن أسرتي، وإضافة إلى ذلك فقد اكتشفت هارلم.

لا أعرف لماذا اجتذبني إلى هناك، ربما لأني عشت بين السود في الجزء الأكبر من عمري، أو لأني سمعت الكثير عنها. في تلك الأيام لم يذهب أحد من مدينة نيويورك إلى القرية(*) للتسلية، بل كانت هارلم

* قرية غرينج، أو نمرينج فيلج، هي حي مشهور في نيويورك

المكان لذلك، وكان البيض والسود يأتون إلى هارلم للحفلات. لم تكن هناك مخدرات خطيرة ولا جرائم كما توجد الآن، بل كان الوضع مختلفا. كان الناس يتدفقون على هارلم بجموع غفيرة، من الجنوب، ومن شيكاغو، ومن كل مكان، وكانت هارلم مثل السحر.

كنت آخذ القطار رقم ٢ في مترو الأنفاق من معمل خالتي ماري وأنزل منه عند الشارع المائة والخامس والعشرين، وتبدأ المغامرة. كانت هناك مسارح من الجادة الثامنة حتى جادة لينوكس، وتحتوي مجموعة واحدة من المباني في هارلم على سينمات أكثر من كل سافوك، وهي سينمات ليو، والحمراء، وريالتو، ثم أعبر إلى الجادة السابعة حيث توجد مجموعة من المسارح الصغيرة، وطبعا يوجد مسرح أبولو على الشارع المائة والخامس والعشرين. كنت أحضر مسرح أبولو وأبقى طول فترة العصر. كانت هناك أربع مسرحيات، ومن يدخل في الساعة الحادية عشرة قبل الظهر يستطيع أن يرى ثلاثا منها، إضافة إلى الأفلام. سئمت من معاملة خالتي ماري السيئة، فتركت معملها وبدأت أبحث عن عمل كمرشدة أو بائعة تذاكر في سينما في هارلم. كنت أحب الأفلام والمسارح دائما، وبالتالي ذهبت إلى سينما في الجادة السابعة بعد ظهر أحد الأيام وسألت عن المدير الذي خرج إلي، وسأل، «ماذا تعملين في هارلم؟»

فأجبت، «إني أبحث عن وظيفة».

وسألني، «ما هو نوع الوظيفة التي تريدينها؟».

«بائعة تذاكر»

ثم سألني، «وماذا تبحثين عنه غير ذلك؟».

وقلت له، «إني لا أبحث عن أي شيء آخر. إني أريد وظيفة كبائعة تذاكر، أو كمرشدة. هل لديك عمل لمرشدة؟» فغضب، وقال، «إننا لانعمل

مثل هذه الأشياء هنا، وعليك أن تذهبي إلى مكان آخر لتفعلي ذلك».
لم أدرك ما يقصده، فكان هذا الرجل يعتقد بأني عاهرة، وكدت أن أصبح هكذا. ذهبت إلى عدد من الأماكن الأخرى بنتائج مماثلة، ولم يوظفني أحد. لماذا تتسكع فتاة بيضاء في هارلم غير أنها تفكر في عمل رديء، بينما يوجد عمل كثير في وسط المدينة؟ إنه مستحيل! كنت ساذجة للغاية حيث واصلت التجول ولم أدرك أني متجهة نحو المتاعب التي وجدتها بعد ذلك بقليل.

لم يحالفني الحظ مع السينمات، فقررت أن أجرب صالونات التجميل. كان تاته قد أجبرني على الالتحاق بدورة في التجميل في سافوك عند صاحبة صالون تجميل في وسط البلدة. كانت توظف عاملة تجميل واحدة وهي فتاة شقراء تضع دهانا برتقالي اللون على شفتيها، وتسكن في الريف، وتأتي إلى سافوك كل يوم للعمل. علمتني هذه الفتاة تجميل الأظافر واليدين إضافة إلى الشعر: تجعيد الشعر وتثبيته بالأصابع، غسل الشعر والتجعيدة الدائمة. ولكن ذلك كان لشعر البيضاوات. على كل حال، قلت إن الشعر هو الشعر، وذهبت إلى محل صغير عند الشارع المائة والخامس والثلاثين والجادة السابعة، وقلت إني أستطيع أن أعمل التجعيدة الدائمة، فوظفتني امرأة وأعطتني كرسيا. غير أني لم أعرف شيئا عن تجعيد شعر السوداوات، وكانت زبونتي الأولى امرأة سوداء، فأتلفت شعرها، وكان منظره كمنظر اللحم المفروم بعدما انتهيت. وكررت لها، «ستكونين جاهرة مثل الراديو، جاهزة مثل الراديو». كان ذلك تعبيرا شائعا آنذاك، «جاهز مثل الراديو». وقلت لها ذلك فيما قمت بتجعيد شعرها، لأنه يتعين على مزينة الشعر الثرثرة مع الزبونات لطمأنتهن والتظاهر بأن كل شيء على ما يرام. على كل حال، لم أبق هناك يوما كاملا قبل أن يفصلوني.

ترددت وترددت، ثم أقنعت نفسي في النهاية بأني أستطيع تجميل أظافر اليدين بشكل جيد، وكنت قد رأيت صالونات تجميل ومحلات

حلاقة كثيرة فيها لافتات كتب عليها، «مطلوب عاملة لتجميل الأظافر». كانت معظمها محلات لحلاقة الرجال، ولكن ذلك لم يقلقني لأني سمعت أن عمل تجميل الأظافر في محلات الحلاقين سهل وأن الإكراميات جيدة. مشيت جيئة وذهابا في الجادة السابعة ووصلت في النهاية إلى محل اسمه حلاق هاي هات، توجد لافتة في نافذته كتب عليها «مطلوب عاملة لتجميل الأظافر»، فدخلت وسألت عن الوظيفة.

كان المدير، روكي، رجلا ثقيلا وأنيقا ذا بشرة فاتحة وصوت منخفض الطبقة. كان في الخمسينات من العمر. وظفني على الفور ووضع طاولة تجميل الأظافر في واجهة المحل، ووضعني هناك لأعمل عند النافذة. عدت إلى المنزل في تلك الليلة وقلت لجدتي إني قد وجدت وظيفة أكسب منها خمسة عشر دولارا في الأسبوع، وسألتني بوبه، «ما هو نوع العمل؟».

فأجبتها، «إنه عمل جيد». ولكني لم أخبرها ما هو نوع العمل، ولاأين هو. كان فنانون وعازفون كثيرون يمرون من هناك، وكثيرا ماسمعتهم يقولون للمدير: «يا روكي، إنك تخاطر بتوظيف هذه الفتاة البيضاء هنا لأنها دون السن القانونية». إلا أنه لم يكترث لهم . كنت في التاسعة عشرة وكان ذلك يكفيه. بدأ يتسكع عند طاولة عملي طول الوقت ودعاني إلى الغداء يوما من الأيام، وقبلت دعوته. كانت له سيارة جميلة مصفوفة أمام المحل، وكان ميسور الحال، فخرجت معه.

لم أعلق أهمية على ذلك ولم أدرك أنه يخطط لي شيئا آخر. أخذ يخرجني معه أكثر فأكثر، إلى مسرح أبولو وإلى السينما، ثم يعيدني في سيارته إلى منطقة برونكس. كانت لديه سيارة جميلة وأموال، وبالتالي لم أر مانعا، وقد أثر كل ذلك علي. كان يأخذني إلى نواد كان الناس فيها يعرفونه معرفة جيدة، ويأخذني أحيانا إلى سمولز باراديس الذي يتردد عليه العازفون والفنانون والقوادون والعاهرات، وكان يعرفهم جميعا على ما يبدو. قلت له إني أردت دائما

أن أكون راقصة، وأنني أحاول الدخول في فرقة روكيتس عند راديو سيتي. فقال لي: «سوف أرتب ذلك». غير أني خفت ولم أحضر فحص القدرات. كنت فتاة ساذجة من بلدة صغيرة، ولكني لم أكن ساذجة لدرجة تجعلني أذهب إلى هناك لأجعل من نفسي أضحوكة. ماذا لو رقصت كل الفتيات الأخريات أحسن مني؟ لم أرغب في ذلك أبدا.

استأجر روكي غرفة لي في الشارع المائة والثاني والعشرين بالقرب من الجادة السابعة، لكي لا أضطر إلى قطع المسافة الطويلة إلى بيت جدتي في برونكس، وأخذني مشوارا في سيارته على طول الجادة السابعة ذهابا وإيابا في الشارع المائة والخامس والعشرين، حيث كانت هناك فتيات يقفن في الشارع. قال لي: «سأعلمك عن هؤلاء الفتيات قريبا». وأدركت ماذا يحدث عندئذ، ولكني لم أقل شيئا، ولم يكن لدي أي اعتراض في أول الأمر.

كنت أنزل في الغرفة الصغيرة التي استأجرها لي لبضعة أيام، ثم أعود إلى بيت بوبه، ثم أعود إلى غرفتي الصغيرة مرة أخرى. أصبحت بوبه تشك كثيرا الآن، ولكنها كانت كبيرة السن ومصابة بالسكري، وتنام كثيرا، وأقنعتها بالطريقة التي يقنعني بها أحفادي الآن. لم أخبرها بشيء، وبعد فترة لم أتمكن من الاستمرار في رؤية جدتي ومواصلة ما كنت أعمله، التسكع في هارلم. اضطررت إلى الانقطاع عنها وعدم العودة إلى منزلها، لأن بوبه كانت تذكرني كثيرا بهويتي وبأصلي. اضطررت إلى الانتقال إلى هارلم انتقالا تاما لكسب مايكفي من الأموال للبقاء هناك وارتداء الفساتين والملابس الجميلة. سألت روكي ذات يوم، «متى أستطيع أن أكسب الأموال مثل فتياتك الأخريات؟». وكنت أعرف ما أقوله، ولم أكن عمياء، ولكن ماذا يعنيني الحب؟ وماذا عرفته عن الحب؟ والجنس؟ كنت أريد إقامة علاقات جنسية، ولكن روكي أجابني، «لست جاهزة للخروج هناك حتى الآن، وسأخبرك عندما تكونين جاهزة».

على أي حال، كنت أضيع الوقت ذات ليلة في سمولز باراديس أو أحد النوادي مع روكي، ولم أكن قد عدت إلى بيت بوبه منذ أسبوعين، وبدأت أفكر في أمي ودي دي لسبب ما. خفت أن أتصل بالمنزل بسبب تاته، ولكني أعرف أن دينس يعمل عند خالتي ماري، وتمكنت من العثور عليه في مكان إقامته في هارلم، وسألته إذا كان يستطيع الاستفسار عن حالة أمي وأختي، لأنه معمل صغير وبإمكانه أن يسمع خالتي تتكلم عن الأمور. فقال لي، «إنهما تبحثان عنك، يا روث. كيف الأمور معك؟» فأخبرته بكل شيء عن شقتي الجديدة، وصديقي الجديد روكي، وأنه لطيف، وظهر تعبير على وجه دينس جعلني أصمت.

كنت أعيش بترف وأحاول دفن الماضي والابتعاد عن أبي، ولكني شعرت بالعار عندما بدأت أخبر دينس بما أفعله، لأن تعبير وجهه كان في منتهى البلاغة.

قال لي، «يا روث، لم يفعل والداك بك سوءا يبرر تعاملك مع هذا الرجل. إن هذا الرجل قواد. إنه قواد، وهو يخضعك لإرادته». وجلس هناك وبدا عليه السخط. لم يكن غاضبا، إنما بدت عليه خيبة الأمل. شعرت بخجل شديد عندئذ، وقمت وقلت، «لم تعودا بحاجة إلى البحث عني، فسوف أعود إلى المنزل».

واستجمعت أفكاري وعدت مباشرة إلى بيت بوبه في برونكس. كانت قلقة علي وعندما سألتني عن المكان الذي كنت فيه لم أجبها إجابات مباشرة. طلبت منها عدم الاستجابة لأي مكالمات هاتفية وعدم الإفشاء بأي معلومات عني. اتصل روكي وأرسل زهورا، ولكني لم أتصل به أبدا. كان لجوجا، وجاء ذات مرة إلى شقة بوبه وقرع الباب ووقف في الردهة يقول، «اخرجي، يا روث. أعرف أنك في المنزل. اخرجي». ولكني وقفت خلف الباب ولم أفتحه ولا ألفظ بكلمة. وظل يرسل زهورا ويحاول استعادة سيطرته علي، ولكنه أقلع عن الاتصال بعد فترة ولم أره مرة أخرى أبدا.

(١٨)

ضال في دلاوير

دخلت أمي مطبخ بيتنا في منطقة كوينز في يونيو عام ١٩٧٤، وقالت، «سوف ننتقل إلى دلاوير. أحزموا الأمتعة». كان لها خمسة أطفال في البيت وسبعة في الكليات، بعضهم في الجامعة والبعض الآخر في كلية طبية، وجميعهم بمنح أو قروض، وكانوا يعانون من ضيق مالي وبالتالي لا يستطيعون مساعدتها ماليا. وكان منزلنا قد أصبح في حالة متردية ولم تعد أمي قادرة على صيانته.

حزمنا الأمتعة في البيت لمدة أسابيع وكنت على استعداد للانتقال. لو بقينا في نيويورك لكان من شبه المؤكد أنني سأضطر إلى إكمال سنة أخرى في المدرسة الثانوية لأتمكن من التخرج، وإضافة إلى ذلك، كثيرا ما كنت أصادف أصدقائي القدامى الذين يقعون في مشاكل أكثر فأكثر، وكنت بحاجة إلى رؤية وجوه جديدة، وإلى بداية جديدة. غير أن أخواتي الصغيرات كن يحببن العيش في نيويورك ولم يواجهن أيا من المشاكل التي أواجهها أنا، ولم يرغبن في المغادرة، فجادلن، «لماذا الانتقال؟ نحن سعداء هنا». طلبن اجتماعا عائليا، وجلست أمي لمناقشة الأمر، استمعت إلى حججهن، زمت شفتيها، وأومأت برأسها، وقالت، «إذا كان هذا شعوركن، سنبقى». وقامت وأعلنت بخفة، «لن ننتقل»، وخرجت من الغرفة، وكأنها أخرجت قنبلة يدوية وسحبت مفتاح الأمان ورمتها على الأرض ثم خرجت. نظرنا أنا وإخوتي بعضنا إلى بعض بارتياع، وبحلول ذلك الوقت كان البيت قد عرض في السوق وتتخذ الإجراءات لبيعه، وكان هناك مشتر، وتم التوقيع على عقود، كما تم إبلاغ المعلمين والقيام ببعض الاستعدادات، ناقشنا الموضوع لساعات طويلة، وقلت، «يجب علينا الانتقال».

وجادلت أخواتي، «انس الموضوع».

وأصر أحد إخوتي الكبار، «نحن مضطرون إلى الانتقال». شعروا بأن أمي لم تعد لديها الإمكانية المادية للإقامة في نيويورك لأكثر من ذلك.

وطلبنا من أمي العودة إلى المناقشة، فقالت، «دعوني أفكر في الأمر مرة أخرى»، وجلست على الأريكة وغلب عليها النوم على الفور، تشخّر ونحن نجادل، لا أعرف إلا أمي التي تستطيع الاستغراق في نوم عميق مع الشخير لمدة دقيقتين، لتستيقظ على الفور من جراء أصوات معينة. لم يؤثر عليها إعصار، ولكن صوت رضيع يبكي أو قدر يسقط يجعلها تهب وتقف كجندي عند بوق الإيقاظ. عندما استيقظت، انصرفت دون أن تقول شيئا. ومرت الأيام، وفي النهاية أعلنت «سوف نبقى». هتفت البنات، وبدأنا نفرغ الحقائب، وفي اليوم التالي قالت بصوت جاف، «سوف ننتقل»، هتف الأولاد وحزمنا أمتعتنا مرة أخرى، وترددت أمي على هذا النحو لمدة أسابيع، فيما قلق السمسار العقاري لأنه لم يعرف ما إذا كان سيحصل على عمولته أم لا. واستمرت المناقشة بالفعل حتى صباح اليوم في اغسطس الذي استأجرنا فيه شاحنة وحمّلناها كل ما نملكه في الدنيا ـــ وركب بعضنا مع الأثاث في الجزء الخلفي من الشاحنة ـــ واتجهنا إلى ولمنغتون في ولاية دلاوير. وسألنا أمي، لماذا ولمنغتون؟

فأجابت، «لماذا لا؟ إنها رخيصة». وكانت قد اشترت بيتا صغيرا في المدينة بأقل من اثني عشر ألف دولار، وهذا ما كان بإمكانها دفعه.

لم نعرف شيئا عن دلاوير، إلا أن إحدى صديقات أمي القديمات من هارلم كانت تسكن هناك، وقالت، «ستكونون بخير في دلاوير»، ولكننا ضعنا منذ اللحظة التي أوقفنا فيها الشاحنة أمام منزلنا الجديد.

كنا نعتقد بأننا نستطيع أن نفعل في ولمنغتون كما كنا نفعل في نيويورك، نركب مترو الأنفاق والحافلات ونعتمد على وسائل النقل العامة وجو المدينة، ولكن لم يكن هناك مترو أنفاق في ولمنغتون، والمعدمون جدا

هم فقط الذين يركبون الحافلات التي تتوقف خدماتها حوالي الساعة التاسعة مساء. في نيويورك كانت أمي تستطيع الاستفادة من كل دولار إلى أقصى حد، فتقود جيشها إلى أرض الميعاد في متاجر ميسي وغيمبل واورباخ، وتضمن لهم تسلية مجانية في المتاحف والاستعراضات وحفلات الجيران والحفلات الموسيقية العامة. أما ولمنغتون فقد كانت أرض مجمعات للتسوق في الضواحي، وفرق موسيقية من مدارس ثانوية تسير على النحو العسكري، وملكات جمال شقراوات، وكثرة القيل والقال في البلدات الصغيرة، ووسط المدينة الذي يهرب منه البيض بأقصى سرعة ممكنة بسياراتهم من طراز فورد بينتو. صدمنا الانقسام العرقي في المدينة والريف المجاور، حيث كان معظم الأطفال السود يذهبون إلى مدارس تعاني من نقص في المعلمين والأموال في وسط المدينة، فيما يذهب البيض إلى مدارس نظيفة في الضواحي تتمتع بمرافق رائعة. وفاجأت مدارس الفصل العنصري أمي مفاجأة تامة، لأنه لم تكن قد فكرت في تلك المشكلة، وأعاد جو المدينة الجنوبي ذكريات سيئة لأمي التي تكره الجنوب، وكنا نعتبر كل ما يقع إلى الجنوب من شارع القناة في مانهاتن «الجنوب».

وبعد وصولنا ببعضة أشهر أوقفت مجموعة من رجال شرطة ولاية دلاوير مجموعة منا في طريق عامة معتمة ذات ليلة، بعد أن قام أخي الكبير ديفيد بلف السيارة التي يقودها على نحو مخالف للقانون. كان رجال الشرطة طوالا ومتعجرفين وسيئي الخلق. أحاطوا بالسيارة المحملة بأولاد سود وأمهم البيضاء ووجهوا مشاعلهم الكهربائية في كل اتجاه، وأجبروا ديفيد - الذي كان طالب دكتوراه في جامعة كولومبيا آنذاك - على الوقوف خارج السيارة في البرد دون معطفه فيما استجوبوه بشكل جارح، ثم جروه إلى المحكمة الليلية، وتبعناه نحن الآخرون خائفين وغاضبين.

واستشاطت أمي غضبا لأن ابنها المثقف الخجول ديفيد، الذي تفتخر به دائما لدرجة تجعلها مستعدة على حمل كتبه إلى الكلية لو

طلب منها ذلك، يحال أمام قاض طلب منه الإعلان عما إذا كان «مذنبا» بارتكاب مخالفة مرور أم لا. صاحت أمي على الفور، «لا تقل إنك مذنب! سيسجنونك!».

وحاول ديفيد تهدئتها، والقاضي ينظر إليهما، وقال ديفيد، «من فضلك، يا أمي».

وصاحت أمي، «لا، لا، لست مذنبا على الإطلاق!».

وعندما أستعيد الماضي، فقد كانت هذه الحادثة مجرد توقيف ومخالفة وزيارة للمحكمة الليلية، وأثناء تغطيتي الشرطة لاحقا بصفتي مراسلا لصحيفة ولمنغتون نيوز جورنال، شاهدت جانبا أفضل بكثير من جوانب شرطة ولاية دلاوير، ولكن أمي لم تكن لديها هذه المعلومات، ومن تلك اللحظة فصاعدا كرهت دلاوير، وقالت، «سوف نعود فعلا إلى نيويورك الآن، وسنتصل من العقد».

استقلت أخواتي القطار المتجه إلى الشمال في ولمنغتون وهن يحملن ممتلكاتهن في أكياس التسوق وتم وضع خطط طارئة وتحديد مواعيد وقطع وعود، «اتبعونا مع الشاحنة.. سوف نسجل أسماءنا في المدرسة.. تكلمي مع المديرة بالنيابة عني، طيب؟... سنراكم في نيويورك». وغادرن.

بعد ذلك بساعتين أقنعت أمي بتغيير رأيها، وسألتها، «ماذا يوجد لنا في نيويورك؟ لا يوجد لنا شيء هناك، وليست لديك إمكانيات مالية للاحتفاظ بذلك البيت». وأقرت بذلك وهي آسفة. اتصلت بالبنات من المدينة وطلبت منهن العودة إلى المنزل.

لم تتصرف على هذا النحو المتقلب المجنون إلا لأنها تسعى إلى البقاء على قيد الحياة، وكانت الحركة أسلوبها الدائم كلما ضاقت بها الأمور. كانت أرملة في الرابعة والخمسين تعيش على معاش تقاعد بسيط وضمان اجتماعي، ولا يزال لها خمسة أطفال يجب تعليمهم،

ولم تكن وحدها في الماضي أبدا من حيث الانتقال، والاستفسار عن الأحياء للسكن، وشراء البيوت، وقيادة السيارات، وهي أشياء كثيرة عليها القيام بها بمفردها، كانت وظيفتها طوال فترتي زواجها ـ الأولى لستة عشر عاما والثانية لأربعة عشر عاما ـ مراعاة أطفالها، ولكنه يجب عليها الآن إدارة عائلة، وتعلمت ذلك متأخرا. كما أنها كانت منهكة عاطفيا وشعرت بذنب كبير لأنها نقلتنا إلى خارج نيويورك، وكثيرا ما كانت تجلس عند طاولة المطبخ في المساء وتطيل التفكير، وتسأل، «ماذا فعلت؟ ما الذي كنت أفكر فيه؟» وتسرح وهي تمسك فنجان قهوة بارد لم تشرب منه شيئا.

قومتها الصلاة، وأجبرها نظام المدارس العامة على التحرك، فعندما رأت الكتب الممزقة التي كنا نعود بها من المدرسة إلى المنزل، انتفضت كما فعلت في السابق، وقالت، «لن تكونوا شيئا بتعليم من هذا النوع»، اشترت سيارة تويوتا قديمة مستعملة بتسعمائة دولار، وأخذت دورة لقيادة السيارات، ونالت رخصة خلال أسبوعين، على الرغم من كون معلم القيادة رجلا بذيئا قالت إنه حاول استهواءها، ثم فتحت دليل الهاتف وفحصت قائمة المدارس الخاصة والكاثوليكية، واتصلت بها لتكتشف أيا منها تقدم منحا، وأخذتني في السيارة إلى واحدة منها. قابلنا مديرها لمدة أربع ساعات، وفحصني في الكتابة والجغرافيا، ثم في الرياضيات التي أربكتني. لو لم يفتني الكثير من الدراسة خلال العامين المنصرمين، لكان بإمكاني النجاح في هذه الفحوص، ولكني قد تجاوزت بالكاد الصف الحادي عشر، وكان من حسن حظي أن أكون في السنة الأخيرة من التعليم الثانوي. لم يتعاطف الرجل معي، وقال إنني ربما لا أستطيع التكيف لأني سأدخل مدرسته في صف متقدم، ورفضتني المدرسة.

دخلت مدرسة بيير دو بونت الثانوية العامة للسود مع اختاي كاثي وجودي، وأعجبتني، وكان الأولاد يسمونني «نيو يورك» كما فعل الناس

في لويسفيل، ولكني تجنبت مجموعة المتسكعين الآن وركزت على السكسفون الصادح والترومبون الذي كنت قد بدأت أعزفه بهدف العزف في الفرقة الموسيقية للمسيرات. لقد أفادني هذا التغيير، وأقلعت عن حشيشة الكيف والخمر لأتدرب على الموسيقى بمساعدة معلم الموسيقى الرائع في المدرسة، وهو رجل أسود اسمه سي لولر روجرز، وكانت الدراسة في دلاوير بوجه عام أسهل من الدراسة في نيو يورك بعشرة أضعاف، وتم اختياري للسفر إلى أوروبا مع فريق الشباب الأمريكي للجاز، ونظم ذلك معلم موسيقى أبيض لطيف جدا من مقاطعة نيو كاسل اسمه هال شيف.

لم تكن رحلة فريق الشباب الأمريكي للجاز إلى أوروبا مجانا، بل طلب منا دفع ثمنها ، ولم أستطع ذلك، وقد دفع ديفيد وآن فوكس دوسون، وهما زوجان ثريان من تشادز فورد القريبة بولاية بنسيلفانيا ثمن رحلتي، ومنحا جزءا كبيرا من حياتهما ومواردهما لأطفال المدينة منذ سنوات طويلة، كان السيد دوسون رجلا طويلا بشعر منمق يكسوه الشيب وأنيقا، عمل كبيرا لنواب الرئيس في شركة دو بونت، وكان هو وزوجته أهم راعيين للفرقة الموسيقية، يقدمان منحا لعازفين فقراء. وفي مقابل ذلك، كان عليك العمل في مزرعتهما في نهاية الأسبوع وأثناء الصيف، وبالتالي انتقلت في غضون عام واحد من التحشيش عند زاوية طريق في لويسفيل إلى العمل كنادل في حفلات الأرستقراطيين الأغنياء في تشادز فورد، فمشطت شعري الأفريقي الطراز، وارتديت بدلة وربطة عنق على هيئة فراشة استعرتها من السيدة دوسون، وحملت صواني من المقبلات، أنا وبيرل المرأة السوداء التي تطبخ للسيدة دوسون وتقوم بأعمالها المنزلية منذ سنين، وكانت بيرل تقيم في ولمنغتون مثلي، وأخذتها جانبا يوما من الأيام وسألتها، «لماذا تعملين لهؤلاء البيض؟» فتطلعت إلي وكأنني مجنون، وكانت العلاقة بينها وبين السيدة دوسون وثيقة، فأجابتني، «أنت تعمل هنا أيضا، أليس كذلك؟» مما أسكتني. في حفلات دوسون كنت أقوم

بخدمة البيض بهدوء، وهم يضحكون ضحكات خافتة، من بينهم رئيس شركة دو بونت وحاكم ولاية دلاوير. ولم يشبهني هؤلاء الناس ولايشبهون أمي ولا أي شخص آخر من أفراد عائلتي، ولكني لم أشعر بأي غضب تجاههم، بل كان الطموح الشديد قد حل محل غضبي على العالم، لم أرغب أن أكون مثلهم، أقف احتسي النبيذ وأتظاهر بحسن الآداب وبالسعادة، مع انهم ليسوا سعداء ـ إنني أشبه أمي من هذه الناحية ـ ولكن هؤلاء الأشخاص لن يسيئوا إلي بشيء. وأدركت أن لديهم رغبة في مساعدة الفرقة الموسيقية، ومساعدتي بشكل غير مباشر، لأنني أتمنى من صميم قلبي أن أزور أوروبا. فكنت أقر بالجميل. توقعاتي منهم لم تزد عن ذلك.

كنت أخرق وأسوأ نادل رأته السيدة دوسون في حياتها، وأقر لها بالفضل أنها لم تطردني على الفور، فكنت أتلف معاطف الناس كلما جمعتها، وأسحق قبعاتهم، وأريق المشروبات، وأسقط المقبلات في كل مكان. وكانت السيدة دوسون تقول مرارا وتكرارا، «يا جيمز، احمل الصينية هكذا.. لا، هكذا.. والآن، ضعها هنا.. والآن رتب الربطة.. ضع المنشفة على ذراعك هكذا.. ارفع الصينية إلى أعلى، إلى أعلى.. آه، يا..» وتسقط الصينية بصوت عنيف. أحببت السيدة دوسون، مع أنني كثيرا ما أغضبتها. كانت امرأة كثيرة المطالب، ظريفة، رشيقة، وهي أول امرأة بيضاء أجريت معها حوارا طويلا عن الموسيقى والأدب استمتعت به كثيرا، وعرفتني على مؤلفي موسيقى كلاسيكيين وأدباء لم أسمع بهم أبدا، وحاولت تصحيح ما اعتبرته كلامي وسلوكي الرديئين، الأمر الذي لم يعجبني على الإطلاق، وكثيرا ما أجلستني معها لتقرأ الشعر الذي أصبحت كلماته تطرأ فجأة على ذاكرتي من مكان مجهول في السنين اللاحقة وكأن أحدا زرعها هناك، وهذا مافعلته في الواقع.

لم يكن ترتيب حفلاتها مهمتي الوحيدة. لم أكن زنجيا منزليا

بشكل كامل. كان معظم عملي في الحقل، وكانت العزبة قطعة كبيرة من الأرض تبلغ عدة فدادين، تشمل شونة للخيل، وبستان كبير للخضراوات، وبركة يعتني بها وكيل أملاك أبيض شاب اسمه هاري. وكنا نقص العشب ونشذب الأشجار، وننظف الشونة، ونقود جرارة، وننشغل طوال النهار، وكان هاري شابا ريفيا ذكيا يحب صيد الأيل، وكان يحتفظ بكمية من الجعة، وبندقية صيد طويلة وراء مقعد شاحنته الصغيرة لهذا الغرض بالذات، أعجبني هاري، وكنت أجعله يضحك طوال النهار، وتعجب كيف تمكنت من التنصل من كل الأشغال القذرة التي كانت السيدة دوسون تطلبها مني.

قال لي بعد ظهر أحد الأيام، «يا جيمز، إنك كسول، وإذا لم تتمالك نفسك سوف تكتشفك السيدة دوسون»، لم انتبه له، ولكن توقعه تحقق بعد ذلك بقليل. وكان يجب علي الاستيقاظ الساعة الخامسة صباحا لأخذ الحافلة إلى بيت السيدة دوسون من ولمنغتون، وكثيرا ما كنت مرهقا لدى وصولي إلى هناك. وقد اكتشفني السيد دوسون بعد ظهر أحد الأيام الحارة وأنا نائم في حوض لزراعة الفراولة كان يجب علي إزالة الأعشاب الضارة عنها، وأخبر السيدة دوسون عن ذلك، فغضبت وفصلتني من العمل على الفور. وسألتها، «كيف تستطيعين فصلي؟ يجب علي الذهاب إلى أوروبا!».

فأجابت، «سوف أرسلك إلى أوروبا، ولكنك مفصول من هنا على كل حال. يجب عليك أن تتعلم الكد، يا ولد». وعندما قالت إنني سأذهب إلى أوروبا، عانقتها. انزعجت لأنها سمتني ولدا، ولكني لم أنزعج لأنها فصلتني، فقد عملت لي معروفا، وبقيت على اتصال بها لسنين طويلة، وساعدتني في الجامعة وعلى الدخول إلى كلية للخريجين أيضا. لم تدفع رسومي، ولكنها كانت تساعد إذا واجهت وضعا طارئا. وذهبت إلى صندوق بريدي ذات صباح بعد ذلك بعامين، عندما كنت في كلية اوبرلين، ووجدت رسالة منها تخبرني بأن زوجها

قد توفى فجأة من السرطان. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم كنت واقفا في الشارع مع مجموعة من الطلبة السود، وقال أحدهم، «انسوا هؤلاء البيض، إن جميعهم أغنياء وليست لديهم مشاكل». وقلت «نعم، انني سمعتك»، وفي جيبي الرسالة المطوية التي تتضمن كلمات جازعة من عجوز بيضاء كانت دائما تبذل جهودا لمساعدتي، ومساعدة الكثيرين من أمثالي. وندمت قليلا على أنني وقفت هناك وكذبت، وكان يبدو لي أحيانا أن الحقيقة هي روح متقوسة الساقين تسرع من جانب من العالم إلى جانب آخر، ولم أستطع أن أجدها أبدا.

وعرفت بحلول بداية سنتي الأخيرة في المدرسة الثانوية أنني أريد دخول الجامعة لأكون فنانا موسيقيا من نوع ما، ولم أتصور نفسي باقيا في منطقة ولمنغتون وعاملا في فرقة للموسيقى الخفيفة تعزف في أماكن ريفية شائنة، كما كنت أفعل في ذلك الوقت. كانت لدي رغبة في البقاء خارج الجامعة لدراسة السكسفون وتأليف موسيقى الجاز كما فعل القدامى الذين أحترمهم من أمثال بيرد وكولترين وكليفورد براون، ولكني خفت أنني لن أتمكن أبدا من الخروج من دلاوير. كانت أمي تريد أن أخرج من دلاوير أيضا، ولم أرها أبدا في وضع أسوأ من ذلك، وكأنها غير قادرة على التحرك. تعطلت سيارتها التويوتا القديمة في اليوم قبل عيد الشكر في العام ١٩٧٤، ولم يكن لديها ما يكفي من الأموال لتصليحها، مما يعني أننا اضطررنا إلى ركوب الحافلة إلى سوق مركزي بعيد لنجد ديكا روميا نستطيع شراءه. ووجدناه، ولكن كيس الورق الذي حملنا الديك الرومي المجمد فيه تمزق عندما ركبنا الحافلة للعودة إلى المنزل، وسقط من الكيس وتدحرج على طول الممر بين المقاعد حتى مقدمة الحافلة، حيث مسكه السائق وضحك هو والركاب. ولكن هذا الحدث بالنسبة إلى أمي مثَّل كل ما مرت به في دلاوير، أي ذلك الديك الرومي اللعين الذي تدحرج على طول الممر اللعين أمام كل هؤلاء الأشخاص الملعونين. لم يكن لها سوى القليل من الصديقات

هناك، فالسود اعتبروها خرقاء، والبيض أضجروها، ولكنه لم يكن لها أي منفذ سهل.

لقد كانت الجامعة منفذي. كانت بيكي، زوجة أخي الأكبر، قد درست في كلية أوبرلين في ولاية اوهايو، وأخبرتني بأنه يتعين عليّ التقدم بطلب إلى هناك لأن لديها مدرسة رائعة للفنون الأدبية، ومعهد للموسيقى، وأهم من كل ذلك، أموالا للمنح. كانت علاماتي في المدرسة الثانوية ضعيفة، ولكن قدراتي الموسيقية والأدبية قوية، وكانت لدي رسائل تزكية جيدة. دهشت عندما قبلتني الكلية، وكانت أمي في غاية السعادة عندما أبلغتها بالخبر، وعانقتني وابتسمت، ووضعت رسالة القبول في علبة الأحذية تحت سريرها وتباهت لكل من رأته في الأسواق المركزية وفي المكتبة، «سوف يدخل ابني أوبرلين. ألم تسمع بأوبرلين؟ إذن، اسمح لي أن أخبرك..». فكنت ثامن طفل على التوالي أدخلته إلى الجامعة، وتخرج جميع السبعة الذين سبقوني، وتقدم معظمهم لينالوا شهادات عليا.

حزمت كل ما أملكه في حقيبة خضراء قديمة من قماش خشن في يوم غائم وممطر في سبتمبر ١٩٧٥، وأخذتني أمي في السيارة إلى محطة حافلات غريهاوند. كانت مفلسة كالعادة، ووضعت أوراقا نقدية من فئة دولار واحد، ونقودا وسنتات عند نافذة التذاكر لتدفع تذكرة الذهاب إلى اوهايو. وعندما ركبت في الحافلة وضعت مجموعة من الأوراق النقدية والعملة في يدي، وقالت: «هذا كل ما أملكه» فعددتهم وكانوا أربعة عشر دولارا، وقلت لها: «شكرا، يا أمي»، وقبلتها وصعدت إلى الحافلة بسرعة لإخفاء دموعي، شعرت بأنني أتخلى عنها لأنها تكره دلاوير، وقد أقنعتها بالبقاء هناك، وها أنا أغادر، ولكنها أرادت أن أذهب. عندما جلست في الحافلة ونظرت إليها من خلال النافذة، خطر على بالي أنها كانت دائما تريد أن أذهب، منذ الصغر، فكانت دائما ترسلني في حافلة إلى مكان ما، إلى المدرسة

الابتدائية، وإلى المخيم، وإلى أقارب في كنتاكي، وإلى الجامعة. دفعتني عنها كما دفعت إخوتي الكبار عنها أثناء إقامتنا في نيو يورك، تدفعهم فعلا من الباب الأمامي عندما غادروا لحضور الجامعة. لم تقبل أبدا أن يتقدموا بطلب قبول إلى كليات قريبة من منزلنا، وكانت تقول، «إذا بقيت هنا سوف تضيع الوقت، فابتعد وتعلم أن تعيش وحدك». غير أنها كانت تمسح عينيها بظهر يدها وتراقب بصمت من خلال نافذة غرفة الطعام، فيما هم يبتسمون ويلوحون بأيديهم للوداع من الرصيف، ويجهدون أنفسهم لحمل حقيبة القماش الخشن الرخيصة نفسها التي توجد الآن في بطن حافلة غريهاوند حاوية أمتعتي.

وكانت تبكي دائما لدى مغادرتهم، ولكنها لم تبك أمامنا أبدا، بل كانت تنسحب إلى غرفتها لذلك الغرض. وكنت أخشى فعلا أنها ستبكي لدى صعودي إلى الحافلة، ولكني عندما نظرت إليها من خلال النافذة، فقد ارتحت لأنها لم تبك على الإطلاق، بل كانت تمشي وتزم شفتيها وتعبث وتلوي وجهها، تمشي جيئة وذهابا، يديها في جيبيها، فيما هبت الريح لتطير أوراق الأشجار وفناجين الورق المرمية حول قدميها. كانت ترتدي معطفا بنيا واقيا من المطر ولفاعا على رأسها، وهي امرأة بيضاء وحيدة تمشي جيئة وذهابا في شارع معتم أمام محطة الحافلات المتداعية في ولمنغتون بولاية دلاوير، تحت جسر عوارض يمر عليها قطار شركة امتراك بهدير، تحت سماء غائمة. كانت تبدو مضطربة ومتوترة الأعصاب، حيث أتذكر أنني تساءلت ما إذا كانت تحتاج إلى زيارة المرحاض. لم تلوح بيدها عندما هدر محرك الحافلة لدى تشغيله، بل حركت يدها بسرعة وكأنها تقول: «اذهب، اذهب!» وانصرفت على عجل، وانطلقت الحافلة، وكانت خارج الرؤية للحظة، ولكني رأيتها من النافذة عبر الممر بعد أن درنا حول الزاوية، ولم تعد تتمالك نفسها. كانت تستند إلى الجدار خلف جسر القطارات، رأسها محني، ويد واحدة تضغط على عينيها، وكأنه بإمكانها الضغط على الدموع السائلة منهما حتى النسيان.

(١٩)
الوعد

لقد انتهيت من حياة الملذات بعد مغامراتي مع روكي، ووجدت عملا في مطعم أقدم فيه الطعام للزبائن، وبعد أسبوعين زارني دينس مرة أخرى وبدأنا نخرج معا. كان رجلا جديا، مفكرا وذا مبادىء، يختلف عن روكي والرجال الآخرين الذين رأيتهم في هارلم والذين يترددون على سمولز بارادايس. كان دينس يعزف على الكمنجة، وقد جاء إلى نيو يورك من هاي بوينت بولاية كارولاينا الشمالية وهو في أواسط العشرينيات من عمره، ويعتبر ذلك عمرا متقدما لمعظم الناس لمغادرة المنزل في تلك الأيام، ولكنه كان الابن الوحيد، ولم ترد أمه ايتا أن يترك المنزل. كانت قد تعرضت لإسقاط بضع مرات، وكان دينس وحيدها، ولكنه ذهب إلى نيو يورك لأنه أراد متابعة الموسيقى، وكان يعزف الكمنجة ويقرأ الموسيقى ويكتبها، معظمها موسيقى كلاسيكية ودينية. جاء والدك من نفس مدينة جون كولترين وحضر المدرسة الثانوية نفسها، ولكنه كان متقدما عن كولترين في السن. اعتاد دينس أن يجلس مع أكوام من النوتات الموسيقية عندما تعرفت عليه لأول مرة، يكتب عليها وينمطها، وكان يعزف على الكمنجة عزفا جميلا، وكثيرا ما كنت أطلب منه عزف أغان مختلفة لي، وكان مغنيا جيدا أيضا، يغني مع جماعة المرتلين في كنيسة المدينة المعمدانية في هارلم.

كاد دينس يتضرع جوعا بسبب ضياع وقته على تلك الموسيقى، ولهذا السبب لم أرغب أبدا أن تضيع وقتك عليها عندما قررت أن تكسب لقمة العيش منها. لم يقبلوا أن يوظفوا رجلا أسود في الفرق الموسيقية الكلاسيكية أو أي شيء مثل ذلك في تلك الأيام، وحاول تدبير أموره، وكان ينام في نزل رخيص للفقراء. لم ينقذه سوى بعض أصدقائه الذين أتوا من مدينته نفسها، مدينة هاي بوينت، وهما

كورتس وميني وير. كان كورتس يعمل مشرفا على مبنى للشقق في مانهاتن، وكان هو وميني ميسوري الحال بالمقارنة مع معظم السود القادمين من الجنوب لأن لهما مسكنا دون أجرة. كان كورتس وميني يسكنان ويطعمان عائلات بكاملها كانت قد هاجرت إلى الشمال من هاي بوينت، ولكن كرامة دينس لم تسمح له باستنجادهما، ولم يخبرهما إلا عندما أصبح يتضرع جوعا وينام في نزل رخيص للفقراء، «ليس لدي أي أموال ولا مسكن لأذهب إليه». فغضبا منه وقالا، «كان يجب عليك أن تأتي إلينا قبل الآن»، كان أربعة أصدقاء آخرون وأخت من الجنوب محشورين جميعا في شقتهما، وكانوا يتناولون وجبات الطعام عند طاولة مستديرة ضخمة محملة بكل أنواع الطبخ الجنوبي ومأكولات محمصة ومشروبات باردة. وبعد أن نظم دينس حياته ووجد وظيفة في مصنع خالتي ماري للجلود، وبدأنا نخرج معا، أخذني إلى هناك، وقال، «أريد أن أعرفكم جميعا على صديقة لي»، واستغربوا استغرابا تاما عندما دخلت الغرفة.

كان ذلك في العام ١٩٤٠ تقريبا، ولم يفعل السود والبيض ما فعلناه أنا ودينس، نتمشى معا، وما إلى ذلك، كان بعض الناس يفعلون ذلك ولكن سرا، أو كانوا رواد الحفلات مثل أصدقاء روكي في سمولز بارادايس، غير أن دينس وأصدقاءه كانوا مسيحيين ورجالا جديين، ولم يكن هذا موضوع مزاح بالنسبة لهم.

على كل حال، بعد أن تغلبوا على دهشتهم، قالوا، «بيتنا بيتك. اجلسي وكلي»، ولم أواجه أي مشكلة معهم، ولا مع أي من أفراد عائلة دينس الذين رحبوا بي بقلوب مفتوحة وقبلوني كواحدة منهم، عدا أنهم كانوا يستغرقون دقيقة أحيانا للتغلب على استغرابهم لرؤية أسود وبيضاء معا، مثل العمة كاندس، التي هي عمة دينس المفضلة وهي حفيدة عبيد. عندما جئت لكارولانيا الشمالية لأول مرة ودخلت بيتها، قالت، «آمل أن تعذريني إذا حدقت فيك، لأن أي أبيض لم يدخل بيتي من قبل، ولم أكن

أبدا قريبة من أي شخص أبيض بهذا الشكل» فأجيبها «لا مانع»، وكانت صديقتي حتى وفاتها. لن أنساها أبدا ما دمت حية. عاشت ما يقارب مائة عام، وما كان بإمكاننا الاستغناء عن العمة كاندس التي حضرت من كارولاينا الشمالية واعتنت بكم جميعا بعد وفاة دينس، لأني كنت حزينة وضائعة ولم أستطع التحرك. أخذت القطار إلى نيو يورك من كارولاينا الشمالية واعتنت بكم أنتم الثمانية جميعا، بما في ذلك أنت، يا جيمز، ولم تكن سوى طفل صغير جدا. لم تكن قد زارت المدينة قبل ذلك، ولم تر هذه الكمية الهائلة من الإسمنت ولا هذا العدد من المباني الطويلة في حياتها. أما زوجي الثاني فاشترى لها ساعة ذهبية كبيرة بعد زواجنا، وغادرت كاندس لتعود إلى كارولاينا الشمالية، وقال، «هذه امرأة رائعة!». وكان على حق، انها امرأة رائعة!

كان دينس مسيحيا نظيفا وثابتا، وكان يفهمني ويدرك كل شيء عني على ما يبدو، وما لبث حتى أصبحت أحبه، وبعد بضعة أشهر أصبحنا نفكر في الزواج. حسنا، أنا التي فكرت في الزواج، وتردد دينس في الموضوع، وقال في النهاية، «لنسكن معا كزوج وزوجة، ولا داعي أن يعرف العالم أننا متزوجان، لأن العالم ليس مستعدا لنا حتى الآن». ووافقت على هذه الحجة - بشكل مؤقت - فاستأجرنا غرفة في بورت رويال في الشارع المائة والتاسع والعشرين، في شقة ذات ثلاث غرف تديرها امرأة اسمها السيدة إليس، وكانت غرفة واحدة لها ولزوجها، وكانا يؤجران الغرفتين الأخريين، وشاركنا في المطبخ والحمام.

وهكذا تركت المنزل، وتركت شقة بوبه يوما من الأيام ولم أعد أبدا. تعرف، كانت بوبه كبيرة السن ومصابة بالسكري ولم تستطع السيطرة علي، ولم تقم خالاتي بزيارتي للتأكد من وضعي أو ما شابه ذلك، وكانت لهن حياتهن الخاصة ولم يهتممن بي، وكنت كبيرة ولم أعد طفلة آنذاك، وكان موقفهن، «أخرجي واعملي كما تريدين»، فعملت ما أريد، وأصبحت أسكن مع دينس ولم أندم على ذلك. وظل يعمل

في معمل خالتي ماري وأنا ساكنة معه، ولم تعرف ذلك.

كانت فضيحة، ألا تعتقد ذلك؟ ولكني اشتقت إلى أمي، اشتقت إليها بشدة، وكثيرا ما كنت أفكر فيها وفي أختي دي دي. وشعرت يوما من الأيام أني أردت أن أتكلم مع أمي، على الرغم من إدراكي انها لاتتفق مع نمط حياتي، فجمعت كومة من العملة وخرجت من غرفتنا الصغيرة إلى شارعنا حيث الهاتف العمومي واتصلت بسافوك، وبما أنني أنا ودينس كنا نسكن في غرفة في شقة ليست لنا، كنا نضطر إلى الجلوس في غرفة جلوس صاحبة الشقة، ولم أتمكن من الاتصال بأمي والتكلم باللغة اليبدية على هاتف تلك السيدة، لأن ذلك لن يكون لائقا، واستحييت من ذلك فخرجت. وكان الاتصال الهاتفي عبر مسافة بعيدا شيئا نادرا في تلك الأيام. ولدى اتصالي رفع تاته السماعة وقال لي، «لا أعرف ماذا تفعلين هناك، ولكن أمك مريضة، وأحتاج إلى مساعدة مع المتجر». فعدت إلى سافوك على مضض، ولكني اضطررت لذلك لأن أمي مريضة. أخبرت دينس بأني سأذهب إلى المنزل لبضعة أسابيع، وقال إنه سيراسلني ويرسل إلي نقودا، وفعلا قام بذلك.

قلت لتاته لدى وصولي إلى فرجينيا، «سوف أساعدكما لفترة، ولكني لن أبقى»، إلا أنه تجاهل هذا. أول ما فعله هو أنه أخذني إلى بورتسماوث، إلى أحد أصدقائه التجار اليهود بحجة (القيام ببعض الصفقات التجارية) وعرّفني على ابن ذلك الرجل.. كان يلح علي أن أتزوج ذلك الرجل البدين الذى لم أعرفه، ولكني لم أرغب في ذلك. كنت قد عدت إلى المنزل من أجل أمي التي كان مرضها يزداد أكثر فأكثر (كادت تفقد نظر عينها اليسرى، وكان يغمى عليها)، ولكنها لم تكن كسيحة تماما، حتى عندما كانت مريضة لم تكن كسيحة. كانت تطبخ طوال النهار وترتق الجوارب أيضا. كانت تستطيع فرم السمك واللحم والخضار على لوح التقطيع.. كل ذلك بيد واحدة. كانت زوجة

يهودية جيدة، ظلت مخلصة لعقيدتها الدينية، وتحملت الكثير عبر السنين لأن زوجها عديم القيمة ولم يكن لديها خيار آخر، لو كانت تلك الأحداث في يومنا هذا لكانوا أسموها (امرأة معذبة) بسبب طريقة تاته في معاملتها، ولكنهم في ذلك الوقت كانوا يسمونهن (زوجة) فقط. وكان يحق للرجل في الجنوب أن يفعل بزوجته كما يريد، ولا سيما إذا كانت يهودية وشبه كسيحة وهو حاخام مزعوم. بإمكانه أن يصرخ عليها، يستهزئ بها، يشتمها، يصفعها، وحتى إنه يستطيع الخروج مع امرأة أخرى أمام عينيها.

وحاولت أن تتجاهل ذلك أيضا، بقدر المستطاع، ولا أعتقد أنها أدركت ما يفعل بها، لأن تاته كان دائما غريبا، وكتوما كما تعلم فلم يخبرنا بشيء أبدا عن مكان ولادته على سبيل المثال، ولا إذا كانت لديه عائلة أو أقارب. كان يختفي لبضعة أسابيع في أوروبا كل صيف ويقول، «سأذهب لأرى لاندزمان»، ويغادر على متن باخرة إلى مكان ما في فرنسا. وتعني كلمة «لاندزمان» باللغة الييدية شخصا من مسقط رأسه، وكنا ندير المتجر في غيابه، أنا ودي دي وأمي. ولا أعرف حتى يومنا هذا إلى أين كان يذهب، ولكنه كان يعود إلى المتجر متبخترا بعد بضعة أسابيع ويضع حقائبه، ويسأل، «أين أموالي؟»، ونعطيه إياها، ويجلس ويعدها، يعدها قبل أن ينزع سترته. وكان يعرف كم يفترض أن يكسب في الأسبوع تقريبا، كان جادا في ما يتعلق بأمواله.

بدأت امرأة بيضاء بدينة تظهر في المتجر في العام ١٩٣٩ أو ١٩٤٠، كانت مؤخرتها بحجم غرفة الجلوس هذه. كانت تسكن بالقرب منا في الشارع نفسه. كان زوجها يقضي فترة عقوبة في سجن المقاطعة على الجانب الآخر من الشارع بسبب سكره أو مثل هذه المخالفة البسيطة. لم تكن يهودية، وكان لديها أربعة أو خمسة أطفال، وكان تاته يتكلم معها في المتجر ويتظاهر بأنه لقاء عارض، ثم ليلة الجمعة، أي بداية السبت، كان السيد الحاخام يخرج، وكنا أنا ودي دي وأمي

نشعل الشموع ونصلي لنبدأ السبت، وتاته يحزم حقيبة بالمواد الغذائية ويرميها في سيارته بينما أمي تراقبه. كان يقول لها باللغة البيدية، «سوف أخرج»، ثم يقول باللغة الإنجليزية، «لن أعود إلا يوم الاثنين، افتحي المتجر صباح الأحد».

ثم تسألني أمي، «ماذا قال؟».

وأجيبها، «لا شيء».

كانت علاقتهما الزوجية تتفسخ، وكنت أنا في الوسط. كنت أترجم بينهما، أو أمتنع عن الترجمة، وسرعان ما أصبحت علاقة تاته الجنسية علاقة تامة وصريحة، وما لبث أن نقلها مع أولادها عبر حدود كارولاينا الشمالية إلى مكان يبعد عن سافوك حوالي ساعة بالسيارة، وجرني مرة إلى هناك وأجبرني على الانتظار خارج بيت المرأة، بينما أسرع هو إلى الداخل. بدأ يزعجني بإلحاحه على أن أقنع أمي بطلاقه، وحاول أن يخاطبها بواسطتي فرفضت، وفهمت ورطتها. كانت في أوائل الأربعينيات من عمرها آنذاك، وكانت معاقة ومريضة ولم يكن لديها أي منزل آخر، فلن توافق على الطلاق أبدا. ولا أعتقد أنها كانت تعرف حتى صديقة واحدة في سافوك في ذلك الوقت حسب ما أتذكر، ولم يكن لها أحد تركن إليه إلا أمها، لأن أخواتها لم يهتممن بها كثيرا أبدا، فكن يعتبرنها مجرد كسيحة، ونادرا ما راسلنها، ولم تقر إحداهما أبدا لها بالفضل في أفعال الخير التي أنجزتها. طريقتهن في إبداء عطفهن عليها تمثلت باستضافتي في الصيف، ولم يدم ذلك طويلا حيث تخلصن مني بحلول ذلك الوقت لأني لم أعد طفلة. والآن يريد تاته أن يطلقها ليستطيع التزوج من صديقته البدينة.. تلك المرأة الأكبر والأطول منه والتي ليست يهودية، بل هي من الأغيار، وهذا أمر مقرف للغاية لم أكد أتحمله.

وكان يتعين على والدي التقدم إلى روف، وهو نوع من حاخام أعلى،

للطلاق حسب الأصول في الدين اليهودي، ولكن تاته لم يهتم بأي روف، ولم يعد متدينا. فخرج ذات يوم لزيارة محام، وعاد ببعض الأوراق ووضعها على الطاولة وقال لي، «اطلبي من أمك أن توقع على هذه»، وهذه أوراق للطلاق، ورفضت أمي، ثم سافر إلى رينو بولاية نيفادا ورتب الطلاق بسرعة، وعاد إلى فرجينيا وقال، «أخبري أمك أننا قد تطلقنا»، وانتهى الأمر. غير أن شيئا لم يتغير في بيتنا، وبقينا نسكن معا، كلنا، وكنا جميعا في حزن، وبحلول ذلك الوقت كنت قد أمضيت في المنزل بضعة أسابيع، أي أطول من المدة التي كنت قد نويت قضاءها هناك، وأردت المغادرة. كانت فترة تعيسة، ولاسيما لأختي المسكينة دي دي التي كانت أصغر مني بأربع سنوات، أي في الخامسة عشرة فقط آنذاك، وقد تحملت حياة صعبة، ومن بيننا الأطفال الثلاثة، كانت الحياة أسوأ لدي دي لأنها الأصغر.

لم تعان دي دي من أي مشاكل على ما يبدو. كنت اعتبرها دائما أجمل مني، ولم تكن متمردة مثلي، وكنا مختلفتين كالليل والنهار. كانت قصيرة ولها شعر بني مجعد، وأنا طويلة وسمراء ونحيفة ولي شوارب. رفضت حتى في صغرها أن تلبس ملابس مستعملة، وكانت ترتدي تنانير وجوارب جميلة، ومظهرها مرتب دائما، فيما كنت أنا أرتدي ملابس مستعملة، ومظهري يبدو مثل كيس البطاطس مهما لبست. كانت دي دي ذكية جدا، ولها علامات جيدة في المدرسة، فيما نجحنا أنا وأخي سام بالكاد. كانت بنت تاته المفضلة، وكنت أغارمنها دائما لأن تاته كان يدفع لتدرس البيانو، ولم يسمح لي بدراسته ولا أي شيء من هذا النوع. كانت الأمريكية الأولى في عائلتنا، وكنا أنا وسام مهاجرين، وكانت لنا صفة المهاجرين. كان الأطفال يستهزئون بنا في المدرسة لأننا يهوديان، ولكنهم لم يستهزئوا بدي دي، وما كان الناس يفعلون ذلك بدي دي لأن لها الثقة بنفسها، كانت فتاة يهودية جيدة ومطيعة. الذي أقصده هو أنها كانت في المدرسة الثانوية وتتصرف كما تتصرف الفتيات في المدارس الثانوية، تلعب التنس،

وتتعلم عزف البيانو، وعندما قام تاته بطلاق أمي، ضاعت في كل ذلك، ولم يتحدث أحد أبدا معها ولا شاركها مشاعرها، حتى أنا، كانت علاقتنا وثيقة، ولكن ليس لدرجة تجعلني أخبرها عن الورطة التي أوقعت نفسي فيها، ولكنها وثيقة بما يكفي. ومساء ذات يوم جاءت إلى غرفة نومنا، وقالت، «إنني أعرف أنك ستغادرين، يا راحيل. لا تغادري، لا تعودي إلى نيو يورك»، كانت دي دي ذات كبرياء، وبالنسبة لها، كي تطلب مني البقاء.. حسنا، كانت تقصد ما تقول. لم نكن نتكلم معا بهذه الطريقة، وكان يصعب عليها أن تقول لي ما هي مشاعرها، وقد تألمت كثيرا عندما سمعت ذلك، لأنه لم يكن بإمكاني البقاء، فقلت، «سأفكر في الأمر».

وأجابت، «لا أصدقك. إنني أعرف أنك ستعودين، من فضلك، لا تعودي، عديني أنك ستبقين»، وجلست أختي الصغيرة على السرير وغطت وجهها بيديها وبكت، ونشجت، «عديني. عديني أنك ستبقين».

وأجبتها، «طيب، أعدك، سأبقى». ولكني خالفت وعدي لدي دي، ولم تنس ذلك أبدا، وسوف تذكرني به بعد سنين طويلة.

(٢٠)

العجوز شلسكي

كنت أقود سيارتي الفلوكسفاغن الخضراء موديل ١٩٧٢ على طريق الولاية رقم ٤٦٠ في الساعة الرابعة صباحا من أحد أيام شهر نوفمبر ١٩٨٢. كنت قد أوصلت صديقتي السابقة كارين، وهي عارضة أزياء سوداء أعادت تسمية نفسها كارون (لأن وكيلها نصحها بذلك)، إلى بيت جدتها في بيترزبورغ قبل ذلك ببضع ساعات، وكان معها أيضا ابنها باول البالغ الثانية من العمر، وهو ولد هادىء ولطيف ويبدو متشوشا بالنسبة لهويتي. وكانت أمي تكره كارون، وتقول بسخرية، «لديك عائلة جاهزة الآن. كانت كل حياتك أمامك، والآن انظر إلى أين وصلت».

فسألتها، «ماذا تقصدين؟».

وقالت بازدراء، «وداعا لأحلامك!».

تجاهلتها، لأنني وكارون لم نكن ننوي الزواج، ولم تكن علاقتنا وثيقة، كلانا كنا في بوسطن وقررنا أن الوقت قد حان لترك المدينة، كانت هي ستترك زوجها السابق، أما أنا فأردت أن أترك نفسي. كنت أعمل كاتبا للتحقيقات في صحيفة بوسطن جلوب، وتلك وظيفة رائعة لصحفي في الرابعة والعشرين من العمر. كان أعز أصدقائي رجلا أبيض في الستين من عمره تقريبا اسمه ارني سنتوسوسو، ناقد موسيقى الجاز في الصحيفة نفسها آنذاك. كنا نتمشى في قسم التحقيقات نغني أغاني عازف السكسفون دكستر غوردن، وكان بإمكاني البقاء مع أرني إلى الأبد أتنصل من مسؤولياتي وأطلق النكت في قسم التحقيقات، ولكني لم أتمكن من القرار عما إذا أردت أن أكون مؤلفا أم عازف موسيقى، ولم أكن أعلم أنه من الممكن أن أكون الاثنين معا، وكنت معلقا بين عالمي الأسود والأبيض من بعض النواحي أيضا، لأنني اكتشفت بعد الجامعة

والدراسات العالية أن الجلسات الجدية لتغيير العالم التي عقدناها أنا وزملائي الطلبة الآخرون حتى الساعة الرابعة صباحا لم تغير العالم قيد أنملة. وأتذكر بوضوح أنني قلت للزميل الأسود الذي شاركني الغرفة في سنتي الأولى في الجامعة، «العنصرية هي مشكلة يفترض أن تنتهي عند الوقت الذي نتخرج فيه»، ولكنني اصطدمت بها بقوة عندما دخلت العالم الحقيقي. لم تكن بوسطن مكانا سهلا لمواجهة أزمة هوية عرقية فيها، لأن مشاكلها العرقية معقدة ومختلطة بمسائل الطبقة الاجتماعية والتاريخ والسياسة وحتى التربية. كانت أكثر مما أريد مواجهته، فكان لا بد من الهروب.

كانت هناك خريطة صغيرة لفرجينيا على المقعد بجانبي، وهناك دائرة مرسومة حول بلدة سافوك، وخريطة مرسومة باليد كانت أمي قد أعطتني إياها. كان استخلاص المعلومات عن مكان نشأتها قد استغرق مني سنين، وكلما سألتها عنه كانت تقول، «نعم، على كل حال لا يوجد أحد هناك يتذكرني»، وتتصرف بحثا عن بيت أو في مهمة تستغرق ساعات أو أياما أو أسابيع. بلغ الأمر حدا لم أفهم فيه لماذا جعلته سرا، وأصبحت رغبتي في معرفة هويتي تزعجني كقرصة ناموس يجب حكها، وعندما أقنعتها في النهاية، جلست عند طاولة المطبخ وأخرجت ظرفا قديما شقته لتفتحه ونشرته لتكون لديها مساحة أوسع، ثم رسمت لي خريطة للحي الذي عاشت فيه في سافوك، وكانت تتكلم وهي ترسم، «يمر الطريق العام هنا، وهذا هو الجسر، والمحكمة في هذا الطريق، ومسلخ جافي هناك..». وكانت هذه الخريطة الخيط الوحيد الذي يمكن أن يقودني إلى عائلة أمي. لم تعرف أي أسماء لأشخاص في سافوك مع أنها عاشت هناك ما يقارب ثلاثة عشر عاما. وسألتها،: «ألا تستطيعين أن تتذكري أحدا؟».

«لا»

«لا أحد على الإطلاق؟»

«نعم، كنت أعرف فتاة اسمها فرانسيس»

«من هي؟»

«كانت أعز صديقة لي»

«أين هي الآن؟»

«الله يعلم»

«وماذا عن عائلتها؟»

«لا أتذكرهم. ولكن أمها كانت تطبخ طبخا رائعا»

فذهبت إلى سافوك أبحث عن فرانسيس وأمها التي تطبخ طبخا رائعا، ولم تتذكر أمي اسم عائلتهما.

وصلت إلى البلدة في الساعة السابعة صباحا مرهقا وجائعا بعد المشوار من بيترزبورغ، وكان يبدو أن أيام ازدهار البلدة قد انتهت، وأصبحت هادئة وفارغة، تختلط فيها بنايات قديمة عظيمة وبنايات جديدة، وهي أشبه بحي صناعي مما هي ببلدة، ويتوسع الإعمار إلى مناطق مجاورة وليس في البلدة نفسها. رأيت مطعم ماكدونالدز عند زاوية مفترق طرق، وأوقفت سيارتي هناك ودخلت وطلبت بعض الطعام. جلست عند طاولة وفتحت خريطة أمي الصغيرة المرسومة باليد. فحصت الخريطة، نظرت إلى خارج النافذة، فحصتها ثانية وتطلعت من النافذة مرة أخرى. عرفت أنني في الشارع الرئيسي، وكانت بناية المحكمة القديمة على زاوية موروبة من مكان جلوسي. وكانت هناك مقبرة خلف المحكمة. على يساري كان هناك جسر ومسلخ. كنت جالسا في المكان ذاته الذي كان فيه متجر عائلتها، عند رقم ٦٠١ في الشارع الرئيسي الشمالي. تركت الطعام دون أن ألمسه، وخرجت وتطلعت حولي.

وجدت بيتا قديما خلف ماكدونالدز، فطرقت الباب وردّ علي رجل أسود مسن يلبس نظارات. أخبرته بمهمتي، «كانت أمي تسكن هنا، اسمها شلسكي، عائلة يهودية، متجر صغير». لمس نظاراته بأصابعه وحدق فيّ لفترة طويلة ثم قال، «ادخل إلى هنا».

أجلسني وأحضر لي مشروبا غازيا، ثم طلب مني رواية قصتي مرة أخرى، ففعلت ذلك.

وهز رأسه وهو يستمع إلي بعناية، ثم أخذ يبتسم، «يعني هذا أنك أنت حفيد الحاخام شلسكي العجوز؟».

«نعم»

ضحك ضحكة خفيفة أولا، ثم ضحكة أعلى، وحاول السيطرة على ضحكه ولكنه لم يستطع، فتوقف ونزع نظاراته ومسح عينيه. بدأت أغضب فاعتذر. كان اسمه ادي تومبسون، وهو في السادسة والستين. يعيش في ذلك البيت طوال حياته، واستغرق دقيقة ليستعيد أنفاسه، ثم قال، «كنت أعرف أمك. كنا نسميها ريتشل».

لم أسمع بذلك الاسم من قبل أبدا، وحتى عندما روت لي القليل عن حياتها، لم تسم أمي نفسها ريتشل، بل كانت تسمي نفسها دائما روث، واكتشفت فيما بعد أن اسمها الحقيقي روخل، وهو اسم باللغة الييدية أمركته عائلتها إلى ريتشل، وهي بدورها حولته إلى روث، وهو اسم أكثر تأمركا.

وأضاف تومبسون، «كنت أعرف تلك العائلة كلها، ريتشل، وغلاديس، وسام، والوالدين، كانت ريتشل رقيقة القلب، أما غلاديس الصغيرة فكنا نسميها دي دي، وكانت صغيرة جدا، وتشبه أباها. وسام. الأخ، كنا نسميه سباركي، ويقال إنه قتل في الحرب العالمية الثانية في حادث طائرة. وكانت ريتشل تمشي هنا على الطريق جيئة

وذهابا، هي وأمها. كانت الأم كسيحة، تعرج، وجانبها الأيسر كله في حالة سيئة، السيدة شلسكي. ما ألطف تلك المرأة! كانت تهب قطعة من الفواكه أو الحلوى داخل المتجر عندما يكون العجوز منشغلا. ولكن العجوز شلسكي...». وهز كتفيه، «أنا شخصيا لم أواجه أي مشكلة معه».

فسألته، «كيف كان؟» وقلبي يدق، وتساءلت، لماذا يدق قلبي؟ ولم أعرف بالتأكيد.

وسألني «كيف؟»

«العجوز شلـ.. جدي...»، لم أعرف ماذا أسميه، ولم يبد أي من الاسمين صحيحا، فسألت،: «كيف كان شلسكي؟» هز كتفيه مرة أخرى، «يعني.. بما أنك أنت حفيده، وكل... هو... العجوز كان لا بأس به، وكنت على علاقة جيدة معه».

أدركت من وجهه أنه لم يؤمن بذلك، فقلت، «لا داعي أن تراعي مشاعري، لأنني لم أعرفه أبدا، ولكني أريد أن أعرف كيف كان».

ألقى نظرة سريعة على النافذة، ثم قال بهدوء، «لن تجد أحدا هنا كان يحبه، حتى لدرجة التكلم عنه».

«لماذا؟»

«كان يكره الرجل الأسود كرها شديدا»

«كيف ذلك؟»

«يعني.. كان يكره السود، وكان يغشهم. يبيعهم أي شيء وكل شيء، ويتقاضى منهم أعلى سعر ممكن، وإذا كنت مديونا له بخمسة دولارات يجبرك على دفع عشرة. أطلق النار على لايجاه ركس في معدته، ولكن لايجاه جلب هذا على نفسه، حيث دخل متجر شلسكي وجادله على بعض السردين والبسكوت ورفض الدفع، فأطلق شلسكي النار

عليه وأصابه في جانبه الأيسر أو الأيمن، لا أتذكر أيا منهما. لم يقتله، ولكنه كان كريها، العجوز شلسكي، وكانت زوجته تخاف منه».

«كيف تعرف كل هذا؟»

«أعرف؟ كدت أرى إلى داخل بيت الرجل من غرفة نومي، وكنا جنبه تماما، كنت أعمل لصالح شلسكي لفترة، أكسب عشرة سنتات يوميا بإشعال مدفأته صباح يوم السبت، لأنه لا يسمح لليهود بالقيام بكثير يوم السبت، فهو مثل يوم الأحد لدينا، تعرف. وكانت لديه مدفأة تعمل بزيت الكاز تترك بقعا سوداء في كل مكان. لا أعرف ماذا حدث لها..». وتأمل قليلا حتى أعدته إلى موضوع البحث. وأضاف ادي تومبسون، «كان يربح أرباحا جيدة، يأخذ أموالا طائلة من الزنجي، غير أنه كان بخيلا كالكلب، وكانت السيدة شلسكي ترتعب من العجوز، وإذا كانت تتحدث إليك ودخل الغرفة، كانت تسكت وترتعش».

استمعت إليه بصمت، تسقط كلماته علي وكأنها صواعق، وسألته «ماذا حدث له؟».

«لقد فر مع إحدى أتعس وأبخس وأفقر النساء البيضاوات التي يمكن أن تتصورها، ولا أعرف كيف تورط معها. وكانت من عائلة كلاكستون، زوجة رتشارد كلاكستون. وأعتقد بأن العجوز أصبح يحبها بسبب الحالة التي كانت السيدة شلسكي تعاني منها. وكانت تلك المرأة كبيرة مثل بيت، ويبدو شلسكي وكأنه صبي عندما يمشي في الشارع بجانبها، لأنه كان رجلا صغيرا جدا». وضحك ضحكة فيها حلاوة مشوبة بمرارة، «العجوز شلسكي كان رجلا غريبا».

«هل لديك أي فكرة إلى أين ذهب؟»

«لا، ربما رتشموند، ولكنني لا أعرف بالتأكيد»

وقلت له، «لدي رغبة شديدة في معرفة مكان وجوده».

وأجاب الرجل الأسود، «آه، أنا أعرف أين يمكن أن تجده»، وأشار إلى الأرض وغمز بعينه: «سوف يدخلونه إلى هناك، حتى ولو كان الجسر مغلقا، سينزلونه بالمظلة».

تحدث لمدة طويلة، وضحك ممسكا عن التصديق، «غادرت ريتشل يوما من الأيام، أقول لك إنها غادرت واعتقدنا أنها قد ماتت، وغادرت تلك العائلة كلها منذ زمان، ولم نعتقد بأننا سنرى أيا من أفرادها إلا في الآخرة، وها أنت تظهر. يعلم الله أنه يوم عظيم».

سألني إذا يمكن أن يتصل بأمي هاتفيا، فرفعت السماعة وطلبت رقم بيت أمي، وعندما ردت أخبرتها بأن هناك شخصا يريد أن يتكلم معها، وناولته السماعة.

«ريتشل؟ نعم، يا ريتشل. هنا ادي تومبسون، من سافوك. هل تتذكرينني؟ كنا نسكن خلف.. نعم، هذا صحيح». وتوقف عن الكلام قليلا.«لا. توفى الجميع الآن إلا مولي وهيلين ومارغريت وادوارد، هذا صحيح... عجيب! كرمني الله اليوم!».

توقف لحظة يستمع. «يا ريتشل؟ أتبكين الآن؟ هنا ادي تومبسون، تتذكرينني؟ «لا تبكين الآن...».

(٢١)
طير يطير

في صيف العام ١٩٤١، قبل رجوعي إلى نيويورك للسكن مع دينس في هارلم، استلمنا ونحن في سافوك رسالة من عائلة أمي في نيويورك تقول: «لدينا أثاث يفرش ثلاث غرف. هل تريدونه؟» بوبه كانت تعيش في شقة بثلاث غرف، وهكذا أخبرونا بأن بوبه قد توفت. لم يكلفوا أنفسهم بالكتابة إلى أمي، بل كتبوا إلى تاته باللغة الإنجليزية التي لم تقرأها أمي ولا تفهمها. وقرأ تاته الرسالة ورماها إلي، وقال، «اقرئي هذه لأمك»، وانصرف.

انتظرت حتى المساء لأقرأها لها، مما يعني أنها كانت تمشي في المتجر طوال النهار لا تعرف أن أمها متوفاة، مع أن تاته يعرف ذلك، وأنا أعرف ذلك، وهذا وضع مشوش. وقرأتها لها في غرفة نومها، الغرفة التي كنا نتشارك فيها، أنا وهي ودي دي. وكان لها كرسي هزاز صغير تجلس فيه، وكانت جالسة هناك تنظر من النافذة حين دخلت الغرفة. وقلت لها، «يا أمي، لدي شيء أقرؤه إليك»، وقرأته إليها. ولم تقل كلمة، وإنما جلست هناك تحدق في الليل، والدموع تسيل على وجهها، ولم يخرج أي صوت من شفتيها، ولا أي كلمة.

ذهبت إلى السرير بعد ذلك، وسمعت صوتا خافتا يصدر من سريرها، وهو سرير صغير كانت تنام فيه وحدها، وعرفت أنها تبكي، وقلت لها، «خير، يا أمي، خير»، ولكنها بكت وبكت، مجرد بكاء، ومازلت أسمعها تبكي أحيانا، وأعرف صوت بكائها تماما، مثل نغمة موسيقية تسمعها أو أغنية تدور في رأسك ولا تستطيع أن تنساها. ويتخيل لي أنني أسمعه بين الفينة والفينة وأنا أمشي في الشارع، مجرد صوت شهيق سريع مثل «أوه!» وأدور ولا يوجد أحد هناك.

بقيت في سافوك لوقت أطول، ثم غادرتها إلى الأبد في العام

١٩٤١. لا أتذكر متى حدث كل ذلك بالتحديد لأنها كانت أياما سيئة، وغادرت على الرغم من اعتراضات أمي أيضا. قالت، «بإمكانك أن تعيش حياة جيدة هنا»، ولكني أجبت، «لا أستطيع أن أعيش هنا، يأمي»، ولم تثر الموضوع مرة أخرى أبدا ولم تطلب مني البقاء لفترة أطول. لم تكن لي حياة في سافوك. حزمت الأمتعة القليلة التي أردتها وحاولت أن أتكلم مع دي دي قبل مغادرتي، ولكنها رفضت التكلم معي، وقالت، «لقد وعدت أنك لن تغادري» وابتعدت عني. عند مغادرتي المتجر لأمشي إلى محطة الحافلات في وسط البلدة، ناولتني أمي غداء في كيس وقبّلتني، وخرجت من الباب وذهبت، ولم أرها ولا دي دي أبدا بعد ذلك، ولم يقل لي تاته أي كلمة عند خروجي.

كانت محطة حافلات غريهاوند مقابل فندق سافوك في تلك الأيام، وكنت واقفة هناك انتظر مجيء الحافلة، وقدم تاته في سيارته الكبيرة من طراز فورد في V8. فنزل وأخرج يديه من جيبه وأخذ يمشي جيئة وذهابا، وقال، «يجب عليك البقاء».

وأجبته، «لا أستطيع»، وكانت أعصابي متوترة، وكان يوتر أعصابي دائما.

وأضاف، «سوف أحصل لك على عدد من الزبائن، ويكونون زبائن خاصين لك، وستبيعين المؤن لمزارعين في الريف، وتجنين أرباحا كبيرة، أو بإمكانك العمل في وظيفة في نورفوك، أو الكلية التجارية. مهما تريدينه، ولكنه يجب عليك البقاء».

«لا أستطيع ذلك»

وألح علي، «أقول لك، ابقي. أتسمعيني؟ إنني أحتاج إليك لإدارة المتجر، وأمك أيضا تحتاج إليك».

بدأت أصرخ عليه وتشاجرنا. ها هو قد طلق أمي، ولايزال يستعملها

كوسيلة ضغط علي. ثم قال، «أعلم أنك ستتزوجين أسود، وترتكبين خطأ». وفاجأني بذلك، لأنني لا أعرف كيف علم به، ولا أعرف حتى يومنا هذا.

وأضاف، «إذا تزوجت زنجيا، فلا تعودي إلى المنزل ثانية. أبدا. لاتعودي».

«سأعود دائما لأرى أمي».

وقال، «لن تعودي إذا تزوجت زنجيا. لن تعودي».

وركب في سيارته وانصرف، وعندما وصلت الحافلة ركبت فيها وبكيت قليلا، ثم غلب علي النوم. وبعد أن استيقظت في وقت لاحق، فتحت كيس الغداء الذي كانت أمي قد أعدته لي. في داخل الكيس، محشورا بين المأكولات، كان هناك جواز سفرها البولندي وبه صورتها، وهي الصورة الوحيدة لها الموجودة لدي، وهي جالسة وتمسكني وأخي سام في حضنها.

بعد عودتي إلى نيو يورك ببضعة أسابيع وأنا أسكن مع دينس في هارلم، سمع دينس خالتي ماري تقول إن تاته قد استأجرتحريا للبحث عني، مما جعلني اختبىء في هارلم. فلن أعود أبدا إلى المنزل، وبدلا من ذلك، وجدت عملا في مصنع للزجاج في حي تشلسي بمانهاتن، وكانت مهمتي أن أمسك أنابيب زجاج فوق النار وأمطها لأصنع أنابيب اختبار. كنت أعود إلى المنزل من العمل كل ليلة وعلى يدي حروق كبيرة. بعد ذلك بقليل، في أوائل ١٩٤٢، عاد دينس من معمل خالتي ماري وأخبرني بأنه سمع خالتي ماري تقول إن أمي مريضة وقد نقلت إلى مستشفى في برونكس. خرجت على الفور واتصلت بخالتي ماري وسألتها، « أين أمي؟»، فقالت، «أنت خارج العائلة، فابعدي عنا. لقد جلسنا حدادا عليك، ولا تستطيعين رؤيتها». جرحني ذلك الأمر.

قلت لدينس في تلك الليلة، «يجب علي أن أراها». فأجابني، «يا روث، قد أوضحت خالتك ماري أنهم لن يرحبوا بك هناك». جعلني ذلك أتريث، فلم أرد أن أجعل مرض أمي يتفاقم، وكنت خارج العائلة فعلا. قلقت كثيرا من ذلك، وحاولت أن أفكر في ما يجب علي أن أفعله، ولم أستطع أن أقرر.

بعد ذلك ببضعة أيام كنت في العمل في مصنع الزجاج، وجاءني عريف العمال الألماني وأخبرني أن لي مكالمة هاتفية. كان دينس يتصل من مصنع خالتي ماري، وأخبرني بأن أمي قد توفت.

كانت هناك غرفة للخزائن الصغيرة في مصنع الزجاج حيث كنا نغير ملابسنا ونلبس مآزر العمل. أغلقت السماعة ودخلت إلى هناك لأنوح من حزني. دخل عريف العمال والعمال الآخرون إلى هناك وحاولوا مساعدتي على الوقوف، لأني كنت قد هويت إلى الأرض، ولم أتمكن من الوقوف. حاولت، ولم أستطع، وقالت إحدى السيدات، «أوه، لا داعي لهذا التصرف والصراخ وما إلى ذلك».

بقيت مكتئبة لمدة أشهر، وقلّ وزني ولم أتمكن من تناول الطعام. كدت انتحر. كنت أردد، «لماذا لم أمت أنا؟»، كنت أمشي مسافات طويلة وأنسى أين أنا، أو أكون في مكان ما ولا أتذكر كيف وصلت إليه. دينس هو الذي أجبرني على الخروج من تلك الحالة، وقال مرارا وتكرار، «يجب أن تغفري لنفسك، يا روث. إن الله يغفر لك، ويغفر أسوأ الذنوب». لكني لم أستطع أن أستجيب له. لم أستجب لأحد لمدة طويلة. كنت نادمة للغاية، وتأسفت في أعماق قلبي، ولكن كل التعبير عن الأسف يذهب سدى عندما يموت الإنسان. لقد رحلت أمي، رحلت، ولذلك يجب على الإنسان أن يقول دائما، «متأسف» و«أنا أحبك»، عندما يكون الشخص المعني على قيد الحياة، لأن الغد غير موعود. يا الله، كنت أحترق من الألم، وأتشبث بجواز سفر أمي وأحمله في كل مكان، لم أدرك أنها تحتضر عندما غادرت المنزل، ولكنها كانت

تعرف ذلك، ولهذا السبب أعطتني جواز سفرها. إنني أحمل هذا الشعور بالذنب دائما، حتى يومنا هذا، لأني تركت أمي، لأني أنا التي كنت أترجم لها وأساعدها طوال حياتها. كنت عينيها وأذنيها في أمريكا، وعندما غادرت.. كان سام قد غادر، وبوبه قد توفت، وعاملها زوجها معاملة سيئة وطلقها، فاندثرت أسباب حياتها، وكان وقتا رديئا.

نسيان ذلك أخذ مني وقتا طويلا، ولكن دينس صمد معي، وبدأت بعد فترة استمع إلى ما قاله عن غفران الله، وبدأت أتشبث بذلك، إن الله سيغفر لك، وسيغفر أسوأ الذنوب، لأني شعرت بأن أمي كانت تستحق مني معاملة أفضل، وعندئذ بدأت أحضر كنيسة المدينة في هارلم مع دينس لأستمع إلى خطب القس براون. ساعدني الاستماع إلى الطريقة المسيحية لأني كنت بحاجة إلى مساعدة، وكنت بحاجة إلى توديع أمي، وعندئذ بدأت أصبح مسيحية، وأخذت اليهودية فيّ تموت، اليهودية فيّ كانت ستموت على أي حال، ولكنها ماتت بالفعل مع وفاة أمي.

أتذكر كيف كانت تضحك عندما تهز الدجاجات فوق رؤوسنا في عيد الغفران. لا أعتقد أنهم يعملون ذلك الآن. كانت تهز الدجاجة الحية فوق رأسها، وتقول لها، «أنت للموت، وأنا للحياة!» فيما نصرخ ونهرب لأن أبي سيأخذ الدجاجة منها ويذبحها كضحية، ولم يعجبني ذلك، لأنه كان يبدو عادة عتيقة وغريبة. كنت أقول، «لا أريد أن أفعل ذلك في أمريكا». ولكنها كانت تقول، «هذه الدجاجة تبين لله أننا نشكره على الحياة، وهي مجرد دجاجة، وليست طيرا يطير، إن الطير الذي يطير هو شيء خاص، ولا يجب أن توقعي طيرا يطير في شرك أبدا». وكانت تجلس على كرسي هزاز صغير في غرفتها في الطابق الأعلى وتراقب الطيور. كانت تضع فتات الخبز على عتبة نافذتها فتتجمع الطيور هناك وتأكل بينما هي تغني لها، ولكنها كانت دائما تطردها وتجعلها تطير لتكون حرة مرة أخرى. كانت تغني لها أغنية ييدية صغيرة، «فيغله، فيغله، غاي افيك»، (يا طير، يا طير، حلق بعيدا).

(٢٢)

يهودي مكتشف

كنت واقفا بعد ظهر أحد الأيام في أغسطس ١٩٩٢ أمام المعبد الوحيد في وسط بلدة سافوك. حول المعبد مجموعة من واجهات المتاجر القديمة، بنايات ذات إنارة باهتة، وخطوط سكك الحديد القديمة التي تشير إلى عصور أفضل وأكثر ازدحاما بالسكان. والمعبد هو مبنى أبيض صغير وقديم بأربعة أعمدة طويلة وسلسلة من الدرجات تؤدي إلى مدخل عال. هذا هو المعبد الذي كانت الشابة راحيل شلسكي تحضره مع عائلتها، والذي كان الحاخام شلسكي يقود فيه المصلين في الأعياد اليهودية، روش هاشانا، وهو عيد رأس السنة اليهودية، ويوم كبر، وهو يوم التوبة والصوم. وكانت الأعياد اليهودية في أيام صباي تعني يوم عطلة من المدرسة، ليس أكثر من ذلك، ولكني لم أتخيل أن لها أي علاقة بي.

شعرت بالغرابة وأنا أقف أمام المبنى الصامت والفارغ، ونظرت إلى طرفي الشارع كل دقيقتين، خوفا من أن يأتي رجال الشرطة ويتساءلوا لماذا يتسكع رجل أسود أمام مبنى للبيض في منتصف النهار في سافوك بولاية فرجينيا. إنها التسعينيات، ولا بد لأي رجل أسود يتسكع أمام بناية لفترة طويلة يفحصها بدقة أن يثير شبهة رجال الشرطة وغيرهم الذين يحتمل أنهم يظنون انه يبحث عن مدخل مفتوح ليستطيع التسلق إلى الداخل بغرض السرقة. عادة ما يكون الربط بين الذكور السود والجريمة هو الشيء المألوف في أمريكا، أما الربط بين رجل أسود وأم يهودية بيضاء فهذا قد يكون من المستحيلات، ولم أعتقد بأن ضابطا شرطيا سيصدق روايتي إذا وقفت أمام الهيكل اليهودي وقلت، «نعم، كان جدي هو الحاخام هنا، تعرف...». كانت الشمس تشوي الرصيف، وبسبب شدة الحرارة جلست على الدرج ووضعت مسجلي ومفكرتي بجانبي.

انتهى بحثي الطويل عن عائلة شلسكي هنا. لقد أمضيت وقتا طويلا وأنا أنقب في سجلات المدارس والمحاكم وغيرها من الوثائق وجاءت النتائج متفاوتة. دفنت جدتي هوديس بعيدا عن هنا، في مقبرة في لونغ ايلاند بين مئات اليهود، أكثر بكثير من الأعداد التي استمتعت بالاختلاط بهم هنا. ووجد الجيش الأمريكي سجل وفاة الرقيب سام شلسكي الذي مات في فبراير ١٩٤٤، ولكن تفاصيل سجله في الخدمة العسكرية فقدت إلى الأبد في حريق التهم سجلات الأفراد في الجيش. وشعرت بأني أتتبع أشباحا، ولم أجد شيئا عن الحاخام شلسكي الذي اقتفيت أثره إلى عنوان في بروكلين في الستينيات، حيث يبدو أنه وصل بعد أن هام عبر نورفوك بولاية فرجينيا، وبلفيل بولاية نيو جرزي، ومانهاتن. أما دي دي فاختفت من سافوك قبيل وفاة أمها ولم تعد. تركت مدرسة سافوك الثانوية في ٢٣ يناير ١٩٤٢، قبل موعد تخرجها بفصل واحد، وتوفت أمها بعد ذلك بخمسة أيام في ٢٨ يناير ١٩٤٢ في مدينة نيو يورك. كنت أتخيل مدى الألم الذي شعرت به عندما اضطرت إلى مغادرة منزلها الحقيقي الوحيد وهي في السابعة عشرة، وأمها متوفاة، وأبوها مع امرأة من الأغيار، أخوها في الحرب، وأختها مختفية. لا معين لها حين سقطت أعمدة حياتها وكأنها نكاشات أسنان. كان كل ما تعرفه قد فني، مع من عاشت؟ ربما عالها أبوها. من يعلم؟ كان لدي شعور بأنها لا تزال على قيد الحياة، لابد أنها في السابعة والستين من عمرها تقريبا الآن. كان بإمكاني اقتفاء أثرها، لأني كنت صحافيا، ولكني توقفت بعد محاولتين وهنتين، لأن قلبي لم يطاوعني على ذلك، ولم أرغب في إدخال أي ألم إضافي إلى حياتها لأنها تحملت ما فيه الكفاية. كان أكثر ما استطعت الاقتراب منه هو الجلوس على درج المعبد في حرارة اغسطس، والتساؤل.

كنت أريد أن أرى المعبد من الداخل لأتحدث عنه فيما بعد إلى زوجتي السوداء وولدي، لأن بعض دمي يسيل عبره، ولأسرتي تاريخ

هناك، ويوجد جزء مني في داخله، شئت أم أبيت، وشاء من يديرون المعبد أم أبوا. لم أكن قد دخلت معبدا حقيقيا قبل ذلك أبدا في الحقيقة، وأقرب ما كنت إلى ذلك عندما أجريت تحقيقا عن مدرسة يهودية في منطقة كوينز كان لها معبد ملحق بها، وذلك في عملي كصحافي. في سياق مقابلتي مع مديرة المدرسة، ذكرت أن أمي كانت يهودية، فقالت: «إذن، يعني هذا أنك أنت يهودي أيضا بموجب الشريعة اليهودية! ولدينا يهودي أسود يعمل في مدرستنا!». ضغطت على زر الاتصالات الداخلية في جهاز الهاتف على مكتبها، وقالت، «يا سام، هل يمكنك أن تأتي إلى هنا دقيقة؟»، وبعد ذلك بدقائق دخل عامل المبنى الأسود، يحمل ممسحة ويبتسم. إنني على استعداد لدفع مبلغ كبير نظير صورة لوجهي في تلك اللحظة. ابتسم سام وسلم علي، ورددت عليه التحية بارتباك، وأردت أن أخنق نفسي لإسهابي في الكلام.

عندما اتصلت بحاخام معبد أمي السابق، لم يتكلم معي بحنين إلى الماضي ولا بمفاجأة، بل باعتراف ضنين فقط. كان قد سمع من يهود آخرين قد التقيت بهم أني موجود في البلدة، وعلم أني أسود ومن هي أمي، وقال، «أتذكر أمك». وأوضحت له أني أؤلف كتابا عن عائلتي، وطلبت منه أن أرى بعض سجلات المعبد، وأجاب بجفاء، «لا يوجد شيء فيها يساعدك». وسألت إذا يمكنني رؤية المعبد من الداخل، وقال، «يجب علي مراجعة بعض الأعضاء الآخرين في هيئة الإدارة، لمعرفة من لديه الوقت لفتحه لتمكينك من رؤيته»، وأنهى المكاملة. عرفت ماذا يقصد. فمن صورة فوتوغرافية لأعضاء هيئة إدارة المعبد تتصدر منشور المعبد بذكراه السنوية، شككت في أن نصف هؤلاء العجائز كانوا لا يزالون يتنفسون، فعلقت السماعة وقلت لنفسي بصوت منخفض، «لم أرغب في رؤية معبدكم القديم، على أي حال».

وقد رأيت ما فيه الكفاية بحلول ذلك الوقت، وبدأت اختنق من رائحة أزهار الأزاليا والوحشة التي غمرتني وأنا أدور وأبحث في

سافوك. بدا لي أن العزلة التي شعرت بها عائلتي، والجزع الذي تحملته وكأنهما يتسربان من الأشجار، ويحملهما النسيم عبر بنايات الطوب القديمة والجليلة، وينبعثان كالبخار من تمثال الحرب الأهلية الذي يبدو أنه يوجه مدفعه إلي مباشرة وأنا أهيم عبر مقبرة البلدة. أردت أن أغادر في تلك اللحظة بالتحديد، ولكني جلست على درج المعبد بدلا من ذلك وكأني التصقت به، وعادت ذاكرتي إلى رحلة سابقة في العام ١٩٨٢ حين قادني القدر والحظ إلى أعماق بناية لمكاتب الولاية، حيث يعمل أوبري روبنشتاين في مكتب حق المرور في دائرة الطرق العامة. وكان روبنشتاين في أواخر الستينيات من عمره آنذاك، وهو رجل ثقيل البنية بشعر أسود ولهجة جنوبية ثقيلة، وأسلوب واضح ووجيز. كان أبوه قد تسلم متجر جدي في العام ١٩٤٢ تقريبا بعد أن غادر العجوز البلدة. عندما دخلت إلى مكتب روبنشتاين وأوضحت من أنا، نظر إلي لفترة طويلة جدا. لم يبتسم ولم يعبس، وتكلم في النهاية وقال بهدوء، «يا لها من مفاجأة». وأجلسني وعرض علي فنجان قهوة قبلته، وقال، «لا تتحرك من هنا».

تكلم عبر الهاتف، «يا جافي، لدي أخبار لا تصدق. حفيد فيشلشلسكي موجود هنا، وهو جالس في مكتبي، إني لا أمزح.. لا. ولن تصدق، إنه أسود. لا، أنا لا أكذب. هو صحافي يؤلف كتابا عن عائلته.. نعم». وبعد أن علق السماعة، أضاف، «عندما ننتهي، اذهب إلى المسلخ في الشارع الرئيسي لزيارة جيري جافي وعائلته، انهم يريدون مقابلتك شخصيا». كنت أعرف اسم جافي، وكانت أمي قد تكلمت عنهم مرات عدة، «كان لعائلة جافي مسلخ في ذلك الطريق، وكان تاته يأخذنا إلى هناك لذبح الأبقار وفقا لعقيدة الكاشير». كنت حريصا على زيارتهم، وعاملوني معاملة لطيفة جدا، شأنهم شأن معظم اليهود في سافوك، ورحبوا بي ترحيبا حارا وكأني واحد منهم، وأعتقد أني كنت كذلك، على نحو غريب. إنني أجد أنه من العجيب والغريب أن يعاملني قوم بيض بتلك الطريقة، وكأنه لا حواجز بيننا.

إن ذلك يقول الكثير عن الديانة اليهودية. يبدو أن بعض أتباعها الجنوبيين التقليديين الذين يتكلمون بلهجات جنوبية ويرتدون قبعات قش يؤمنون أن مواثيقها تتجاوز لون البشرة. كان أفراد عائلة شيفر، هيلين واينتراوب وأفراد عائلة جافي يخاطبونني شخصيا وفي الرسائل بأسلوب ونبرة يعنيان جوهريا «لا تنسانا، لقد عشنا هنا، وكانت أمك جزءا من هذا ...».

جلس أوبري روبنشتاين في مكتبه يتكلم دون تكلف فيما جلس زميل أسود بالقرب منه يسترق السمع بعجب إلى الحديث الغريب الذي جرى بيني وبين هذا الكهل الأبيض. قال أوبري، «لم يعد موجوداً الكثير منا، كان يوجد حوالي خمس وعشرين أو ثلاثين عائلة يهودية هنا في السابق، عندما كان جدك هنا، وقد توفى الكبار وهاجر الشباب، بعضهم إلى كاليفورنيا، والبعض الآخر إلى فرجينيا بيتش، أو انتقلوا إلى أي مكان. أما الوحيدون الذين ظلوا فلهم أعمال مع آبائهم ورثوها منهم».

وسألت، «لماذا غادروا جميعا؟».

وأجاب، «لماذا يبقون؟ لم يكن مكانا سهلا ليهودي ليعيش فيه. كان عدد السكان اليهود ضئيلا، معظمهم كان يعمل بأحد أنواع التجارة، وأعتقد أن بعضهم وجد أن كسب المعيشة أسهل في مكان آخر». وفكرت، يهود هائمون.

تكلمنا دون تكلف لفترة، وقال، «إنه أمر شيق أن تأتي إلى هنا للاستفسار عن جدك. إنها قصة جيدة، أقر بذلك».

سألته عن عائلتي، وقال، «إنها نوع من المأساة في الواقع، ولم يكن شلسكي الرجل الذي كان بإمكانه أن يكونه. لقد كان حاخاما جيدا، وأقصد بذلك أنه كان يعرف ما كان يعلمه، وعلمني قليلا في صباي

في الواقع، غير أنه تفرغ للتجارة، الأمر الذي لم يرض الكثيرين من اليهود هنا، وكانت له علاقة بامرأة أخرى لسنين، لست متأكدا إذا كان مطلقا أم لا عندما غادر، ولكني التقيت به بالصدفة في نيو يورك بعد الحرب، ربما في العام ١٩٤٦. ذهبنا أنا وشخص آخر لنسأله عن شراء قطعة عقار بجانب متجره، وكان في بروكلين».

«ماذا كان يفعل هناك؟»

«لا أعرف. ولكنني أعتقد بأن السيدة شلسكي قد توفيت بحلول ذلك. كان الأمر كله مأساويا جدا»، ثم رأى التعبير على وجهي، وأضاف، «كانت جدتك سيدة رائعة، ولا أزال أتذكر أنها كانت تأتي إلى الهيكل وتشعل الشموع وتقف للصلاة. أتذكرها بوضوح، وكانت كسيحة في رجلها، وكانت سيدة رائعة جدا».

سألته إن كان أحد يعرف كيف كان الحاخام شلسكي يعامل عائلته، فهز روبنشتاين كتفيه، «هناك أشياء تسمعها، ولكن أحدا لم يسأل. كان بخيلا بأمواله، وربما كانت حالتهم أيسر مما يبدو، كانت عائلة شلسكي من النوع الكتوم. أما خالك سام، فالتحق بسلاح الجو وقتل في حادث طائرة في ألاسكا. لم يجدوا جثته ولا جثة الطيار الآخر لفترة طويلة، وربما لم يجدوهما أبدا. هكذا سمعت، ولا أعرف إذا كان ذلك صحيحا أم لا. إنك لا تعرف خالتك غلاديس، أليس كذلك؟ كانت فتاة ذكية جدا.. أما أمك.. فكانت فتاة رائعة. طبعا، سمعنا إشاعات، وأنا صريح، بأنها هربت وتزوجت رجلا أسود، ولكن والداي لم يعلقا على ذلك أبدا. كان أبي وأمي مثل الليبراليين في تلك الأيام. لم أسمعهما أبدا وهما ينتقدان أحدا لأنه أبيض أو أسود أو أخضر أو مسيحي أو يهودي أو كاثوليكي».

لم أقل شيئا، واستمعت بصمت، وتصورت أن أخبار زواج أمي صدمت الجالية اليهودية كزلزال.

وسألني، «كيف أحوال أمك؟».

«بخير»

عبث بالأوراق التي فوق مكتبه بأصابعه، وقال، «تعرف أنك تشبه أمك قليلا. الابتسامة. هل تحضر الهيكل، بما أنك يهودي جزئيا؟».

«لا، لم ترينا تربية يهودية»

قال، «على كل حال، ربما كان ذلك أفضل».

تفاجأت من صراحته، وقلت له ذلك.

وتحدثنا لفترة أطول، ثم قمت لأنصرف، وقال لي، «سأحاول أن أجد لك صورة المتجر القديم عندما تعود المرة القادمة. واحرص على إبلاغ أمك بأن أوبري روبنشتاين يسلم عليها».

فأشرت إلى مسجلي على مكتبه، وقلت، «المسجل شغال، وبإمكانك أن تقول هذا بنفسك».

والتفت إلى المسجل وتكلم إليه بهدوء، وبعد أن انتهى استلقى في كرسيه ونظر إلى السقف يتفكر. «لقد اختارت تلك الحياة لنفسها وعاشتها، وهذا كل ما في الأمر، ولا أعرف ما هي أسباب ذلك، ولكنها عملت عملا جيدا، فربت اثني عشر ولدا، وعاشت حياة جيدة».

قلت له إني سأعود بعد بضعة أشهر، ووعدني، «ستكون لك عندي صورة ذلك المتجر»، ولكني انتظرت عشر سنوات حتى عدت، وعندما زرته مرة أخرى كان قد توفى، واحتفظت بالشريط الذي سجل عليه تحيته لأمي لمدة سنين، ومع أنني لم أسمعها إياه ظنا بأن سمعه يمكن أن يؤثر على عواطفها أكثر مما يجب، إلا أني استمعت إليه مرات عدة، أفكر وأتمنى وآمل أن يكون كل العالم منفتح العقل على هذا النحو، وأعلم أن الله كذلك، «يا روث، أنا اوبري روبنشتاين. لا أعرف

إذا كنت تتذكرينني أم لا، ولكن إذا تذكرت، يسرني أن التقى بابنك، وأرى أنك أنجزت الكثير في حياتك. وإذا كنت في هذه المنطقة، زورينا وسلمي علينا. إننا نتذكرك جميعا، ونتمنى لك الخير».

حزّت كلماته في ذاكرتي وكأنها قطرات مطر، وأنا جالس على درج المعبد تحت شمس أغسطس الحارة، تابعت بنظري فتاتين سوداوين صغيرتين مرّتا ولوحتا بأيديهما وواصلتا طريقهما. كانت إحداهما تأكل رقائق البطاطا من كيس. قلت لنفسي، «لقد وجدت ما كنت أبحث عنه». ركبت سيارتي وعدت إلى ماكدونالدز حيث كان المتجر في السابق. مشيت حول قطعة الأرض مرة أخرى وكأن الأرض ستتكلم معي. ولكنها لم تتكلم. لم تكن سوى موقف للسيارات مصنوع من اسمنت. وفكرت أنه من الأفضل أن يأخذوا كل مواقف السيارات الأسمنتية هذه ويرموها في البحر. كانت عائلة شلسكي قد رحلت، رحلت منذ زمن بعيد.

نمت تلك الليلة في موتيل بالقرب من ماكدونالدز في الشارع نفسه، واستيقظت وجلست منتصبا حوالي الساعة الرابعة صباحا. كان شيء ما قد أيقظني. تقلبت على السرير لمدة ساعة، ثم لبست وخرجت، وتمشيت على الطريق باتجاه رصيف السفن القريب، ومشيت على الرصيف ونظرت إلى نهر نانسموند الذي صبغه نور القمر لونا بنفسجيا غريبا، وقلت لنفسي، «ما الذي أفعله هنا؟ هذا المكان موحش للغاية، ويجب علي الخروج من هنا». وخطر على بالي فجأة أن جدتي قد مشت هنا ونظرت إلى هذا الماء مرات عديدة. تلك الوحدة والمعاناة التي شعرت بها هوديس شلسكي كيهودية في هذه البلدة الجنوبية الموحشة بعيدة عن أمها وأخواتها في نيو يورك وغير قادرة على تكلم اللغة الإنجليزية، مهاجرة بولندية كسيحة لا يحبها زوجها، تلاشت أحلامها في رؤية أولادها يكبرون في أمريكا، فيما جفت حياتها وهي في السادسة والأربعين من عمرها. انبعثت في دمائي فجأة وغمرتني وكأنها الموج.

اعترتني وحشة حادة وغلبت علي بثقلها وأجبرتني على الجلوس وتغطية وجهي. لم تعد لدي دموع لأذرفها فقد نفدت منذ زمن طويل، ولكن ألما جديدا ووعيا جديدا ولدا في داخلي. بدأ الغموض المتوطن في داخلي يتبخر، وزال الألم الذي شعر به الولد الصغير الذي حدق في المرآة. لقد استيقظت إنسانيتي الخاصة، وصعدت لتحييني بمصافحة، فيما راقبت بزوغ نور الشمس الأول فوق الأفق. قلت لنفسي إن هناك فرقا كبيرا بين الموت والحياة، وأن أعظم هدية يمكن أن يعطيها الإنسان لشخص آخر هي الحياة، وأن أعظم خطيئة يمكن أن يرتكبها الإنسان بحق شخص آخر هي سلب هذه الحياة، إلى جانب ذلك، فإن جميع القوانين والأديان تصبح شيئا ثانويا.. مجرد كلمات ومعتقدات يختار الناس الإيمان بها والكره والقتل باسمها. لن أعيش حياتي على هذا النحو، وآمل أن أولادي لن يعيشوا كذلك أيضا، وغادرت إلى نيويورك سعيدا بمعرفتي أن جدتي لم تتألم وتمت سدى.

٢٣

دينس

في العام ١٩٤٢ كنا أنا ودينس نسكن في غرفة في بورت رويال في الشارع المائة والتاسع والعشرين بين الجادتين السابعة والخامسة. دخلت إلى ردهة بنايتنا في إحدى الليالي بعد العمل، فلكمتني امرأة سوداء لكمة مباشرة في وجهي، كانت اللكمة من القوة بحيث طرحتني أرضا. قالت: «لا تزدري بي»، كانت مجنونة تهذي، ولم أكن حتى أعرف من هي. تمكنت من النهوض من الأرض وطاردتني حتى غرفتنا فأغلقت الباب بعنف في وجهها وانتظرت عودة زوجي إلى المنزل. ذهب دينس ليتكلم معها بعد عودته من العمل، وقالت، «لا مكان لتلك المرأة البيضاء هنا». هكذا قالت له، لم يهاجمها دينس، وإنما قال، «اتركي زوجتي وشأنها»، وهكذا فعلت. على الرغم من عدم زواجنا، كنا نعتبر أنفسنا متزوجين.

لم يتقبلني بعض السود أبدا، تقبلني معظمهم، ولكن البعض يتكلم عن النوبة وعن أفريقيا وكل ذلك. على كل حال، أنا أم أولاد سود، ولن يحرمني أحد أبدا من أولادي، ويمكن أن يفعلوا ما بدا لهم. فإذا أردت العودة إلى أفريقيا، يا جيمز، بإماكنك أن تذهب، ولكني لا أرى فائدة من ذهابك ولك عائلتك هنا. إلا أنك إذا شعرت بأنك تريد الذهاب إلى أفريقيا لاكتشاف جذورك فلن أمنعك، وسأظل أمك عندما تعود، وستظل ابني.

لم يكن بإمكاني التراجع بعد وفاة أمي، وبقيت على الجانب الأسود لأنه لم يعد هناك مكان آخر يمكنني البقاء فيه. ولم تعتبر المشاكل القليلة التي عانيتها مع السود شيئا بالمقارنة مع الويلات التي يسببها البيض. كان البيض متعنتين للغاية ولا يقبلون أن تكون امرأة بيضاء مع رجل أسود، ويتهمونها بالجنون إذا كانت مع زنجي، ويسمونها

زبالة بيضاء، وهكذا اسموني. تظهر العائلات المختلطة على شاشة التلفزيون كل يومين في أيامنا هذه وتشتكي من صعوبة حياتها، وهي تملك السيارات وأجهزة التلفزيون والبيوت، ومع ذلك يشتكون، ويسمون ذلك حمى الأدغال، ويحركون عظام الفك ويجعلون الأمر كله يبدو تافها. لم يضطروا يوما إلى الهروب للنجاة بأرواحهم كما اضطررنا نحن. سببنا أنا ودينس شغبا في الشارع المائة والخامس ذات مرة. طاردتنا مجموعة من الرجال البيض على طول الشارع وطوقوا دينس وحاولوا قتله، يرمون زجاجات عليه ويضربونه ويرفسونه إلى أن أجبر أحدهم الآخرين على التوقف وقال، «اخرجا من هنا ما دمتما قادرين»، وهربنا. تعرف، لم تدم معظم حالات الزواج بين العرقين. هذا ما كان يقوله دينس عندما نتجادل. فكنت أقول، «سوف أترك»، ويقول، «تفضلي، افعلي ذلك، هذا ما يريد الناس أن نفعله، وهذا ما يتوقعونه». وكان على حق.

تعلم أن الزواج يحتاج إلى الحب، والله، وقليل من المال. هذا كل شيء، أما الباقي فبإمكانك معالجته، ولا تتعلق المسألة بالأسود أو الأبيض، بل بالله، ولا تسمح لأحد أن يقول لك ما يختلف عن ذلك. كل ذلك الحديث عن حمى الأدغال! إن حمى الأدغال تنتهي ياعزيزي، وماذا تفعل بعد ذلك؟ أقول هذا عندما أعود بذاكرتي إلى الماضي، لأن دينس كان يخشى أن يتزوجني في البداية، وكنا نتصرف وكأننا زوج وزوجة ونستمتع بالحياة، فلم يهمني أننا لسنا متزوجين. كانت غرفتنا الصغيرة في الشارع المائة والتاسع والعشرين المتفرع من الجادة السابعة في وسط كل النشاطات في هارلم، وكانت الاستعراضات والشخصيات الرفيعة تسير على طول الجادة السابعة في تلك الأيام، وكان آدم كليتون باول يقف على منصة في الشارع المائة والخامس والعشرين ويلقي خطابات سياسية، ومالكولم اكس أيضا. وفي أيام السبت كنا نذهب إلى مسرح أبولو، وإذا وصلنا قبل الساعة الحادية عشرة صباحا، كان من الممكن الجلوس طوال النهار ومشاهدة ثلاثة

عروض، وكانت تبدأ بأفلام إخبارية عن الحرب وأفلام فكاهية قصيرة ورسوم متحركة، أو أحيانا فيلم كاوبوي مع هوتس تبيكون، أو فيلم موسيقي مع جانيت ماكدونالد ونلسون ادي. ثم في الساعة الواحدة بعد الظهر كانوا يعزفون لحن أبولو الخاص، وتبرع الفرق الموسيقية، كاونت بيسي ودوق الينغتون، وجيمي لنسفورد، ولويس جوردان، وبيلي هوليدي، وبيلي اكستين. وكان هؤلاء العازفون يعملون وكأنهم عبيد، ويقدمون ثلاثة عروض يوميا. ثم نذهب يوم الأحد إلى كنيسة المدينة المعمدانية على الزاوية بين الشارع المائة والثامن والعشرين وجادة لينوكس لنسمع خطبة القس آبنر براون.

كان ذلك الرجل أعظم خطيب سمعته حتى يومنا هذا، بإمكانه أن يجعل الضفدع يقف منتصبا ويجد السعادة مع المسيح، ولم نسمع أحدا مثله أبدا، لم يتكلم عن النار والجحيم، بل كان يدخل الله إلى الحياة اليومية بطريقة تجعلك تعتقد بأن الجنة هي أقرب ما تكون إليك. كان أهل هارلم يحبونه، وكانت ميترو بوليتان كنيسة المدينة في هارلم آنذاك. وكانت الكنيسة الحبشية كنيسة كبيرة أيضا، ولكن الناس كانوا يصطفون على طول الشارع المائة والثامن والعشرين من أجل الدخول إلى كنيسة ميتروبوليتان وكأنها حفلة موسيقية. من لم يقف على الرصيف ابتداء من الساعة التاسعة من صباح يوم الأحد لحضور قداس الساعة الحادية عشرة فسيضطر إلى الوقوف في الممر، على الرغم من اتساع مقاعد الكنيسة إلى حوالي ألفي شخص. كانوا يقيمون قداسين في آن واحد، أحدهما في الكنيسة الكبيرة في الطابق الأعلى والآخر في الطابق الأسفل بسبب شدة الازدحام. كان دينس شماسا ينشد في مجموعة منشدي الكنيسة، التي كانت مجموعة عظيمة. ما أجمل تلك الفترة التي اعتبرها سنين مجدي!

لقد توسع عالمي بسبب دينس. هو الذي علمني أموراً لم أسمع بها

من قبل. كان يتأمل كل يوم لمدة خمس عشرة دقيقة، وذلك منذ سنين، حيث تعلم حتى الأطفال قبول هذه الطقوس، وكان يؤمن بالمساواة في الحقوق، وبالعلم والكتب، وأعلمني عن أشخاص مثل باول روبسون، وباول لورنس دنبار، وجو لويس. وكان يحب فريق بروكلين دوجرز - دون نيوكوم، وروي كمبانيلا، وجاكي روبنسون - وبشكل خاص جاكي روبنسون، وكان يقول إن «جاكي روبنسون أثبت قدرة الزنجي على لعب الرياضة». وتعلمت أن آكل وجبتي الرئيسية في المساء بدلا من العصر، وأصبحت آكل ما أريده بدلا من طعام الكشير، واستخدام طقوم صحون مختلفة لكل وجبة، وتناول أطباق لحوم فقط أو أطباق ألبان فقط. كما ذقت فلذات خنزير وأحببتها، وأكلت القمح مع الشوفان، والبيض، والبسكوت، والزبدة، ولحم الخنزير المدخن، والملفوف المكعبر، ومفاصل أرجل الخنزير، وكل أنواع الطعام التي لم أتمكن من تناولها من قبل. ولكنني لم أستطع الكي ولا تنظيف البيت ولا الطبخ، ولم أتعلم الطبخ في صغري، حيث إني كنت أعمل طوال النهار في المتجر فيما تطبخ أمي طعام الكشير، وكان تاته يستأجر سيدة سوداء لتأتي لمساعدة أمي مرتين. كان زوجي يطبخ أحسن مني، وعندما بقيت في المنزل بعد طفلنا الأول اضطررت إلى تعلم الطبخ من صديقتي السوداوين سوزي بلتون وآيرين جونسون. وكانت سوزي بلتون وزوجها ادوارد يقيمان في غرفة بجانب غرفتنا في هارلم، وكانت غرفة سوزي في غاية النظافة وفيها ستائر ودانتيلا حول النافذة والسرير، فيما كانت غرفتي دائما في فوضى عارمة.

قلت لدينس في العام ١٩٤٢، بعد وفاة أمي ببضعة أشهر، «أريد أن أقبل المسيح في حياتي وأدخل الكنيسة». وأجابني دينس بالسؤال، «هل أنت متأكدة أنك تريدين أن تفعلي هذا يا روث؟ هل تعلمين ماذا يعني هذا؟»، وقلت له، «إني متأكدة، وكنت متأكدة تماما».

وفي يوم أحد بعد ذلك ببضعة أسابيع، كنا في كنيسة المدينة

وشعرت بإلهام، وعندما سأل القس ابنر براون إذا أراد أحد الانضمام إلى كنيسة المدينة في الأخوة المسيحية، خرجت إلى الممر ومشيت إلى مقدمة الكنيسة. صافحني القس براون كما صافحني جميع الشماسين، ولم أتردد منذ ذلك الوقت، وقبلت المسيح في ذلك اليوم، ولم تخب آمالي حتى يومنا هذا. أصبحت فيما بعد سكرتيرة الكنيسة، أطبع رسائل لصالح القس براون، وأشهد أحيانا مراسيم الزفاف التي كان يجريها في مكتبه، لأنه لم يكن هناك أحد غيري، ويحتاج الزفاف إلى شاهدين. ونتيجة لمشاهدتي كل مراسيم الزواج فقد أصبحت أتوق لأصبح أنا نفسي زوجة، فها أنا سكرتيرة الكنيسة ودينس شماس ثابت، ولم نتزوج بعد، وهذه فضيحة لم أستطع التعايش معها، فقلت لدينس ذات ليلة، «يجب علينا أن نتزوج» ولكنه تردد. وأجابني، «لقد ترعرعت في الجنوب، ويمكن أن أقتل هناك لأني تزوجت امرأة من العرق الآخر». وقلت له، «هذا ليس الجنوب، بل نحن في نيو يورك، وأنا مسيحية جديدة أمام الله، ولن أعيش في حالة خطيئة بعد الآن». وقلت إني سأتركه إذا لم نتزوج، مما أحرجه. تردد وارتبك طويلا، مما جعلني أخرج وأدفع رهنا على غرفة، وعندئذ قال لي، «لا داعي لذلك، يا روث. إنني أحبك وأريد أن أتزوجك إذا أردت». يا له من رجل.لقد أحببته، وكان ألطف رجل عرفته في حياتي، وكان جميع أصدقائه من كارولاينا الشمالية الذين يقيمون في هارلم يأتون لزيارته، وكانوا يصرخون باتجاه نافذتنا، «يا دينس.. يا دينس!»، وكان يدعوهم إلى الدخول ويضيفهم على آخر طعام لدينا أو يعطيهم قميصه لو طلبوا ذلك منه. جاء من منزل اعتبر فيه الإحسان نمط الحياة، وأردت الدخول في مثل هذه العائلة، وتشرفت بالانضمام إليها، وكان أفرادها سعداء بقبولي.

كان علينا أن نلتقي في مجمع المدينة في يوم سبت لنأخذ رخصة زواجنا لأن كلا منا يعمل في أيام الأسبوع، وكان يتعين على دينس العمل صباح ذلك السبت أيضا. كان قد ترك مصنع خالتي ماري

بحلول ذلك الوقت ليعمل عند شركة ماكوي للنشر، وهي شركة صغيرة للطلب بالبريد تزود الجماعة الماسونية بالشعارات والمآزر والكتب. ورتبنا أن نلتقي أمام البلدية في الساعة الثانية، ووصلت إلى هناك في الساعة الثانية تماما وانتظرت لحوالي ساعة من الزمن. وعندما بدأت أنصرف ظنا مني أنه لن يأتي، ظهر وقال، «لن تتخلصي مني بهذه السهولة».

حدق الناس فينا كثيرا وتهامسوا وأشاروا إلينا ووجهوا أسئلة تافهة عندما ذهبنا إلى مكتب الزواج لنأخذ رخصتنا. وكان الكتاب سيئين للغاية، ولم يرغب أحد في تسجيل المعلومات عنا، ولكنا لم نسمح لهؤلاء الأغبياء بتخريب زواجنا. حصلنا على الرخصة، وزوجنا القس براون في مكتبه الخاص في الكنيسة. وكنت قد أخبرته بالحقيقة عن عدم زواجنا أنا ودينس، وقال، «لا تقلقي، سوف أزوجكما وأسكت عنه». واكتشفت في وقت لاحق أن العديد من أعضاء الكنيسة كانوا قد عاشوا معا كزوج وزوجة لسنين دون زواج، وأن لبعضهم أولادا كبارا. وكان القس براون قد زوجهم جميعا في وقت لاحق، فهذا ليس أمرا جديدا بالنسبة له. وكان حارس الكنيسة ومساعد آخر في الكنيسة شاهدينا. وأقمنا حفلتنا فيما بعد في شقة صديقينا سام وترافينا «روث» ولسون على مفرق الشارع المائة والثالث والجادة الثالثة. فزينا الشقة برايات طويلة من النسيج الوردي والأبيض، ووضعنا صواني جميلة عليها سندويشات ومأكولات أخرى شهية وحلويات وقهوة، وجاء القس براون لينضم إلينا. كانت حفلة جميلة لنا الخمسة فقط. إنني لا أحتاج إلى مليون وردة ولا فرقة موسيقية. كنا جالسين في شقة روث نتناول القهوة في حفلتنا، وقال لي زوجي (وأقول «زوجي» بفخر)، «علينا أن نكون أقوياء. تعرفين ماذا سيقول الناس عنا ياروث. سوف يحاولون تفريقنا». وأجبت، «أعلم ذلك، وسأكون قوية». واختبرنا عبر السنين، ولكنا لم نفترق أبدا، ولم نقض حتى ليلة واحدة بعيدين بعضنا عن بعض إلا عندما أخذ الأطفال إلى كارولاينا الشمالية

لزيارة والديه، ولم أستطع أبدا زيارة الجنوب معه بسبب الخطر. كانت المرة الأولى التي زرت فيها الجنوب معه هي المرة الأخيرة، عندما أخذت جثته إلى هناك لدفنها.

بعد ولادة طفلنا الأول في العام ١٩٤٣، انتقلنا إلى غرفة واحدة مع مطبخ صغير إيجارها ستة دولارات في الأسبوع على الجانب الآخر من الشارع، وكانت لدينا مغسلة، وسرير، وخزانة للصحون، وموقد، وصندوق مبرد صغير.. كان رجل يأتي مرة في الأسبوع ليضع ثلجا فيه. كان كل أثاثنا قطعا قد وجدناها أو اشتريناها من متجر وولورث، وكانت تنطوي: كراسي تنطوي، وطاولات تنطوي. كانت نافذتنا تطل على زنقة وجدار البناية المجاورة التي كانت قريبة للغاية، بحيث لا يتضح إذا كانت تمطر أو تثلج في الخارج، ويتعين على الإنسان إخراج رأسه لمعرفة طبيعة الطقس، وكانت غرفة الحمام في الردهة ويستخدمها جميع المستأجرين، والصراصير في كل مكان، ومهما قتلت منها يأتي غيرها. كنت أضع قبعتي للكنيسة على رف في صندوق خاص، وكل يوم أحد عندما أرفعه لأخذ قبعتي، كانت الصراصير تزحف منه. كان لنا أربعة أطفال في هذه الغرفة، وكنا نستخدم جوارير الخزانة كمهود، وكان الأطفال ينامون معنا أو على أسرة صغيرة تنطوي. لقد عشنا في تلك الغرفة الواحدة لمدة تسع سنوات، وكانت أسعد سنوات عمري.

تعرفت إلى امرأة بيضاء مثيرة للاهتمام في ذلك الوقت، هي صديقتي ليلى، رأيتها ذات يوم في الحديقة عند الشارع المائة والسابع والعشرين وأنا في مشوار مع أطفالي ومعها طفلان. كانت بيضاء وطفلاها يشبهان أطفالي، فبدأنا نتكلم. كانت يهودية من عائلة غنية من فلوريدا، وكانت راقية جدا وتهتم بالكتب والأوبرا، وكانت لنا أرضية مشتركة، أن زوجينا أسودان، وكان زوج ليلى كاريبيا، وهما عضوان في حركة الشباب الشيوعية. وكان هذا يعني مشاكل في ذلك العصر،

فربما كانت الحكومة تراقبهما أو ما شابه ذلك. لم نؤيد الشيوعية، أنا ودينس، بل كنا مع المسيح، ولكن صداقتي مع ليلى استمرت فترة طويلة إلى أن انتقلت إلى كاليفورنيا. تركها زوجها لإقامة علاقة مع امرأة أصغر، وكانت ليلى أكثر مما يستحق على كل حال. كان يغازل أي أنثى، وغازلني أيضا في الواقع عندما لم تكن موجودة، ولكني رفضته. انضمت إلى طائفة هاري كريشنا أو إحدى تلك الديانات الغريبة، وتزوجت مرة ثانية في وقت لاحق، من رجل أبيض هذه المرة. وكان من المفروض أن أقوم بزيارتها في أوائل السبعينيات، ولكنها أرسلت لي رسالة سيئة قبيل زيارتي طلبت مني فيها عدم المجيء، وكتبت الكثير من الأشياء السيئة والمهينة الأخرى، فألغيت رحلتي ولم أسمع عنها بعد ذلك. لا أعرف لماذا تصرفت هكذا، وأعتقد بأنها ربما عانت من مشاكل مع أطفالها. ربما كان هذا هو السبب، لأننا تراسلنا عبر السنين، وكنت أكتب دائما عن أطفالي، ولكن أطفالها عانوا من بعض المشاكل.

كبرت عائلتنا بسرعة، وسرعان ما أصبحنا أنا ودينس محشورين في تلك الغرفة الواحدة مع أربعة أطفال، وقدمنا طلبا للحصول على شقة في مشاريع رد هوك السكنية في بروكلين، فوضعونا على قائمة انتظار طويلة وقالوا، «لا تتوقعوا كثيرا»، لأن الدخول إلى هناك يتطلب نفوذا سياسيا، ولكن الله وجد لنا طريقة، ودخلنا في المشروع عام ١٩٥٠.

لقد أعطونا شقة ذات غرفتي نوم مع حمام في الطابق السادس في رقم ٧٩٥ شارع هيكس، وكان أروع ما فيها ان لدينا حماما خاصا بنا. كانت الأرضية والجدران من أسمنت صاف، وتعرض الأطفال لجراح ورضوض من السقوط على الأرض، واضطررنا إلى تبديل الكؤوس والصحون بأوان بلاستيكية، لأنها تنكسر إذا سقطت على الأرض. لكن مشروع رد هوك السكني كان جميلا في تلك الأيام، كان هناك وئام بين الإيطاليين والبويرتوريكيين واليهود والسود، وكان

هناك عشب في الممشى في وسطه، وملعب بمزالق وقضبان للتسلق، وكانت حياة أمريكية حقيقية، الحياة التي كنت أحلم بها دائما. كنت أقبل دينس في الصباح عندما يغادر إلى العمل، وأقف عند النافذة لدى عودته إلى المنزل في المساء أراقبه وهو يدور حول الزاوية ويمشي في الممشى في الوسط. إنني أتذكره بوضوح .. مشيته وقميصه الأبيض وحذاءه، وكان الأطفال يركضون إلى الأسفل لاستقباله، ويلتفون حول ساقيه. وكان يحضر مواد بقالة من متجر أي اند بي ومفاجأة للأطفال.. كعكة صغيرة من غدائه، أو علكة. فكنت أحب هذا الرجل، ولم أفتقد منزلي ولا عائلتي أبدا بعد زواجي، وكانت روحي مشبعة.

كنا نحضر كنيسة المدينة لمدة سنتين بعد انتقالنا إلى رد هوك، ولكن القس براون توفى من سكتة قلبية مفاجئة، وأصبح التنقل بمترو الأنفاق للمسافة الطويلة من هارلم كل يوم أحد مع كل أطفالنا مشوارا شاقا. وإضافة إلى ذلك، قرر دينس الالتحاق بمهنة الوعظ، وقال إنه يريد تأسيس كنيسة، فأقلع عن شرب الجعة والتحق بكلية شلتون للكتاب المقدس، ونال شهادته في اللاهوت من هناك في العام ١٩٥٣، ثم خرجنا لندعو جيراننا من رد هوك لحضور اجتماع للصلاة في منزلنا مساء الأربعاء وصباح الأحد. كان أول الحضور السيدة انغرام، وعراباك الزوجان ماكنير، وعائلتا فلاد وتيلور. وكنت أنظف الطاولة وأضع عليها غطاء أبيض لتكون منبر دينس، وبعد أن تم ذلك الأمر ونجح ، قال إنه يحتاج إلى الحصول على كنيسة، وسألته، «كيف يمكن أن نتحمل تكاليف كنيسة؟»، فكنا بالكاد نستطيع إطعام أطفالنا براتبه الضئيل، وكان عدد أطفالنا قد ارتفع من أربعة إلى خمسة وإلى ستة ثم إلى سبعة. وبعد قليل أصبحوا يأتون كالبيض، وكنا نحبهم، ولكني لم أر كيف نستطيع أن نتحمل تكاليف كنسية مع كل هؤلاء الأطفال. أما أختك هيلين، فلم أزر عيادة قبل ولادتها ولا ما شابه ذلك، بل دخلت المستشفى ووضعتها وكأنها بيضة وعدت إلى المنزل. أطعمناهم من وجبة إلى وجبة، وكنت أشتري ملابسهم

وهداياهم لعيد الميلاد من غودويل، وأتمشى معهم وأسمح لهم أن يلعبوا في الخارج. وكنت أضع اثنين منهم في عربة أطفال وإثنين بجانبي، والبقية بالقرب مني، وكان الله يحفظهم.

ظل دينس يبحث حتى وجد بناية فارغة ورخيصة بالقرب من رد هوك. لم يرد صاحبه الأبيض إيجارها إلى سود، فذهبت إلى هناك ووقعت العقد بنفسي، وعندما رآني الرجل مع أبيك وعرابك ندخل إلى هناك في اليوم التالي نحمل علبا من الدهان وأدوات لتزويقها، أراد استعادة البناية، ولكنه لم يعد يستطيع ذلك. وأسميناها كنيسة براون التذكارية الجديدة، على شرف القس براون. دعم الأعضاء الجدد استمرارها، وبعد أن جمعنا حوالي ستين شخصا على أساس منتظم، انتقلنا إلى بناية فيها تدفئة عند رقم ١٩٥ شارع رتشاردز، لأن دينس كان يحمل مدافىء في البناية الأولى التي كانت باردة للغاية، واستمرت كنيستنا بشكل جيد حتى أوائل ١٩٥٧ حين عاد دينس من العمل وهو مصاب بزكام شديد، وكان مبحوحا لدرجة جعلتني أجبره على الراحة، وكان مبحوحا في سريره لمدة ثلاثة أسابيع تقريبا.

كان يدخن سجائر لاكي سترايك من دون فلتر، وأصبح مبحوحا من حين لآخر من الوعظ لعدم وجود تدفئة جيدة في الكنيسة، وكنا في شهر يناير والطقس بارد في الخارج، ولكني لم أهتم بالموضوع. فتدهور وضعه بحيث لم يتمكن من النهوض من السرير ولم يأكل، وارتفعت درجة حرارته فأخذته إلى مستشفى سانت بيتر. حدق الناس فينا كثيرا في المستشفى عندما دخلنا إلى هناك، كما حدق الأطباء والمرضات فينا وسألونا، «من هذا؟» و«هل أنت زوجته؟»، وما إلى ذلك، ولكني تجاهلتهم، وكنت أريد فقط أن يخرج دينس ويعود إلى المنزل لأننا نفتقده أنا والأطفال، فكان عالمنا كله يدور حوله. كان الأطفال يجلسون ويتأملون مثله، ثم يتباهون وهم يعرضون تأملاتهم عليه عندما يعود إلى المنزل. ولم تسمح أختك روزيتا لأحد، حتى أنا، بالجلوس في

كرسيه طالما كان في المستشفى، فهذا كان ممنوعا على الجميع.

لقد مرض مرضا خطيرا بسرعة على ما يبدو، فكان يتمشى ذات يوم، وفي اليوم التالي كان مبحوحا ونقل إلى المستشفى، ولم يعرف الأطباء ما به. قال أحدهم إن المشكلة في رئتيه، وقال آخر إنها في غدة البانكرياس، وكانوا يماطلون عندما أسألهم، وكانوا يتكلمون إلي عنه بتعبيرات عامة، ثم يذهبون إلى الردهة ويشيرون إلي بذقونهم ويدلون بملاحظات عني وعن دينس اعتقدوا بأني لا أستطيع سمعها. وكنت أسمعها ولكني تجاهلتها، وكانت أفكاري مركزة على زوجي. وفي طريق عودتي إلى المنزل من المستشفى كل يوم، كانت صديقتي ليليان تخرج رأسها من نافذتها في مشروع السكن وتسألني، «كيف حال القس ماكبرايد؟» ،وأجيب، «لم يأكل اليوم»، وتقول، «على كل حال، ستتدهور صحته قبل أن تتحسن»، وفي أحد الأيام كنت ابتسم عندما مررت بنافذتها وأشعر بالفرح وأنا أخبر ليليان، «لقد أكل ليمونة هندية اليوم»، وقالت، «تعرفين أني قلت لك إن صحته ستتدهور قبل أن تتحسن»، ولكنها لم تتحسن، بل تدهورت أكثر فأكثر، وخلال تلك الفترة لم يأتني الحيض. كان لي سبعة أطفال ولم يكن لدي الوقت للتفكير في الحيض، واعتقدت بأن ذلك يعود إلى التوتر لأن دينس بقي في المستشفى أكثر مما أردت. ولكن عندما أخبرته بذلك، قال، «إذا كان صبيا سنسميه جيمز على اسم عمي جيم»، وهكذا تمت تسميتك. تعرف أني لم أعتقد بأنه سيموت، لم تكن لدي أي فكرة، ولكنه عرف، لأنه أسماك، وكان يبدي ملاحظات مثل، «اعرف أن السيد المسيح سيعتني بكم جميعا لو حدث لي شيء. لا تقلقي، يا روث، ثقي بالله». ولم أتحمل مثل هذا الكلام، وكنت أجبره على التوقف عنه.

وكنت أخرج أحيانا إلى ردهة المستشفى وأبكي لكي لا يراني دينس، وكنت واقفة هناك ذات ليلة ابكي ومر طبيبان أبيضان وسألا، «من أنت؟» لأن ساعات الزيارة العادية قد انقضت، فأشرت إلى غرفة دينس

وقلت، «إن زوجي هناك»، وتصرفا ببرود واشمئزاز، وتكلما عني أمام وجهي وانصرفا.

وبعد ظهر أحد الأيام بعد أن قضي دينس بضعة أسابيع هناك، ذهبت لزيارته فكان يهزل من عدم تناول الطعام، وسألني، لماذا لاتحضرين أطفالنا ليروني؟»، وأجبته، «لا يجب أن نفعل ذلك»، لأن لهم المدرسة، ولا يسمحون بدخول الأطفال إلى المستشفى، ولا يمكنني إدخال سبعة أطفال إلى هناك. وفي الواقع لم أكن أريد أن يروه في تلك الحالة - وكان أكبرهم في الثالثة عشرة - ولكنهم أرادوا فعلا أن يروه أيضا، فقال، «حسنا، سأمر بهم أمام المستشفى، وبإمكانك رؤيتهم من النافذة». كان في الطابق الثاني، فعدت إلى المنزل وجمعت كل الأطفال وأحضرتهم إلى المستشفى ووقفوا في الشارع ونادوه، «يا بابا، يا بابا!»، وجاء دينس إلى النافذة في ثوب الحمام ونظر إليهم ولوح بيده، ومن التعبير على وجهه وهو يقف هناك يلوح بيديه إلى الأطفال الذين استمتعوا كثيرا برؤيته، أصابني شعور مخيف في قلبي، وقلت لنفسي، «يارب، لا تجعله يموت، إنه زوجي، إنه حلمي. لا تجعله يموت الآن، يارب». ولم تكن لدي فكرة عما يجب أن أفعله، وكان يبدو لي أنه لن يحدث، وعدت إلى المنزل ودعوت الرب ألا يأخذ زوجي، ثم توفى بعد ذلك ببضعة أيام.

يارب.. لقد توفى.

كنت في المنزل وتلقيت اتصالا هاتفيا من طبيب في المستشفى حوالي الساعة السادسة صباحا، وسألني إذا كنت السيدة ماكبرايد، وأجبته بالإيجاب، فقال، «لقد توفى السيد ماكبرايد لتوه»، وقلت، «هذا مستحيل، إنه لم يكن مريضا لهذه الدرجة». وقال الطبيب، «كان مصابا بالسرطان»، وقطع المكالمة، وهذه هي المرة الأولى التي اخبروني فيها بأنه أصيب بالسرطان، ولم أسمع بذلك من قبل، فوقفت هناك انظر من النافذة إلى مشروع السكن. كانت بداية النهار في الخامس من أبريل في العام

١٩٥٧، وأتذكر ذلك اليوم تماما. نظرت إلى الخارج وغمرني سواد، وشعور بالخوف وكأني أغرق في السواد. واستيقظ الأطفال والتفوا حول بعضهم يبكون وبدأت أبكي، لقد مات جزء مني مع وفاة دينس، وكنت أحب هذا الرجل أكثر من الحياة نفسها، وأحيانا كنت أتمنى لو أخذني ربنا بدلا منه، لأنه كان شخصا أفضل مني بكثير يستحق أن يعيش، وكان لديه أكثر بكثير ليعطيه للعالم مما كان لدي، فكان قد منحني حياة جديدة، وأحياني بعد أن تركت عائلتي، وعرفني على المسيح، وفتح عيني على عالم جديد، ثم توفى، يارب، كان صعبا، كان يصعب علي الاستغناء عنه، وكنت غاضبة منه لفترة بعد ذلك لأنه توفى وتركني مع كل هؤلاء الأطفال، وأكثر من ذلك كنت أفتقده.

ودفناه في هاي بوينت بولاية كارولاينا الشمالية، وكنت في حالة صدمة لوقت طويل، وعمتك كانديس وأختك جاك هما اللتان أخذتانا أنا والأطفال معا إلى الجنازة في بروكلين، ثم إلى كاروليـنا الشمالية للجنازة هناك. كانت المرة الأولى والأخيرة التي ذهبت فيها إلى الجنوب معه. لم أستطع أن أتركه بعد الجنازة في بروكلين، وكنت أفضل أن أركب مع جثته في مؤخرة القطار لو سمحوا لي بذلك، ولكنهم لم يسمحوا لي، ولكني ركبت في القطار وقلت لنفسي، «سوف آخذه إلى مسقط رأسه. سوف آخذه إلى مسقط رأسه لأراه يدفن هناك»، ولم يكن بإمكان أي رجل أبيض ولا رجل أسود أن يمنعني من ذلك، وأحلف أمام الله العظيم أنه لو وقف أحد حاجزا أمامي لمنعي من ذلك لصرعته. عند وصولنا إلى محطة القطار في هاي بوينت، ذهب عم دينس، جيم، ليطالب بالجثمان عند المنضدة وذهبت معه، وقال الرجل الأبيض عند المنضدة، «لمن هذه الجثة؟» وقلت، «لي»، وظل ينظر إلي وإلى العم جيم.

وسألنا مرة أخرى، «لمن هذه الجثة؟»، وحاول العم جيم أن يقول إن الجثة معه، لتجنب المشاكل مع الرجل الأبيض، ولكني قلت للعم جيم، «لا ، يا عمنا جيم، هذا هو زوجي هنا»، وقلت للرجل، «هذا هو

زوجي، وجئت إلى هنا لدفنه، وهو معي». أحدث ذلك شيئا من الارتباك، ولكنه لم يسبب لنا إزعاجا، وسلم الجثمان لي وللعم جيم، ودفنا دينس في مقبرة بورنز هيل. كنت في السادسة والثلاثين آنذاك، وكنت قد أمضيت ما يقارب ستة عشر عاما مع دينس، ولم أفعل شيئا من دونه. وأتذكر أني كنت أتمشى في مشروع السكن مع أطفالي السبعة وأبكي - حيث كنت أجهش بالبكاء في وسط النهار أحيانا - وكانت أختك هيلين في التاسعة تقريبا، وقالت، «لا تبكي، يا أمي، إن أبي في الجنة»، مما جعلني أبكي أكثر، وكان وقتا صعبا للغاية.

لدى عودتنا إلى نيويورك بعد دفن دينس، فتحت صندوق بريدنا ووجدته مليئا بالشيكات والحوالات المالية والنقود في ظروف من سكان مشروع السكن الذين يعرفوننا، وأشخاص من كنيسة المدينة في هارلم، عشرات من الرسائل التي تتضمن شيكات وأموالا، لن أنساها ما دمت حية. كما أرسل إلينا الناس برتقالا وتفاحا ودجاجا وديوكا رومية وملابس، وإذا كان لدى أحد أي شيء فائض كان يعطينا إياه، وأرسل البيض في محل عمله، شركة ماكوي للنشر، أموالا إلينا، كما ساعدت أختك جاك، والعمة كانديس التي جاءت من كارولاينا الشمالية لتنزل عندنا، وعراباك الزوجان ماكنير، وعائلة انغرام، وصديقتي القديمة آيرين جونسون، ولكننا ناضلنا حتى مع مساعدتهم.

ضاقت يدي حيث عدت إلى عائلتي اليهودية لأستغيثها. زرت خالتي بتس التي كانت قد تزوجت رجلا غنيا وتعيش في بناية فخمة فيها ناطور في الجانب الشرقي من مانهاتن. اضطررت إلى إقناع الناطور بالسماح لي بالدخول. وفتحت خالتي بتس باب شقتها عندما طرقته، وعندما رأت من أنا، أغلقت الباب بعنف في وجهي، فخرجت من هناك وبكيت علنا على الرصيف، ثم اتصلت بأختي غلاديس المقيمة في منطقة كوينز، وقالت لي، «لقد وعدتني أنك لن تغادري»، وقلت لها إني متأسفة، ولكنه لم يسرها أن تسمع مني، وقالت لي،

«اتصلي بي غدا»، غير أن زوجها رفع السماعة عندما اتصلت في اليوم التالي، وقال، «لا تريد أن تتكلم معك. فلا تتصلي بنا مرة أخرى أبدا». فترى، لقد انتهوا مني. عندما يصلي اليهود صلاة الحداد ويقومون بالحداد لمدة سبعة أيام، يعفيهم ذلك من أي مسؤولية عن الشخص المعني، ويعتبرونه ميتا. كنت وحدي عندئذ، ولكني لم أكن وحدي، لأن الله يرعاني كما قال دينس، وأرسل إلي زوجي الثاني الذي تولى المسؤولية وأنقذنا وعمل الكثير من أجلنا. لم يكن قسيسا مثل دينس، بل كان يختلف عنه، وكان عاملا لم يتأخر أبدا على العمل خلال ثلاثين عاما، عمل خلالها لصالح سلطة إسكان مدينة نيويورك، وكان رجلا جيدا وصالحا. لقد تعرفت إليه بعد ولادتك، وطلب مني الزواج بعد قليل، وقالت لي العمة كانديس، «تزوجي هذا الرجل، يا روث، تزوجيه!»، وكانت تنظف البيت تنظيفا كاملا وتطبخ وجبات طعام رائعة عندما يزورنا زوجي الثاني لتبييض وجهي. كان يعتقد بأني أطبخ هذه الوجبات الشهية، وأنا لا أستطيع الطبخ على الإطلاق. ولدى اعترافي بالحقيقة، قال إن ذلك لا يهم، وإنه يريد أن يتزوجني مهما كان الأمر، على الرغم من رأي إخوته بأنه مجنون، لأن لدي ثمانية أولاد! ولكني لم أكن مستعدة للزواج، ورفضته ثلاث مرات. وأخذتك إلى كارولاينا الشمالية لأعرفك على والدي دينس، أيتا وناش، في اواخر عام ١٩٥٧ - ولم يعيشا سوى أربع أو خمس سنوات بعد وفاة ابنهما الوحيد - وعندما أخبرت جدتك ايتا بأنني أفكر في الزواج مرة أخرى، قالت لي، «أسعدك الله، يا روث، لأنك ابنتنا الآن. تزوجي هذا الرجل». وهكذا كان تفكير السود في ذلك الوقت، ولهذا السبب لم أحد أبدا عن الجانب الأسود، ولم أفكر أبدا في الزواج من رجل أبيض. وعندما أخبرت زوجي الثاني كيف عاملتني أختي وخالتي بتس، تكلم عنهما دون مرارة او كراهية، وقال، «لن تحتاجي إليهما لمساعدتك، وسأساعدك حتى آخر عمري إذا تزوجتني». وهكذا فعلت، وبارك الله فيه، فقد أوفى بوعده.

(٢٤)

كنيسة براون الجديدة

«تعالوا إلى الله! إن عمل الله هو البركة!»

إنه الاحتفال بالذكرى الأربعين لكنيسة براون التذكارية الجديدة المعمدانية في أكتوبر ١٩٩٤، ويقف شماس أمام الحاضرين لتجميعهم للصلاة. وعلى الرغم من وجود كنيسة براون الجديدة في بروكلين، فإن مجموعة المصلين الستين يجتمعون في غرفة الولائم الصغيرة في فندق رمادا عند مطار لاغوارديا بمنطقة كوينز، بسبب معرفة أحد المصلين بأحد الطباخين الذي رتب خصما للكنيسة. إن الخدمة ليست على مستوى أربع نجوم مثل فندق بلازا، ولكنها تفي بالحاجة. الغرفة رطبة ومظلمة وباردة، واللحم سيئ، والندل مشغولون. كان أحدهم قد اقترح استئجار فرقة موسيقية تنشد من الإنجيل، فيها عازف على الأرغ يلبس نظارات سوداء ويعزف بصوت أعلى مما يجب، ولكن أحدا لم يعترض. وهذه هي ليلة احتفال، ويرتدي كل أعضاء الكنيسة أحسن ملابس لديهم. تقف كنيسة براون الجديدة قوية منذ أربعين عاما، وهي متواجدة في مشروع سكن رد هوك، الذي هو أحد أكبر مشاريع السكن في مدينة نيويورك وأكثرها إهمالا. ويناضل المصلون منذ أربعين عاما ويثابرون وينشرون كلمة الله. هذه هي كنيسة أمي الأهلية، وهي الكنيسة التي تزوجت فيها، وهي الكنيسة التي بناها أبي اندرو ماكبرايد.

لم يعش ليرى أحلامه تتحقق، ولكن عندما أتصفح حقيبته البنية القديمة المليئة بأعماله الكتابية التي أنجزها منذ خمسة وأربعين عاما، يتضح من الملاحظات والأوراق التي خلفها رجل يفكر تفكيرا متواصلا: إشارات إلى دوستويفسكي، وفولكنر، وباول لورنس دنبار، وجاكي روبنسون، وكمية كبيرة من الكراريس المليئة بالخطب والآيات

من الكتاب المقدس. وكانت كتاباته حافلة بالإشارات إلى أسفار أخبار الأيام وإشعياء وانجيل يوحنا والرسالة إلى أهل فيلبي. وكتب، «أحيانا تدخل أفكارنا وإيماننا ومصالحنا في الماضي، دون إدراك واع، ونتكلم عن العصور الأخرى والأماكن الأخرى والأشخاص الآخرين، ونفقد إمساكنا الحي بالحاضر. ونعتقد أحيانا بأننا لو استطعنا العودة إلى الماضي سنكون سعداء، ولكن أي إنسان يحاول الدخول في الماضي من جديد لابد أن تخيب آماله، وأي شخص يزور مسقط رأسه بعد سنين من الغياب يصدم بالفروق بين حالة المكان الراهنة وذكرياته عنه. ويمكن أن يمشي في شوارع وطرق قديمة ومألوفة، ولكنه غريب في أرض غريبة. وكان يعتبر هذا المكان موطنه، ولكنه يجد أنه لم يعد هناك حتى في روحه، فقد انتقل إلى حياة جديدة ومختلفة، وفي تشوقه إلى الماضي فهو يفكر ويهتم بشيء لم يعد موجودا في الواقع. وبما أن هذا ينطبق على الذات الجسدية، فإنه ينطبق أكثر بكثير على الذات الروحية...» وكان يكتب آيات من الكتاب المقدس على أي شيء يجده مثل قطع صغيرة من الورق وفق جداول مواعيد القطارات. وبجانب بعض الآيات كان قد كتب أسماء وأرقام هواتف أطباء أعتقد بأنهم ربما استطاعوا مساعدته أو معالجته من سرطان الرئة الذي قتله وهو في الخامسة والأربعين، ولكنهم لم يستطيعوا مساعدته حينئذ، فقد حان موعد رحيله وعلم ذلك.

لم يورث أي بوليصة تأمين ولا مهر ولا أرض ولا مال لزوجته الحامل وأطفاله الصغار، ولكنه ساعد في إقامة الأساس لقيام أمي بتربية اثني عشر طفلا على مدى ثلاثين عاما ـ وهو عدم السماح للأطفال بالخروج بعد الساعة الخامسة مساء، وبقاؤهم في المدرسة، وعدم متابعة الناس في ما يفعلون، بل اتباع المسيح ـ ونتيجة للحظ، أو المسيح، قام زوجها الثاني بمساعدة أمي على تطبيق هذه القواعد نفسها عندما تزوجها. وكان المصلون القدامى في كنيسة براون الجديدة يقولون إن الله أكرم القس ماكبرايد الذي توفى وهو لا يملك فلسا،

غير أن أولاده كبروا ليتخرجوا من الجامعة ليصبحوا أطباء وأساتذة ومعلمين ومهنيين، وقالوا إن هذا ليس إلا عمل المسيح.

وفي تلك اللحظة، كانت السيدة التي ساعدت المسيح على مراعاة أولاد القس ماكبرايد حتى سن الرشد ـ والمؤسسة المتبقية لكنيسة براون المعمدانية التذكارية الجديدة ـ جالسة على طرف طاولة طويلة على المنصة، لا يوجد أي شخص أبيض غيرها في الغرفة، وهي ترتدي فستانا أزرق تحمل في حضنها ابنتي آزيور البالغة الثانية من عمرها. وكان من الصعب إقناع أمي بالحضور لأنها لم تكن تريد أن تحضر. فكان قس جديد قد استلم الكنيسة في العام ١٩٨٩، وكان أحد أعماله الأولى أن أمر بإزالة صورة أبي من وراء المنبر لتوضع في دهليز جديد سيبنى بأموال من صندوق التبرعات في الكنيسة في سياق مشروع غامض «لتوسيع بيت الله»، مما يعني أنه قد لايحدث في عمر أمي. وزاد القس الجديد الطين بلة بخطئه في عدم الاعتراف بها رسميا أثناء القداس عندما جاءت لزيارة الكنسية. وكان بإمكانه تصحيح خطئه الفادح بسهولة لو أدخل «ترحيبا بمؤسسة كنيستنا الأصلية السيدة ماكبرايد» بين قائمة الدعاء من أجل المرضى والمسجونين و«تمنيات بعيد ميلاد سعيد لأعضائنا»، وعندئذ لانتهى الأمر. ولكنه لم يفعل ذلك، وبدلا من ذلك، عاملها كغريبة وأجنبية بيضاء، وسلم عليها بعد القداس بالابتسامة الزائفة والإخلاص الكاذب اللذين يخصصهما السود للبيض الذين لا يعرفونهم معرفة جيدة أو لا يثقون بهم. لقد رأيت تلك الابتسامة نفسها على وجه نادل أسود عندما أرسلتني صحيفة «واشنطن بوست» إلى البيت الأبيض لتغطية حفلة رقص أقامتها نانسي ريغان.

جرحت مشاعر أمي حيث قررت عدم العودة إلى هناك أبدا، ولكنها انتهكت ذلك الوعد مرارا وتكرارا، وتحملت مشوار ساعتين في مترو الأنفاق والقطار من منزلها في يوينغ بولاية نيو جرزي لتجلس

في الكنيسة، لا شخص أبيض في الغرفة غيرها، وهي غريبة في الكنيسة ذاتها التي أسستها في صالونها. ومن الإنصاف أن أقول إن القس كان جديدا، من دون خبرة كثيرة، ولم يعرفها. وفي الواقع لم يعرفها أي من الأشخاص الجدد في الكنيسة، وصحح الرجل خطأه في وقت لاحق، ولكن أمي قالت إن هذا ليس المهم في الموضوع، وأضافت بغضب، «هؤلاء القساوسة الجدد ليست لهم رؤية، ولايريدون أكثر من سندويش دجاج. أما أبوك فكانت له رؤية». فكانت تقارنهم جميعا بأبي، ولكنه لا مجال للمقارنة في الواقع، فهذه هي أيام مختلفة، وظروف مختلفة، ورجال مختلفون.

نادرا ما كانت أمي تتكلم عن أبي وظلت هكذا لسنين، وكأن وفاته حدثت منذ زمن طويل جدا فلم تعد تتذكرها، ولكنها كانت في قرارة نفسها تعتبر زواجها منه بداية حياتها، وبالتالي فوفاته جزء من نهايتها، كما تعتبر العودة إلى أبعد من ذلك في ماضيها بمثابة الدخول إلى الجحيم التي لا تريد أن تلمسه. كانت تتجنب ذكره من أجل تحاشي المحرمات، أي الجانب اليهودي. وكانت ذاكرتها مثل حقل ألغام، وكل ذكرى شرك محتمل مثل الألغام التي استخدمها الثوار الفيتناميون في حرب فيتنام والتي لم تنفجر عند الدوس عليها، بل لحظة رفع القدم بعد ذلك. ولكنها كانت تبدأ كلامها دائما بتوقير وتختتمه بحزن عندما تتكلم عنه، وتقول، «لم أعرف أبدا إلى أي مدى كان مريضا». وكنت أحدق في صوره وأتساءل عن طبيعة صوته، إلى أن التقيت بابن عمتي لينوود بوب هنسون من كارولينا الشمالية، الذي يشبهه تماما. وقالت أمي ، «إذا أردت أن تعرف كيف كان شكل أبيك فتكلم مع بوب»، وبوب هو في الأربعين من عمره تقريبا، ويتكلم بلهجة لطيفة من كارولينا الشمالية، ويدير مكتب بريد في بلدة صغيرة للبيض فقط، يحل المشاكل لزبائن البريد الغاضبين. وكان بوب واحدا من ستة عشر أسود قاموا بالدمج العرقي في مدرسته الثانوية في ماونت جلييد بولاية كارولينا الشمالية، حيث ولد أبي. هو رجل هادىء

ومتدين وفكاهي وله إنجازات ملموسة. وقد قتل ابنه توري في سنه الرابعة عشرة في حادث سيارة مأساوي جعل كل مجتمع السود والبيض في كارولاينا الشمالية يشعر بالحزن، وكان يواسي الآخرين على الرغم من قلبه المكسور. إذا نشأ ابني ليصبح مثل بوب، فسأكون رجلا سعيدا.

غير أنه ليس بإمكان الجميع أن يكونوا مثل بوب، ولا مثل القس ماكبرايد، ولا حتى مثل روث ماكبرايد، فالناس يختلفون، والأيام تتغير والقساوسة يتغيرون. وتعلم أمي ذلك، وعلى الرغم من خلافاتها الشخصية مع القس الجديد، لم ترغب في مشاهدة عمل حياتها وحياة أبي يختفي. وبالتالي جمعت بعض التبرعات من إخوتي وحضرت العشاء، وجلست على طرف المنصة، وبجانبها أهم خطيب، هنسون غرين، رئيس مؤتمر قساوسة نيويورك المعمدانيين وهو خطيب رائع، وهو أيضا أخ صديقة أمي العزيزة، المرحومة آيرين جونسون. ولأمي أصدقاء في مراكز نفوذ عندما يتعلق الأمر بالمسيح، على الرغم من احتقارها للبرجوازية السوداء.

اعتلى القس الشاب المنصة بعد فترة وخاطب الجمهور وكأنه في فاصل كوميدي تمهيدي، يدلي بملاحظات قصيرة ومضحكة. فيقول من باب المزح إن اللحم ليس سيئا، والخضراوات ليست كالمطاط تماما، وأن الآن ليلة السبت، فكلوا جميعا، ولدينا القداس غدا صباحا، وينفذ البرنامج بسرعة. ولم يحضر ثلاثة من الخطباء المحددين، من بينهم مؤسسا الكنيسة القس توماس ماكنير، عرابي، والأخت فرجينيا انغرام، بحجة المرض أو مواعيد أخرى. وفي النهاية، دعيت أمي إلى إلقاء كلمتها، ويقدمها القس على أنها «مؤسسة كنيستنا الأصلية»، وقد حقق مكاسب هنا. فتضع أمي ابنتي، وتقوم، وتتجه إلى المسرح، الأمر الذي يستغرق وقتا طويلا.

إنها في الرابعة والسبعين الآن، ولم تعد ركبتاها تعملان على نحو

جيد، وخطواتها الواسعة والسريعة بساقيها المقوستين أصبحت أشبه بتهاد. لقد أصبحت المرأة الرشيقة الجميلة التي كنت أعرفها في صباي عجوزا صغيرة وحادة الذهن بظهر مقوس قليلا. ولايزال وجهها كما هو وعيناها السوداوان مليئتان بالحيوية والبريق. ولايزال شعرها أسود بفضل الصبغة، وتبدو أصغر من عمرها بعشر سنوات لأنها لم تشرب خمرا ولا تدخن أبدا وتمارس اليوغا ثلاث مرات في الأسبوع. ولكنها مصابة بمرض القلب وضغط الدم العالي الآن، وتتناول أدوية للحالتين. وبعد تشخيص المرض في قلبها، أراد إخوتي الأطباء أن تجرى عليها فحوص إضافية مع أشهر اختصاصيي القلب، ولكنها رفضت وقالت، «لن ينالوا مني»، وكانت تعني بهذا التعبير الغامض المستشفيات والنظام وأي شيء آخر «يغز الإنسان بأنابيب ويأخذ منه الأموال في الوقت نفسه». تتحرك تحركا أبطأ الآن، ويشكل الدرج تحديا. أخذت تتكلم في الآونة الأخيرة وكأنها لن تبقى على قيد الحياة لمدة طويلة، وتبدأ كل خطبة بالكلمات، «على كل حال، إذا كنت هنا في العام المقبل، يسرني أن أرى.. دزني لاند»، أو تخرّج أحد أحفادها، أو باريس مرة أخرى، أو سيارة جديدة. تقصد بعض هذا عن جد ولا تقصد البعض الآخر، وكله يجعل قلبي يخفق بشدة من الخوف، ولا أعرف ما سأفعله عند وفاة أمي، شأني في ذلك شأن معظم الناس. وأخرج من استغراقي في التفكير عندما تصل إلى المنبر وفي يدها ورقة مغضنة عليها خطاب نصفه مطبوع ونصفه مكتوب بخط اليد، وتهتز الورقة في يدها. تضع الورقة ببطء وتقرب المايكروفون من وجهها بحيث يصدر عنه بعض الصوت. فيما تفعل ذلك، تبقى كل قبعة وكل ربطة عنق وكل ملعقة بين الحاضرين ساكنة تماما.

وتقرأ بصوت من طبقة عالية ومنقطع النفس، «تحياتي للقس ريد الموقر وضيوف المنبر. كنيسة براون الجديدة...» وتتوقف رأسا. ليس من الواضح ما إذا كان ذلك نتيجة لانفعالها في تلك اللحظة، أم لمجرد توتر أعصابها، غير أن أمي لم تلق خطابا قبل ذلك أبدا.

تتنحنح فيما تدوي حول الغرفة أصوات تردد «آمين» و«أكملي، ياعزيزتي». فتبدأ من جديد، «تحياتي للقس ريد الموقر وضيوف المنبر. كنيسة براون الجديدة تقدمت حتى الآن بفضل الإيمان...» وتواصل كلمتها هذه المرة، متهورة وسريعة كسيارة تقتحم أكواما من الثلج، تلف وتدور، تكاد كلماتها لا تفهم، فيما تقرأ الخطاب المصطنع بصوتها العصبي ذي الطبقة العالية. وتتوقف في النهاية وتضع يدا على قلبها وتتنفس تنفسا عميقا فيما يخيم صمت مرتبك على الغرفة. كنت على وشك الركض إلى المسرح خوفا من أن تصاب بنوبة قلبية، ولكنها ترمي خطابها فجأة وتسقط الورقة إلى الأرض، وتتكلم في المايكروفون مباشرة، «كان زوجي يريد إنشاء كنيسة، ولكنه لم يكن لدينا أي مال، فقال، فلنبدأها هنا في غرفة جلوسنا. نظفنا البيت وأقمنا منبرا بغطاء أبيض على الطاولة ودعونا عائلات ماكنير وانغرام وتيلور وفلاد لزيارتنا، وهكذا بدأنا».

وردد الحاضرون، «آمين» فقد أثارت مشاعرهم الآن.

«وضعنا الكراسي وقرأنا من الكتاب المقدس وأقمنا قداسا. لم تكن عندنا عازفة أرغن مثل الأخت لي، فأنشدنا من دون ذلك. وكانت تلك أسعد أيام حياتي، وأريد أن تعرفوا..» وتوقفت فيما ظهرت الدموع في عينيها.

«آمين!»

«نعم»

«قولي لنا ما تريدين أن نعرفه، يا عزيزتي»

وتبدأ من جديد،«أريد أن تعرفوا...».

«أكملي! قولي!»

تتنفس تنفسا عميقا، وتقول، «وأريد أن تعرفوا أنكم تنظرون إلى شاهدة على كلمة الله. إنها حقيقية، إنها حقيقية!» وتدوي كلمة «آمين»! عبر الغرفة فيما تدور أمي وتبتعد عن المنبر، تخطو خطوات واسعة ونشيطة الآن وقد اختفى التهادي وسقطت منها أربع وسبعون سنة من عمرها وكأنها ندف ثلج، وهي تقف خلف مقعدها على المنصة تواجه الحاضرين، وتتغلب عليها العواطف. وتصرخ، «بارك الله فيكم جميعا باسم المسيح!»، وتلوح في الهواء بقبضتها، ثم تجلس، وجهها أحمر وأنفها أحمر، والدموع في كل مكان بما في ذلك عيني.

سألتها في وقت لاحق، في طريق عودتنا إلى المنزل بالسيارة، «أعتقد بأنك لم تعودي غاضبة من القس الجديد؟»

وأجابت، وأضواء الشوارع تتلألأ وتنعكس في وجهها، «اترك هذا الرجل وشأنه. إنه يقوم بعمل جيد. ومن حظهم أن يكون لهم قس شاب، والوضع هكذا في هذه الكنائس اليوم. ويجب أن تكون قسا، هل فكرت في ذلك؟ ولكنك تحتاج إلى بعد النظر والرؤية. هل لديك الرؤية؟»

قلت لها إني لا أعتقد بأنها لدي.

«طيب، إذا لم تكن لديك، فلا تضيع وقت الله»

(٢٥)

العثور على روثي

أثناء صياغة وصية أمي في يونيو عام ١٩٩٣ ـ وهذا شيء اضطررت إلى إجبارها عليه ـ أثير موضوع رهيب هو دفنها، وقالت، «عند وفاتي، لا تدفنوني في نيو جرزي. من يريد أن يدفن في جرزي؟»، ولفظت هذه الكلمات وهي جالسة في مطبخ المنزل الذي تشاركها فيه أختي كاثي في بلدة يوينغ بالقرب من ترينتون في منطقة جميلة من نيو جرزي.

قلت لها، «سندفنك في فرجينيا، بجانب زوجك الثاني».

«لا. لا تدفنوني في فرجينيا. لقد هربت من فرجينيا، ولا أريد العودة إلى هناك»

«وماذا عن كارولاينا الشمالية؟ سندفنك في المكان الذي دفن فيه زوجك الأول»

«لا، أبدا. قضيت كل عمري في الهروب من الجنوب، فلا تضعوني في الجنوب»

فاقترحت، «طيب، نيويورك. لقد عشت هناك أربعين عاما، ولاتزالين تحبين نيويورك»

وأجابت بازدراء، «إنها مزدحمة جدا، ويدفنون ثلاثة أشخاص بعضهم فوق بعض في نيويورك، ولا أريد أن أسحق تحت أحد عندما أدفن».

«إذن، أين يجب دفنك؟»

رفعت يديها، وقالت، «ماذا يهم؟ إن هذا هراء، وليس لدي أي شيء ترثونه من بعدي إلا بعض الفواتير». قامت من طاولة المطبخ، وقالت بغضب، «تدفنونني هنا، تدفنونني هناك، ما الذي تحاولون فعله، أن تقتلوني؟» لا أريد أي أنابيب فيّ مهما فعلتم. إن الطبيب يقتل أسرع من أي شيء آخر. ومدت يدها إلى قبعة لوقاية العينين من الشمس،وقالت، «أختك فعلت بي هذا».

«فعلت ماذا؟»

«كان لدي ورم صغير في وجهي، وأجبرتني على زيارة هذا الطبيب الفاخر، وأنا مضطرة الآن إلى ارتداء هذه القبعة التافهة طوال الوقت، وهي تجعلني أبدو كالديك»

وجد الأطباء سرطان خلايا حرشفية في شامة قلعوها من وجه أمي ، وهي حالة يسببها التعرض للشمس أكثر مما يجب. ومن المفارقة أنه مرض غالبا ما يصيب البيض، وأمي هي مجموعة من المصالح المتناقضة والصراعات، فهي امرأة سوداء في جلد أبيض، لها أطفال سود ومشكلة صحية تخص المرأة البيضاء. من حسن الحظ خلصها الأطباء من الشامة في الوقت المناسب، ولكن مسألة وفاتها أصبحت تشغل بالها أخيرا على مايبدو، ويحتمل أن ذلك لمعرفتها أن الموت هو الحالة الوحيدة في عمرها التي لا تستطيع مسابقتها. وتتساءل، «الموت غريب، أليس كذلك؟ إنه نهائي، وتعلم أن الوقت ليس موعودا، وبالتالي من الأفضل أن تتعرف على المسيح».

وأفكر، إذا استغرق التعرف على المسيح وقتا طويلا، كالوقت الذي استغرقه التعرف عليك، فإني أواجه مصيبة. لقد احتجت إلى سنين طويلة لاكتشف من هي، وذلك إلى حد ما لأني لم أعرف من أنا. لم تكن مسألة البحث عن ذاتي بقدر ما كان قراري عدم البحث. في صباي كنت متحيرا في مسائل الأصل العرقي، ولكني لم أعتبر نفسي

محروما ولا بائسا، وفي شبابي لم يكن لدي الوقت ولا المال ولاالرغبة للبحث في ما هو أبعد من فقري لاكتشاف ما يسمى بالهوية. عندما تخرجت من المدرسة الثانوية ووجدت أني لست في السجن، ظننت أني بخير. كانت كلية أوبرلين سهلة، ولا يقوم أحد بإصدار الأوامر هناك. غير أني كنت أضحك بمرارة على الشباب البيض الذين يرتدون بنطلونات جينز رثة ويلعبون على العشب في حرم الجامعة يتقاذفون الفرزبي ويتجولون في الجامعة ينشدون ترانيم باللغة الألمانية بمناسبة عيد ميلاد المسيح. كان يبدو أن لهم حرية على نحو لا يمكن أن تكون لدي. وكان معظم أصدقائي من السود، وكذلك الفتيات اللواتي كنت أخرج معهن، إلا أني بنيت علاقات أيضا مع طلاب بيض مع مرور الزمن، واثنان منهم هما لياندر بين ولوري وايسمان، لايزالان من أصدقائي المقربين اليوم. في اللحظات الاجتماعية النادرة وغير المناسبة التي أجد نفسي فيها محصورا بين السود والبيض، كنت أهرب إلى الجانب الأسود كما كانت تفعل أمي ، ولم أخرج منه إلا بالقوة. أن يكون الإنسان خليطا فإن ذلك يشبه الإحساس بالوخز في الأنف والذي يسبق العطس عندما تنتظر حدوثه ولكنه لا يحدث. كان يسهل علي الهروب إلى مجهولية السواد، نظرا لوجهي الأسود وتربيتي، غير أني كنت أشعر بإحباط لأني أعيش في عالم يعتبر لون الوجه بمثابة موقف سياسي فوري، شئت أم أبيت. استغرق الأمر سنين حتى بدأت أقر بأن «عالم الرجل الأبيض» المبهم ليس حرا كما كان يبدو، وأن الطبقة والحظ والانتماء الديني كلها كانت عوامل مؤثرة، وأن مشاكل العديد من الأفراد البيض قد تجاوزت مشاكلي بكثير، وأن اليهود ليسوا جميعا مثل جدي، وأن جزءا مني يهودي أيضا . إلا أن حاجز اللون في ذهني كان ولايزال أعظم عقبة، ومن أجل تجاوزه كان الحل هو الابتعاد عنه والتصرف بانفراد.

هربت لأطول زمن ممكن، وبعد تخرجي من كلية أوبرلين في العام ١٩٧٩ وحصولي على شهادة ماجستير في الصحافة من جامعة كولومبيا

في العام ١٩٨٠، بدأت عملية تذبذب بين الموسيقى والكتابة استغرقت ثماني سنوات حتى أدركت قدرتي على العمل بنجاح كمؤلف وعازف موسيقى معا. تركت كل وظيفة في الصحافة شغلتها. عملت في صحيفة ولمنغتون نيوز جورنال وتركتها، وصحيفة بوسطن جلوب وتركتها، ومجلتي بيبل وآس وصحيفة واشنطن بوست، وتركتها كلها قبل أن أبلغ سني الثلاثين. يبدو أنه كان لدي مقدار ولو بسيط من المواهب، لأني حصلت على وظائف متتالية، ولكني ارتديت قميصي وربطة عنقي وكأني نصاب. كنت أطوف المدن في النهار، وأدخل غرف الأخبار بقدم متعثرة لأكتب قصصي وأنا مرهق. لكم أحببت تلك الغرف الخالية إلا من وميض شاشات الكمبيوتر وبعض المتهالكين أمثالي. كان ذلك هو الوقت الوحيد الذي أستطيع فيه الكتابة، بعيدا عن الصحفيين البيض والصحفيين السود، بعيدا عن التعاون المهني بين البيض والسود الذي كان قد بدأ يغلي في داخل روحي وعلى وشك أن ينفجر في اللحظات غير المناسبة. وكان وضعي المحصور بين السود والبيض بصفتي عاملا في سن الرشد أسوأ بكثير مما كان عليه عندما كنت طالبا في الجامعة. وراقبت عالمي السود والبيض يتصادمان في غرف الأخبار، مما أدى إلى خسائر أثرت علي. كنت أسمع مراسلين سودا يتكلمون بغضب عن محرر أبيض متعاطف معنا، واختلف معهم في صمت. كان الرجال البيض يهيمنون على المهنة، بقسوة أحيانا، ويجدون أساليب حاذقة لتخريب مجرى حياة مراسلين سود جيدين دخلوا المهنة متحمسين، غير أن البيض الآخرين كانوا مجرد بيادق مثلي. غالبا ما كانت نساء بيضاوات يعملن في مناصب التحرير المسؤولة عني مباشرة، ووجدتهن أرحم الأشخاص في غرفة الأخبار، وأكثرهم إنسانية وذكاء في أحيان كثيرة، غير أنهن نادرا ما وصلن إلى أعلى المناصب حتى بالمقارنة مع نظرائهن من الرجال السود الأكثر محافظة، الذين كان بعضهم يتصرف في غرفة الأخبار وكأنه مارتن لوثر كينغ عاد من جديد، ويستخدم أصله العرقي كسلاح. ولم يكونوا أقرب إلى سود الأحياء الفقيرة من نظرائهم البيض. وكانوا يتكلمون عن أيام «ترعرعهم في ميسيسيبي» أو مكان مثل ذلك، كدليل على معرفتهم

بالفقر وحياة السود، ولكنهم لم يقتربوا في الواقع من حي فقير في مدينة منذ عشرين عاما إلا من وراء عجلة قيادة سيارة هوندا مقفلة. لم تكن لادعاءاتهم أنهم تربوا في الفقر أي فضيلة برأيي. فقد تربوا بالامتيازات وليس في الحرمان، حيث كان لديهم آباء وأمهات وأجداد وجيران وكنيسة وعائلة ونظام يحميهم ويؤويهم ويربيهم. فلم يتربوا كأطفال الثمانينيات والتسعينيات، محرومين من أي شيء يشبه عائلة، وتحيطهم المخدرات والعنف باستمرار. كان ادعاؤهم «اني تربيت من دون شيء ودخلت جامعة هارفارد على الرغم من ذلك» المعيار الذي استخدمه المحررون البيض من أجل توظيفهم، ولكني نجحت أيضا بهذا الأسلوب إلى حد ما. فكنت أشمئز من الأمر كله.

ولم تكن لدي أي حياة شخصية بالمعنى الصحيح في تلك الأيام، وقلما كنت أضرب مواعيد مع فتيات أو أخرج للعشاء، ولم أحضر ولائم غداء لأصحاب النفوذ. كانت صديقتي في الجامعة من أصل عرقي مختلط من هايد بارك في مدينة شيكاغو ــ أمها سوداء وأبوها يهودي ــ وكنت أحبها، ولكني كنت أخشى الالتزامات في ذلك الوقت، وأخشى إنجاب الأولاد لأني لم أرغب أن يكونوا مثلي، فابتعدت عنها تدريجيا وجعلت الزمن والمسافة يكملان افتراقنا. كنت متفوقا كمراسل لعدم وجود أي حياة شخصية لي خارج الصحافة باستثناء الموسيقى، ولكني كنت أهبط دائما في النهاية، وأخبر المحررين البيض بعد سنة أو سنتين بأن علي أن «أجد ذاتي، أو أؤلف كتابا، أو أعزف السكسفون»، أو أي ذريعة كانت. كان معظم السود يعتبرون «البحث عن الذات» ترفا، ولكن البيض يعتبرونه ضروريا على ما يبدو، أو معظم البيض بالأحرى، باستثناء أهم شخصية بيضاء.

وكل مرة عندما أترك وظيفة، كانت أمي ترقص رقصة حرب مع صراخ، غالبا ما كانت تبدأ بالكلمات «الآن ماذا ستفعل؟ فكانت لك فرصة ثانية، وضيعتها، وأنت بحاجة إلى وظيفة!» وكانت تمارس

سلطة هائلة، شأنها شأن معظم الأمهات، وكان عزمي القوي ينهار كقلعة رمل أمام هجماتها المباشرة التي كانت شبيهة بموجات عارمة. وكنت أدرؤها وأنسحب من بيتها، قائلا، «لا تقلقي، يا أمي ، لا تقلقي»، وأختفي في متاهة عالم الموسيقى في نيويورك لمدة أشهر، أعزف السكسفون مع فرقة موسيقية ما وأبيع قطعة موسيقية هنا وهناك. وكنت أنجح دائما إلى حد ما، ونجحت أكثر في مرحلة لاحقة من عمري حيث فزت بجائزة ستيفن سوندهايم لتأليف الموسيقى المسرحية، وعملت مع انيتا بيكر، وغروفر واشنطن الابن، وجيمي سكوت، وريتشل فيرال وكثيرين غيرهم. ولكن الثمانينيات كانت مرحلة صعبة لي كمؤلف موسيقي، وكلما مررت بفترة ضيق مادي كنت أعود هاربا إلى الصحافة، حتى فبراير ١٩٨٨ عندما كنت أعمل في قسم الأزياء في صحيفة واشنطن بوست وأفكر في تقديم استقالتي من أجل العودة إلى الموسيقى في نيويورك. ويعتبر قسم الأزياء في تلك الصحيفة قمة الصحافة، الصفوة، أو جنات النعيم لكتاب التحقيقات الصحفية، ولا يمكن أن يترك الإنسان مثل هذه الوظيفة بسهولة، حتى ولو كان متعودا على ترك الوظائف مثلي. وعندما أتذكر الموضوع فقد اتصلت بي أمي على نحو مفاجىء لأنها أحست بأن كل شيء ليس على ما يرام. وقالت بغضب، «إني أعرفك! إنك تكسب أموالا مستقرة وكثيرة الآن، فلا تترك هذه الوظيفة».

غير أني تركتها، إلى حد ما لأني سئمت الهروب، وأيضا لأن الوجع الصغير الذي كان يصيبني في صباي لم يعد وجعا صغيرا، بل أصبح إلحاحا موسيقيا هائلا يصرخ في نفسي كقيثارة كهربائية مشوهة بأعلى صوتها، تأمرني: «امض في حياتك، اعزف السكسفون، ألف كتبا، ألف موسيقى، افعل شيئا، عبر عن نفسك، ومن أنت على كل حال؟». كان هناك عالمان يتفجران في داخلي ويحاولان الخروج، وكان يجب علي اكتشاف معلومات أكثر عن هويتي، ومن أجل ذلك كان علي أن أكتشف من هي أمي.

كان إدراكا رهيبا أن أواجه حقيقة أني لم أعرف فعلا من أحبتني أكثر من غيرها، وتعودت حتى في صباي على إخفاء أمي لماضيها، وأصبحت أقبل ذلك. وضاعت تفاصيل ماضيها فيما تقدمت حياتي، ويحتمل أنها أرادت أن تكون الأمور هكذا. لم أثر الموضوع معها إثارة جدية حتى عام ١٩٧٧، عندما كنت في الجامعة واضطررت إلى إملاء استمارة تطلبت اسم عائلة أمي قبل الزواج، واتصلت بها في فيلادلفيا لأعرف ذلك، وفجأة أصبحت تتملص وتسألني، «لماذا تحتاج الى ذلك؟» وترددت وتتصلت لفترة قبل الاعتراف به في النهاية، حيث قالت، «إنه شلسكي».

«هل يمكن أن تتهجي ذلك، يا أمي ؟»

«من يدفع ثمن هذه المكالمة؟ هل تدفعه أنت، أم تتصل بي على حسابي؟».

«لا»

وأجابت بغضب، «أنت في الجامعة، وبإمكانك تهجيته. حل المسألة بنفسك». وقطعت الاتصال.

ولم أثر الموضوع مرة أخرى إلا عندما التقيت بآل لاركن، محرر مجلة يوم الأحد التابعة لصحيفة بوسطن جلوب آنذاك، في أوائل ١٩٨٢. أقنعني بكتابة مقالة عن عيد الأم نشرتها صحيفة فيلادلفيا إنكوايرر أيضا في الوقت نفسه، وهذا لطف منها لأن أمي كانت تسكن في فيلادلفيا آنذاك. كان تجاوب الجمهور مع المقالة غامرا، مما جعلني أقرر أن أتعمق في البحث إلى حد ما للتنصل من العمل من أجل لقمة العيش، وأيضا للتخلص من بعض عقدي المتعلقة ببشرتي السمراء وشعري المجعد ونفسي المنقسمة. سألت أمي ما إذا كان يهمها أن تشاركني في إصدار كتاب، وقالت لا. وأخبرتها بأنه سيكسبني

مليون دولار، فأجابت، «طيب، إذا كنت غنيا سأكون غنية، ولكن لاتترك وظيفتك». فأخذت إجازة من العمل في صحيفة بوسطن جلوب في العام ١٩٨٢، ثم تركتها. وعندما أخبرت أمي بأني قد تركت العمل، قالت باشمئزاز، «كان ذلك أحد أغبى التصرفات في حياتك».

وكنت أتوقع أن أجلس معها وأجري مقابلات طويلة وكثيرة الاستطراد، وأستمع بانتباه مركز فيما تسرد هي تفاصيل حياتها المؤلمة والمدهشة. كنت أتصورها الحكيمة الحصيفة التي تجلس في كرسي هزاز وتسكب دون انفعال تفاصيل حياتها المؤثرة في مسجلي المنتظر خلال ستة أسابيع، أو ربما شهرين، أنا أشجعها، وهي تتعاون، وتتردد، وتتقدم ببطء، الأم وابنها يتقدمان إلى الأمام يدا بيد بانفعال عاطفي، حتى ننتهي بعد ستة أشهر، وسينعم العالم بكتابنا العظيم.

وبعد ذلك بثماني سنوات، كانت لاتزال تقول لي، «عليك بشأنك. إذا فكرت أكثر مما يجب، سيجف عقلك مثل البرقوق. لا أريد أن يسمى برنامج تلفزيوني خاص باسمي. اتركني وشأني. أنت فضولي! سأنتقل من فيلادلفيا، فلنحزم أمتعتنا».

أمي هي الشخص الوحيد الذي عرفته في حياتي والذي ظل في حالة الانتقال لمدة عشر سنوات متواصلة. فبعد إقامة دامت سنة واحدة فقط في دلاوير، اشترت بيتا صغيرا في صف من البيوت في جرمانتاون بمدينة فيلادلفيا عام ١٩٧٥، واستقرت هناك، وبدأت على الفور عملية البحث عن مكان آخر للانتقال إليه، وهي عملية أصبحت فعلا نمط حياة، ويبدو أنها كانت تعرف كل سمسار عقاري في جرمانتاون معرفة جيدة. كانت تقوم في الصباح وتخرج من الباب، وتتجول في سيارة مع سمسار طوال النهار تتفقد بيوتا ليست لديها الأموال ولا الرغبة في شرائها، وتطلب من السمسار المسكين في نهاية النهار الاتصال بها بعد أسبوع، ثم تغادر المدينة وتنتقل إلى أطلنطا لمدة ثلاثة أسابيع لتنزل عند إخوتي، أو تختفي عن الأنظار

ولن يراها السمسار مرة أخرى. وكان المسكين يتصل مرارا وتكرارا، إلى أن يخبره أحدنا في النهاية بأن أمي غير مهتمة. كانت أمي تقف عند الهاتف أحيانا تهمس لنا في أذن واحدة، ونحن ننظم التشويش لصالحها، فكانت تهمس، «قل له إني لست هنا. لماذا يظل يزعجني؟».

وكان ذلك تصرفا عصبيا نموذجيا لأمي، ولم أفهمه تماما إلا بعد أن تعلمت مدى تقدمها الفعلي. لقد انتهى الجانب اليهودي بالنسبة لها، وفتحت لي الباب، ولكنها أغلقته على نفسها منذ زمن طويل، وبالنسبة لها فإن فتحه واستراق النظر إلى داخله كان بمثابة ابتلاع النار. كانت تنظر إلى الداخل ثم تتراجع مترنحة كالعمياء، حيث تدفقت عليها حقائق تاريخها كالحمم. عندما كشفت النقاب عن حقائق حياتها شعرت بقصور اليد وكأني أتطلع إليها وهي تموت وتبعث من جديد (وكان هناك عنصر تطهير أيضا)، لأنها انفتحت وبدأت تتكلم عن ماضيها بعد سنين من الاختباء، وحين فعلت ذلك كنت أنا الذي أردت الهروب والاختباء. ولا أستطيع وصف الصدمة عندما سمعت أمي تلفظ كلمات مثل «تاته» و«روف» و«شيفع» و«بوبه»، وهي جالسة إلى طاولة المطبخ في منزلها في يوينغ. تصور، إن استطعت، خمسة آلاف سنة من التاريخ اليهودي تسقط في حضنك خلال بضعة أشهر. ذلك جعلني أسقط في هاوية من نوع خاص، أحاول أن أنقذ ما يمكن إنقاذه من مشاعري وعواطفي التي كانت تتبعثر في الرياح بينما هي تتكلم. أقل ما يقال إنه كان درسا رائعا في تاريخ الحياة، ومعجزة حقيقية أغرب من الخيال، وشعرت وكأني طفل أبني نفسي من إحدى الألعاب المؤلفة من مجموعة طوب للبناء، فعندما شرحت حياتها أمامي، أعدت تجميع صورة كلماتها كأحجية الصورة المقطوعة، وبذلك أعيد بناء حياتي.

لقد تغيرت أمي، تغيرت منذ اعتناقها الدين المسيحي في الأربعينيات. الفرق هو أنها الآن أصبحت قادرة على مواجهة الماضي. بعد السنين

التي قالت فيها، «لا تتكلموا عن شؤوني»، أصبحت تقول الآن، «لا يهم، فقد ماتوا جميعا الآن، أو هم في فلوريدا»، وهذا شيء شبيه بالموت في ذهنها، وقد وعدت، «لن أتقاعد في فلوريدا». أثناء مرورها بمقبرة ذات يوم، تطلعت إليها وقالت، «هذه هي فلوريدا إلى الأبد».

استقرت أمي لتنال شهادتها الجامعية في العمل الاجتماعي من جامعة تمبل وهي في الخامسة والستين، واستمتعت بالمناقشات الفكرية والدراسة، وقرأت مؤلفين مختلفين، وكنت قد نسيت مدى ذكائها. التعلم المستمر والتوق إلى العلم ساعداها في النهاية على الانتقال من صخب فيلادلفيا لتستقر في ضاحية يوينغ الأهدأ والأكثر أمنا مع أختي كاثي. استخدمت شهادتها الجامعية لبضع سنوات فعملت كمتطوعة في وكالة للخدمات الاجتماعية لمساعدة الحوامل غير المتزوجات، ثم واصلت فأصبحت تدير مجموعة قراءة أسبوعية للمسنين المتعلمين والأميين في مكتبة يوينغ المحلية، وهو عمل لاتزال تقوم به حتى اليوم. غير أن هذا لا يكفي لشغلها، فتقوم كل يوم، وتوصل حفيديها إلى المدرسة، وتقود سيارتها حول مركز ولاية نيو جرزي، وتفاصل التجار في أسواق البضائع المستعملة، وتحضر دروس اليوغا وهي مرتدية ملابس وحذاء الرياضة، وتقود سيارة تويوتا موديل ١٩٩٥ بسرعة ٢٧ ميلا في الساعة في منطقة السرعة الأدنى فيها هي ٥٥ ميلا في الساعة، وتؤخر المرور على الطريق السريع رقم ١ وهي تستمع إلى برامج إذاعية. تقوم أحيانا في الصباح وتختفي لأيام متواصلة، وتذهب إلى أماكن تواجدها في الماضي، إلى مشاريع سكن رد هوك لزيارة الكنيسة وصديقاتها القديمات هناك. إنها تحب رد هوك، على الرغم من توسل إخوتي لها بالابتعاد عن المشاريع السكنية، غير أنها ترفض، وتقول، «لا تأمروني كيف أتصرف في حياتي». كان يصعب علينا دائما التحكم في أمي التي كانت لها دائما عادات تثير المخاوف والأعصاب، حيث تقوم بأعمال خطيرة تكاد تؤدي إلى كارثة فتصرخ، «فليعمل أحدكم شيئا. نكاد نقتل»، ثم تعيد

سيطرتها على الموقف في اللحظة الأخيرة وكأنها طيار يقود طائرته في هبوط سليم بعد أن تعرضت لخطر التحطم، وتنسى الحدث كله على الفور. لا يمكن أن تتذكره حتى ولو رأت صورا لنفسها وهي تقوم به. تمحيها من ذاكرتها على الفور، وبقصد. إنه أسلوب لحماية نفسها. هكذا تتحرك. إن غرائزها في البقاء عجيبة، ورقصها مع النار متعة للعين. «روثي» كما يطلق عليها إخوتي. «روثي مجنونة».

في أغسطس ١٩٩٣، وبعد أكثر من خمسين عاما فإن روثي المعروفة أيضا بروث ماكبرايد جوردان أو ريتشل دبوراه شلسكي واجهت أخيرا أشباح ماضيها، وعادت إلى سافوك بولاية فرجينيا برفقتي، ومعنا أختي جودي التي تعمل معلمة مدرسة في نيويورك، وأخي بيلي الذي يعمل طبيبا في أطلنطا. تجولنا في سيارة في البلدة كلها، على طول الشارع الرئيسي، ومررنا بالبناية الوحيدة في البلدة التي كان فيها مصعد في الثلاثينيات، كما مررنا بالمكان الذي كان فيه منزلها القديم،وبالمعبد القديم والمدرسة الثانوية القديمة، التي كانت لاتزال هناك. قالت أمي، «لم يتغير شيء»، وتنفست عندما توقفنا أمام المعبد القديم الذي لم يزل أبيض وعتيقا، ولكنه فخم إلى حد ما بأعمدته الطويلة الأربعة. حدقت أمي في الهيكل القديم، ولكنها رفضت أن تنزل من السيارة، بل نظرت من النافذة فحسب، وتمتمت «يعتنون به فعلا» ثم طلبت من بيلي، الذي كان يقود السيارة، أن نبتعد. كانت تبدو ساكنة - منتبهة وكثيرة التأمل، ولكنها لم تتأثر - حتى وصلنا إلى الطريق أمام بيت فرانسيس مودي، التي أصبحت الآن فرانسيس فالكوني، في بورتسماوث، التي كنت قد وجدتها بعد بحث طويل استغرق مني اثنتي عشرة سنة والكثير من الحظ لأجد فرانسيس الغامضة. كانت خمسون سنة قد مضت منذ أن كانت أمي هنا، وكان معظم السكان القدامى قد رحلوا. الذين بقوا لم يتذكروا أو يعرفوا أحدا باسم فرانسيس. التقيت في النهاية بامرأة اسمها فرانسيس هولند تحدثت لي عن فتاتين صادقتاها حينما كانت تلميذة جديدة

في الصف السابع في مدرسة توماس جفرسون الإعدادية، هما روث شلسكي وفرانسيس مودي، قالت: «لاتزال فرانسيس مودي على قيد الحياة، وهي تسكن في مكان ما في بورتسموث». لم نجد شيئًا بعد بحثنا في دليل الهاتف، وكنت صفر اليدين إلى أن زرت مكتبة بلدة سافوك، حيث ناولتني أمينة المكتبة ورقة صغيرة كتب عليها رقم هاتف، وقالت لي، «هذه هي المرأة التي تبحث عنها، واسمها فرانسيس فالكوني الآن». شكرتها وسألتها كيف عرفت، وهزت كتفيها، ولم تكن ودودة ولا عدائية على ما يبدو، بل عملية فقط. رفعت سماعة الهاتف، وطلبت رقما، وناولتني السماعة، وكانت فرانسيس مودي، أو فرانسيس فالكوني الآن، على الخط، قلت لها، «إني أبحث عنك منذ سنين»، فضحكت وقالت، «تعال لتزورني، ولكني قد لا أستطيع أن أراك، لأن عملية جراحية أجريت على عيني أمس لإزالة الماء الأزرق». وذهبت في السيارة الى بورتسماوث على الفور، والتقيت بصديقة أمي من أيام الطفولة، وهي امرأة رشيقة من عمر أمي بصوت ناعم وشعر بني، تبين أن عينيها تعملان على نحو جيد. يبدو من الملائم أن تتزوج فرانسيس مودي حرفيا إيطاليا يعمل بالخشب اسمه نك فرانكوني، فهي التي تجرأت على مصادقة يهودية في الأربعينيات حين كان اليهود غير محبوبين في سافوك. قالت فرانسيس، «عندما رأيت أمك آخر مرة، أهدتني حفلا بمناسبة زواجي، وذلك عام ١٩٤١».

وقلت، «أعتقد أنك لم تتوقعي رؤيتها مرة أخرى».

وأجابتني، «لا، كنت أعرف أني سأراها مرة أخرى بطريقة ما».

وبدأت أمي تقلق وتفرط في الكلام عند اقترابنا من بيت فرانسيس في بورتسماوث، وقالت، «انظروا إلى هذه الطرق، لا مطبة فيها ولاشق. إنهم يرممونها هنا في فرجينيا، ولكنه يجب عدم الإسراع عليها، لأن رجال الشرطة هنا لا يمزحون. إنهم لا يمزحون، هل سمعتني يا بيلي؟ خفف سرعتك! أوه، ركبتاي تؤلمانني، إن التكييف يؤلم ركبتي

فعلا. وهذه المقاعد أصغر مما يجب». وكانت تهذر وتتذمر حتى بعد دخولنا إلى الطريق أمام بيت فرانسيس واقتراب صديقتها، « أوه، لاأستطيع النهوض، وتوجعني رجلاي. ساعدوني على النهوض، ما الذي تحاولون فعله أنتم جميعا؟ تسوق بسرعة بهذه الطريقة! لا يسمح لك أن تسوق هكذا في فرجينيا، أقول لك. والآن تؤلمني ركبتاي يا فرانسيس! إنك رشيقة جدا، ما أجملك! أوه، إني أبكي الآن. ماذا تحاولون أن تفعلوه جميعا؟» وبكت وهي تعانق صديقتها.

وبعد هذه الزيارة استأنفت هي وفرانسيس صداقتهما من النقطة التي كانت قد وصلت إليها في المدرسة الثانوية، ولاتزال وثيقة حتى اليوم. لكن روثي غير قادرة على العودة إلى الماضي أبعد من فرانسيس، كان جمع شملها مع صديقتها القديمة إحدى الفوائد الجانبية الصغيرة والجميلة لتجربة الكتاب التي لم تهتم أمي بها أصلا، والتي تنطوي على استكشاف ماضيها الذي كان قد انتهى إلى الأبد من نواح كثيرة، ومن الأفضل أن يترك مدفونا دون أن يمس.

يحتمل أنه كان يوجد مائة سبب لبقاء روثي في الجانب اليهودي بدلا من التنقل بالقطار من نيو جرزي لحضور كنيسة مسيحية في رد هوك بمنطقة بروكلين مع أطفالها وأصدقائها السود، وأنا متأكد أن الكتاب المقدس يشمل قائمة من هذه الأسباب، ولكنه يسرني انها التحقت بالجانب الأفريقي الأمريكي. لقد تزوجت رجلين رائعين وربت اثني عشر ولدا مبدعا وموهوبا للغاية، ويجب علي ذكر قائمة أسمائهم الآن. وكان ذلك جزءا من الصفقة من جانبي، وتشكل إنجازات أولادها عمل حياتها على كل حال. وهم من الأكبر إلى الأصغر:

أندرو دينس ماكبرايد، ليسانس من جامعة لنكولن، ودكتوراه في الطب من كلية في جامعة بنسيلفانيا، وماجستير في الصحة العامة من جامعة بيل، مدير إدارة الصحة، مدينة ستامفورد بولاية كونيتيكات.

روزيتا ماكبرايد ليسانس من جامعة هاوارد، وماجستير في

العمل الاجتماعي من كلية هنتر، عالمة نفس في هيئة التربية والتعليم، مدينة نيو يورك.

وليام ماكبرايد، ليسانس من جامعة لنكولن، ودكتوراه في الطب من كلية الطب في جامعة ييل، وماجستير في إدارة الأعمال من كلية الأعمال في جامعة إموري، مدير الطب لمنطقة الجنوب الشرقي، الشؤون الطبية والعلمية، شركة ميرك وشركائه.

ديفيد ماكبرايد، ليسانس من جامعة دينسون، ماجستير في التاريخ من جامعة كولومبيا، دكتوراه في التاريخ من جامعة كولومبيا: رئيس إدارة التاريخ الأفرو ـ أمريكي، جامعة ولاية بنسيلفانيا.

هيلين ماكبرايد ـ رختر، ممرضة مسجلة، مستشفى جامعة بنسيلفانيا GONP ، من كلية الطب في جامعة إموري، طالبة متخرجة في تمريض القبالة، كلية التمريض في جامعة أموري.

رتشارد ماكبرايد، خدم في الجيش الأمريكي، ليسانس في الكيمياء من جامعة تشيني، ماجستير في العلوم من جامعة دريكسل، أستاذ مشارك في الكيمياء في جامعة، تشيني للولاية، مشارك في الأبحاث الكيميائية، شركة أي تي اند تي.

دوروثي ماكبرايد ـ وزلي، مشاركة في الفنون، كلية بيرس، ليسانس من جامعة لا سال، مديرة مكتب طبي في أطلنطا بولاية جورجيا. جيمز ماكبرايد، ليسانس من كلية أوبرلين، ماجستير في الصحافة من جامعة كولومبيا، كاتب، ومؤلف موسيقى، وعازف سكسفون. كاثي جوردان، ليسانس في هندسة العقل الإلكتروني من جامعة سايراكيوز، ماجستير في التربية من جامعة لونغ آيلاند، معلمة للتربية الخاصة، مدرسة يوينغ الثانوية في يوينغ بولاية نيو جرزي.

جودي جوردان، ليسانس من جامعة ادلفي، ماجستير من دار المعلمين

في جامعة كولومبيا، معلمة في مدرسة جي اتش اس ١٦٨ في مانهاتن.

هنتر جوردان، ليسانس في هندسة العقل الإلكتروني من جامعة سايراكيوز، مستشار في مجال العقل الإلكتروني، يو اس تراست كوربوريشن، آن تيلور.

هنري جوردان، طالب في جامعة أي اند تي كارولاينا الشمالية، خدمة الزبائن والمشتريات، شركة نيل الصناعية، غرينزبورو، كارولاينا الشمالية.

روث جوردان، ليسانس من جامعة تمبل ١٩٨٦.

يعتبر أولاد أمي غير عاديين، ومعظمهم زعماء في حد ذاتهم، وقد تحمل جميعهم مصاعب أكثر مما يتذكرونها، ولكنهم يتصرفون بقدر كبير من الكرامة والتواضع وخفة الدم. نعاني من مشاكل مثل أي عائلة، ولكن علاقاتنا دائما حميمة، وقد توسع الاثنا عشر الأصليون من خلال الزواج والتبني والعلاقات الغرامية إلى عشرات من الآخرين ـ الزوجات والأزواج والأولاد والأحفاد، وأبناء وبنات الإخوة ـ تتراوح ألوان بشراتهم بين الأسود والأبيض، وشعرهم بين الأسود المجعد والأشقر مع عينين زرقاوين. لقد أنجبت أمي أمتها الخاصة بها في هروبها من ماضيها، وائتلافا من ألوان قوس القزح يقتحم بيتها كل سنة في عيد ميلاد المسيح وعيد الشكر، وينام في كل مكان.. على الأرض، وعلى بطانيات، وبالتناوب، أو اثنين أو ثلاثة في كل سرير، «اثنين إلى فوق وثلاثة إلى تحت»، كما في أيام الماضي.

ونتجادل كل سنة على المكان الذي سنحتفل فيه بعيد ميلاد المسيح، وننفق كل سنة مئات من الدولارات على المكالمات الهاتفية والرسائل التي نرسلها بالبريد وبالفاكس، نداهن ونرشو، ونحاول التملص من زيارة بيت أمي الصغير. وندعي جميعا نحن الاثنا عشر أننا سوف نحتفل بعيد الميلاد في بيوتنا ولن نسافر مسافات طويلة مع العديد من الأطفال لننام مع عدد هائل من الناس على أرضية بيت أمي

وكأننا أطفال صغار، لأننا تعبنا، وعملنا ذلك العام الماضي، ولكن الرئيسة وكبيرة المنفذين والقائدة الأعلى لهذا الجيش لاتزال تمارس السلطة. تروي زوجتي ستيفاني قصة مضحكة عن المرة الأولى التي زارت فيها منزل أمي معي بمناسبة عيد الميلاد وتعرفت إلى عائلتي. فكنا جالسين في بيت أمي في يوينغ، نحن الإخوة الاثنا عشر، الأطباء والأساتذة، والبيت فوضى كما كان دائما عندما كنا صغارا، وأطفالنا يتصرفون بجنون وأزواجنا بإحساس مخدر، فيما عاد أولاد أمي الاثنا عشر الأصليون إلى نماذج سلوك جنونية تجعل عالم النفس ييأس منهم، وصرخ أحد فوق الضجة، «فلنذهب إلى السينما!»، وتحرك كل من في الغرفة على الفور.

«فكرة جيدة!»

«نعم.. فلنذهب وسأقود السيارة»

ومن غرفة أخرى، «انتظروني!»

«استعجل.. أين حذائي؟»

وكانت أمي جالسة على الأريكة في غرفة الجلوس عند حدوث كل ذلك، ترتكز قدماها على طاولة صغيرة، وتثاءبت وقالت بصوت ناعم، «أريد أن آكل».

ونسيت السينما على الفور.

«نعم! فلنأكل!»

«إني جائع للغاية!»

«فلنطلب طعاما من الخارج!»

ومن غرفة أخرى، «إني أنتظر طوال النهار لآكل!»

وهذا ما يطلق عليه «القوة».

الخاتمة

كانت امرأة يهودية في الحادية والعشرين اسمها هالينا ويند قد أرسلها والداها لتختفي في نوفمبر عام ١٩٤٢ بعد أن زحف النازيون على مسقط رأسها، بلدة توركا البولندية، وقتلوا معظم اليهود الستة آلاف في البلدة، وفي النهاية قتلوا والديها وأحد إخوتها وجدتها. هربت هالينا ويند إلى مدينة لفوف حيث اختبأت هي وتسعة يهود آخرون في مجار لمدة أربعة عشر شهرا، يعيشون بين الجرذان والقاذورات في سجن رطب تحت الأرض لا يرون نور الشمس أبدا، يطعمهم ثلاثة عمال مجار بولنديون. وكانت هالينا ويند قد تجاوزت هذا الهول وعاشت لتحدث العالم عنه.

وفي عام ١٩٨٠، أي بعد ذلك بما يقارب أربعين عاما، جاء ابن هالينا الوحيد، دافيد لي بريستون، وهو رجل طويل ورفيع ووسيم ذو وجه نحيف وعينين سوداوين ونظارات، إلى مكتبي في صحيفة ولمنغتون نيوز جورنال وفي يده مادة كنت قد كتبتها عن الملاكم محمد علي، وهو مراسل مثلي في الصحيفة نفسها، ولكننا لم نكن قد التقينا من قبل. وقال، «هذه مادة جيدة».

وأجبته، «شكرا».

«لقد أخطأت في كتابة اسم محمد، ولم ينتبه قسم التحرير، الذي يفترض أن يصحح مثل هذه الأخطاء قبل وصولها إلى صفحات الصحيفة». وقلت، «طيب»، ولم أكترث كثيرا.

وأضاف، «سمعت أنك تعزف السكسفون هل سمعت بألبرت ايلر؟»

كان ألبرت ايلر عازف سكسفون رائع ومبتدع لم يعرف عنه سوى عشاق الجاز الأكثر تحمسا، وتفيد الإشاعة بأنه اختفى في

النهر شرقي مانهاتن وقدماه مغلفتان بالأسمنت. فسألته، «كيف سمعت عنه؟»

هز كتفيه وابتسم. ومنذ ذلك اليوم إلى الآن، أصبح ابن هالينا ويند أحد أعز أصدقائي. لم أعرف أن دافيد بريستون يهودي عندما تعرفت إليه لأول مرة، وهو لم يجاهر بيهوديته. كان مثقفا صفيقا وفضوليا وخفيف الدم ومؤلفا عظيما، ولم يثر خلفيته الدينية أبدا، ولم تبد لي مهمة في ذلك الوقت. لم تبرز خلفيته اليهودية إلا عندما أوضحت له أن أمي ابنة حاخام يهودي أرثوذكسي، لأنه أدرك على الفور العمق الحقيقي لتجربة أمي ، وقال، «يا لها من امرأة»، وهو أيضا قد ربته امرأة عجيبة.

وكلما تقدمت حياته تقدمت حياتي معها، وهو الآن يؤلف كتابا عن أمه ويعمل كصحافي في جرزي الجنوبية، و له عمود في صحيفة فيلادلفيا إنكوايرر. دعوته لحضور حفلة زفافي عندما تزوجت الإفريقية ـ الأمريكية ستيفاني، ودعاني إلى زفافه مع زوجته اليهودية رونديه في العام التالي. كما أراد أن تحضر أمي حفلة زواجه، ووافقت على دعوتها بالنيابة عنه، ولكني كنت أشك شخصيا أنها ستقبل.

وعندما سألتها، كان جوابها، «هذا مشوق».

وقلت لها، «إنه يريد فعلا أن تحضري». وعرفت أن دافيد يعجبها كثيرا.

فأجابت، «سأحضر إذا حضرت كاثي معي». تحب أمي أن ترافقها بناتها في أي مناسبة عاطفية. تحب أن تتباهى بأبنائها الذكور وتتكلم عن إنجازاتهم العظيمة والمدارس التي حضروها وما إلى ذلك، ولكن ـ في حقيقة الأمر ـ نساء عشيرة ماكبرايد جوردان هن اللواتي يحافظن على تماسك العائلة وسيواصلن ذلك بعد وفاتها. لقد تعلمت

أخواتي تحمّل الضربات الشديدة، والنهوض من جديد بعد أن تخف حدة الصدمة من ضربات الحياة. أما الرجال، بما فيهم أنا، فنتمرغ عندما تطيح بنا تفاصيل الحياة وتطرحنا على أريكة أمي لنتفرج على ألعاب الكرة حين تتجمع العائلة لعيدي الميلاد والشكر، مهما كانت الألعاب رديئة. وافقت كاثي على حضور العرس مع ابنتها مايا البالغة التاسعة من عمرها، فقبلنا الدعوة.

أجريت مراسيم الزواج في هيكل بيت شالوم في ولمنغتون، حيث درست هناك هالينا ويند برستون لثلاثة عقود. كنت مرشدا في الزفاف، وشعرت بهيبة وانفعال وفخر فيما سرت على طول المشى أرتدي سترة سوداء وطاقية بيضاء، خلف ستة عازفين يهود يعزفون الأغنية العبرية التقليدية «عيرف شل شوشانيم». وتزوج دافيد بريستون امرأته بالحيوية والحماسة والجدية التي يعامل بها كل شيء في الحياة، ووقعا عقدا وتزوجا تحت كنة للزواج. وتقدم مرتلان ـ احداهما أخت دافيد، شاري بريستون ـ وأنشدا، وترأس المراسيم خال دافيد، أخ هالينا ويند، الحاخام ليون ويند، وتكلم ببلاغة ووقار وقوة. قال الحاخام البالغ الثامنة والسبعين من العمر، «يمتلىء قلبي بعواطف عميقة ومتضاربة اليوم. إني أبتهج بزواجك، ولكن قلبي يؤلمني لأن أختي لم تعش لترى أعظم لحظة في حياتها». فكانت أم دافيد، هالينا ويند، قد توفت بعد عملية فتح القلب في ديسمبر ١٩٨٢ وهي في الحادية والستين. وقد أثرت كلمات الحاخام الصادقة على جميع المصلين، وانتقلت أفكاري إلى أمي اليهودية الجالسة في الصف الرابع.

التفت لأختلس نظرة إلى أمي وهي تمسح أنفها الأحمر بمنديل، وآلة تصويرها مشدودة بسير حول معصمها. غالبا ما تحب التقاط الصور في مثل هذه اللحظات. تسجل كل لحظاتها المهمة بكاميرا، تنزل وهي تتهادى من القطار على طول شارع أطلنطيك في بروكلين إلى مستشفى الكلية في لونغ ايلاند لالتقاط صور للأيام الأولى من

عمر ابنتي آزيور، وتوقف ابني الصغير جوردان أمام شجرة في فناء بيتها لتتمكن من التقاط صورة سريعة له في ملابسه لعيد الفصح. إن صورها رديئة، برؤوس مقطوعة، أو صور لا شيء، أو طاولة، أو يد، أو كرسي، غير أنها تلتقط صورا لأي حدث يهمها، وتعلم أن كل ذكرى مهمة للغاية بحيث لا يجب أن تضيعها، وخصوصا لأنها ضيعت ذكريات كثيرة من قبل. إلا أنها لا تلتقط صورا الآن، بل تحدق إلى الأمام مباشرة، وترتدي ثوبا أبيض وعقدا بعد ظهر هذا اليوم الممطر، ويبدو أن أنفها الطويل وعينيها السوداوين تنسجم انسجاما كاملا مع الوجوه التي تحيط بها، والتي هي من أوروبا الشرقية في الغالب. لم تواجه أي مشاكل عندما دخلت المعبد، بل نظرت حول الرواق وهزت رأسها باستحسان، وأشارت إلى الجدار التذكاري حيث توضع أسماء المتوفين، وقالت، نعم، إن الرجال سيغادرون الغرفة إذا أنشدت مرتلة. وتكلمت وكأنها تزور متحفا.

وسألتها، «كيف تشعرين وأنت موجودة هنا؟»

وأجابت، «أشعر بخير. أنا سعيدة لرؤية دافيد يتزوج، فهو شاب يهودي جيد». وضحكت لمفارقة الموضوع، وأدركت حينها أن الذين صلوا صلاة الحداد اليهودية على أمي - وهي بمثابة إعلان عن وفاتها وطقوس تبرئهم من المسؤولية عن مصيرها - قد تصرفوا تصرفا صحيحا، لأن أمي رحلت فعلا عن عالمهم. برأيها الآن أنها ضيفة هنا، وفي مرحلة ما لاحظت، «لم يعد لدي شيء من هذا.»

وانتعشت أمي أكثر في حفلة الاستقبال في الطابق الأسفل بعد المراسيم عندما عزفت الفرقة الموسيقية أغاني شعبية يهودية تقليدية، وأكلت من الحمص والطحينة والباباغنوج، وأوضحت أهمية طعام الكشير لبنت أختي مايا، وضحكت وتبادلت النكت مع مجموعة من السيدات اليهوديات اللواتي جلسن بجانبنا، وقامت لتراقبني وأنا أساعد رجالا آخرين على وضع دافيد بريستون في كرسي ورفعه

وحمله حول الغرفة في رقصة الز واج التقليدية للرجال اليهود، لكنها عادت إلى طاولتنا بعد ذلك بقليل وقالت، «حان وقت الذهاب»، بصوت وأسلوب أظهرا أنها أصبحت فعلا مستعدة للانصراف.

وكانت تمطر في الخارج عندما فتحنا باب المعبد، ولم تكن لدينا مظلات. فهرعت كاثي ومايا إلى السيارة بسرعة وركضتا أمامنا وتبعناهما أنا وأمي. عندما ساعدت أمي في نزول درج الكنيس، وركبتاها المصابتان بالتهاب المفاصل تؤلمانها في الطقس الرطب، قالت لي، «هكذا يجري الزواج. وهكذا كان اليهود القدامى يفعلونه في أيامي أيضا، يتزوجون تحت تلك الكنة، ويكسرون الزجاج. تعرف أن هذا كان يمكن أن يحدث لي؟»، ونزلت من آخر درجة وهبطت قدمها على الرصيف بخطوة غير ثابتة.

أطلقت ذراعها واتجهت إلى السيارة، وقلت لها، «أعرف، وأين سأكون أنا من هذا؟»، ولكني أصبحت فجأة أتكلم لنفسي. لم تكن معي. توقفت ودرت لأنظر إلى الخلف، كانت واقفة أمام مدخل المعبد تحدق من الرصيف في المدخل، سارحة الفكر، والمطر يتجمع في بريكات حولها. وقفت هناك لحظة في وابل المطر تحدق بتأمل، ثم دارت وهرعت باتجاه السيارة وهي تتهادى بساقيها المقوستين كما كانت تفعل دائما.

الإعراب عن الشكر

نود أنا وأمي أن نشكر السيد المسيح على محبته وإخلاصه لجميع الأجيال. وشكري لزوجتي الحنونة ستيفاني بين، التي قومتني عندما لم أعد قادرا على الوقوف، ولم تسمح لي بالتراجع عن الحلم، وجعلتني رجلا. وإلى طفلي جوردان وآزيور، ليعلما من أين أصلهما.

وإلى إخوتي وأخواتي الأحد عشر: الدكتور اندرو دينس ماكبرايد، وروزيتا ماكبرايد، والدكتور وليام (بيلي) ماكبرايد، والدكتور ديفيد ماكبرايد، وهيلين ماكبرايد ـ رختر، ورتشارد ماكبرايد، ودوروثي ماكبرايد وزلي، وكاثي جوردان، وجودي جوردان، وهنتر جوردان، وهنري جوردان: أشكركم على مساعدتكم على جمع هذا الكتاب والحفاظ على قوتنا عبر السنين. وإلى أختي الخاصة جاكلين نلسون من لويسفيل بولاية كنتاكي، التي ساعدتني على تحويل مجرى حياتي.

وأشكر المحررة سندي سبيغل في ريفرهيد، التي نظمت إبداعيتها وخيالها وإرشادها وجهدها وبصيرتها هذا الكتاب وأوجدت جاذبية هذا الكتاب، وكذلك وكيلتي الأدبية، فليب بروفي من وكالة سترلينغ لورد لتريستيك، التي صمدت معي لمدة عشر سنوات على الرغم من أني لم أكسبها فلسا.

نود أنا وأمي أيضا أن نشكر أصدقاءنا وأقاربنا في هارلم، وفي مشاريع سكن رد هوك في بروكلين، وفي سانت البانز وكوينز وفيلادلفيا، والذين صمدوا معنا عبر السنين، ولاسيما عرابي الأم ريتشل والقس توم ماكنير وعائلته، والأم فرجينيا انغرام وعائلتها، والقس ادوارد بلتون وعائلته من باسياك بولاية نيو جرزي، والمرحومة آيرين جونسون وابنتيها دبوراه وباربارا، وأختها فيرا ليك، وأخاها القس هنستون غرين، وباقي أفراد عائلتها، والقس الفري ستانارد، والقس آرنت كلارك وكنيسة الطبرية المعمدانية، والدكتور غاري رختر،

وروز ماكبرايد، وريبيكا راندولف، وغلاديس وفريد كليفلاند، وأليس وندي ساندز، ودوروثي وتوماس جونز، وعائلتي نابر وهاريس، وشيلا وارن، وإيفلين هوبسون، وترافينا «روث» ولسون وعائلتها من وِلمنغتون بولاية دلاوير، وعمتنا العزيزة المرحومة سالي كانديس ب الدوين، وأيتا وناش ماكبرايد، وعائلات هنسون وليك وراش من ماونت جلعاد بولاية كارولاينا الشمالية، والعمة ماغ لوماكس، وابنة العمة أدنا راكر وعائلة غريبر من هاي بوينت بولاية كارولاينا الشمالية، وكنيسة بارون المعمدانية التذكارية الجديدة في بروكلين، والقس توماس ديفيس من كنيسة كروسرودز المعمدانية في هارلم، وابنة العم ماغي هاريس وعائلتها من رتشموند بولاية فرجينيا، وثلما كاربنتر، والعم والتر جوردان، وفلوسي جوردان، وأفراد عائلة جوردان في بروكلين ورتشموند، وعائلتي بين وهو كنز في لوس أنجليس.

كما أشكر أهل سافوك بولاية فرجينيا: فرانك وأوبري شيفر، وهيلين واينتراوب، والمرحوم أوبري روبنشتاين، والسيدة فرانسيس هولاند، وماري هاول ريد من مكتب كاتب المدينة، وكورلي بيكر، وأدي تومبسون. وأعانق فرانسيس ونك فالكوني من بورتسماوث فرجينيا معانقة مخلصة، لدخولهما في حياتنا من جديد. والشكر لدينا أبراموفيتش من معهد ييفو للأبحاث اليهودية في مدينة نيويورك، ولجميع الإخوة على الزاوية عند متجر فرمونت للمشروبات في لويسفيل، ولاسيما مايك فاولر، وبيغ رتشارد نلسون ورجل الدجاج المرحوم. وأشكر محاسب الضرائب ملتون شيرمان، وجانيت بولجياني، وجوليان «شارون» جونز، ولجيم نوتون في صحيفة فيلادلفيا إنكوايرر، وروندا غولدفاين، وهالينا ويند وجورج بريستون الناجين من المحرقة وابنهما دافيد الذي ساعد في إيضاح عجائب الدين اليهودي لي. كما أشكر أصدقائي في صحيفة بوسطن جلوب: دينس لويد، وآل لاركن، وجاك دريسكول، وأد سيغل، وسندي سميث، وستيف مورس، وأرني سانتو سووسو بطبيعة الحال. والشكر لماري هادار، التي كانت المحررة

المرشدة في صحيفة واشنطن بوست، وعازف القيثارة جيف فرالانك، الذي لاتزال حياته المهنية الثانية في انتظاره، ولجي لوفنجر وغي ديلي، اللذان قرآ مخطوطي وكان لطفهما دائما إلهاما لي وعائلتي، ولبيل بويل، ومايك ديلي، وهانك كليبانوف، ومارغريت دل جوديتشي، ودوران توير، وغار جوزيف، وغاري سميث، وسالي ولسون، وشكري لإزابيل سبنسر وفريد هارتمان الذي عينني في وظيفتي الصحفية الأولى، ونورمان ايزاكس الذي علمني لأكون على مستوى مثل هذه الوظيفة، وجان وينر من مجلتي رولنغ ستون وآس، الذي سمح لي بالتمرن على السكسفون أثناء العمل من دون أي مشكلة، وأريك «بد باول» ليفين، وجيسي بيرنباوم، وباي رايان، وجيم غيتر، ومرسيدس متشل في مجلة بيبل. وأشكر جيل نلسون، ورتشارد بن كريمر ، وكارولين وايت، وجري هيرشي، والمؤلف الأسطورة جون أ. وليامز الذي يعتبر عمل حياته إلهاما لجميع المؤلفين، وكذلك لأنيتا بيكر ووالتر بريجفورث، اللذان ساعدني سخاؤهما على العيش خلال سنوات الضيق والعسر، وأسطورة الجاز جيمي سكوت الذي علمني كيف انسجم مع الموسيقى، وعازف السكسفون غروفر واشنطن الابن، وغاري بورتن، وإفريت هارب، والصديق ديمن ديو وايت، والصديقة ريتشل فيريل، وجيرارد هاريس، وشريكي في الكتابة اد شوكلي، ولاري وودي، وساي فريند، وفيني كاريسيمي التي لاتزال غير قادرة على القفز، وجورج كالدويل، وشريكتي في الموسيقى بورا فيه، ودانة كرو، وليزا هارتفيلد دافيه، والأستاذ وندل لوغان، وفريد نلسون الثالث، ولوري «كولغيت» وايسمان، وروز ابرامز، وعائلة رويه من فرنسا. وأخيرا أشكر عائلة بين من كونكورد بولاية نيو هامبشاير وابنيها أليك وليااندر، اللذان سهرا في ليال عديدة يستمعون إلي وأنا أروي أحلامي، ثم وقفا بجانبي في واقع الأيام القاسية التالية.

«في كل طرقك اعرفه وهو يقوم سبلك». أمثال ٣:٦.

جيمز ماكبرايد

جيمز ماكبرايد هو كاتب ومؤلف موسيقى وعازف سكسفون، وقد شغل وظائف في السابق ككاتب صحفي في صحف ولمنغتون نيوز جورنال، وبوسطن جلوب، وبيبل، وواشنطن بوست (قسم الفخامة)، كما كتب أيضا لصحف فيلادلفيا إنكوايرر، ورولنغ ستون، ويو اس، وإسنس. وقد فاز جيمز بجائزة ستيفن سوندهايم في مهرجان المسرح الموسيقي الأمريكي لعام ١٩٩٣ لعمله في التأليف الموسيقي للمسرح الأمريكي، بما في ذلك مسرحية موسيقى الجاز «بوبوس» التي نالت الاستحسان على نطاق واسع. كما ألف أغنيات لأنيتا بيكر، وغروفر واشنطن الابن، وغاري بورتن وغيرهم، وكثيرا ما يقوم بجولات كعازف مساعد لمغني الجاز الأسطوري جيمي سكوت. تخرج جيمز ماكبرايد من كلية أوبرلين ونال شهادة ماجستير في الصحافة من جامعة كولومبيا، وهو متزوج وله ولدان، ويعيش في ساوث ناياك، نيويورك.

روث ماكبرايد جوردان

ولدت روث ماكبرايد جوردان باسم راحيل دبوراه شلسكي (روخل دوايرا زيلسكا) في بولندا في العام ١٩٢١، وهاجرت عائلتها إلى الولايات المتحدة وهي في سنها الثانية، واستقرت في النهاية في سافوك بولاية فرجينيا. وبعد المدرسة الثانوية انتقلت إلى مدينة نيويورك وتزوجت اندرو دينس ماكبرايد، الذي أسست معه كنيسة براون التذكارية الجديدة المعمدانية في بروكلين بنيويورك. وبعد وفاة زوجها في العام ١٩٥٧، تزوجت هنتر جوردان، الذي توفى في العام ١٩٧٢. وتخرجت من جامعة تمبل في العام ١٩٨٦، حيث نالت شهادة في إدارة العمل الاجتماعي وهي في الخامسة والستين من عمرها. وتسافر روث بانتظام إلى باريس ولندن ونيويورك وأطلنطا، وتعمل متطوعة مع مركز فيلادلفيا للطوارىء، وهو ملجأ للأمهات المراهقات

الشريدات، كما تدير ناديا للقراءة في مكتبة يوينغ العامة بولاية نيوجرزي، وتعمل في كنيسة القدس المعمدانية في ترينتون بولاية نيوجرزي في برنامجها لإطعام الشريدين. وتعيش في بلدة يوينغ مع ابنتها كاثي جوردان وطفلي كاثي، جياسي ومايا، ولها اثنا عشر طفلا وعشرون حفيدا.

المؤلف في سطور

جيمز ماكبرايد

جيمز ماكبرايد هو كاتب ومؤلف موسيقى وعازف سكسفون، وقد شغل وظائف في السابق ككاتب صحفي في صحف ولمنغتون نيوز جورنال، وبوسطن جلوب، وبيبل، وواشنطن بوست (قسم الفخامة)، كما كتب أيضا لصحف فيلادلفيا إنكوايرر، وورولنغ ستون، ويواس، وإسنس. وقد فاز جيمز بجائزة ستيفن سوندهايم في مهرجان المسرح الموسيقي الأمريكي لعام ١٩٩٣ لعمله في التأليف الموسيقي للمسرح الأمريكي، بما في ذلك مسرحية موسيقى الجاز «بوبوس» التي نالت الاستحسان على نطاق واسع. كما ألف أغنيات لأنيتا بيكر، وغروفر واشنطن الابن، وغاري بورتن وغيرهم، وكثيرا ما يقوم بجولات كعازف مساعد لمغني الجاز الأسطوري جيمي سكوت. تخرج جيمز ماكبرايد من كلية أوبرلين ونال شهادة ماجستير في الصحافة من جامعة كولومبيا، وهو متزوج وله ولدان، ويعيش في ساوث ناياك، نيويورك.

المراجع في سطور

عامر الزهير

- حصل على بكالوريوس الفنون المسرحية- جامعة أريزونا ١٩٧٨، كما حصل على ماجستير إخراج وإنتاج سينمائي من جامعة لويولا - كاليفورنيا ١٩٨٨.
- كاتب سيناريو ومخرج سينمائي.

له ترجمات عدة منها:

- مسرحية « رحلة النهار الطويلة خلال الليل » للكاتب الأمريكي يوجين أونيل ، نشرت ضمن سلسلة المسرح العالمي - وزارة الإعلام - الكويت.
- مسرحية « ضحية » للكاتب الأمريكي ماريو فراتي.

المترجم في سطور

فارس غلوب

- ولد في القدس عام ١٩٣٩ .
- تخرج في جامعة لندن في العلوم العربية والإسلامية عام ١٩٦٣ .
- عمل أستاذا في دار المعلمين التابعة لوكالة الأمم المتحدة لغوث اللاجئين - الأردن عام ١٩٦٧.
- عمل مع شبكة سي بي اس الأمريكية للإذاعة والتلفزيون - لبنان عام ١٩٧٠.
- يعمل حاليا في الكويت مع وكالة الأنباء الكويتية. وقد نشرت له الكتب التالية: القضية الفلسطينية والقانون الدولي (باللغة الإنجليزية عام ١٩٧٠). الصهيونية هل هي عنصرية ؟ (باللغتين الإنجليزية والألمانية عام ١٩٧٥). نجمة داوود والصليب المعقوف: الصهيونية على خطى النازية (باللغة العربية عام ١٩٨٩).

لـون الـمـاء

أدرك جيمز ماكبرايد منذ الصغر أن أمه تختلف عن معظم الأمهات الأخريات، وكلما يسألها عن ذلك كانت تقول له إن لون بشرتها فاتح، وكانت تجيب على سؤاله عما إذا كان أسود أم أبيض، «إنك إنسان»، وتشجعه على طلب العلم ليصبح إنساناً له قيمة.

وبعد أن بلغ سن الرشد، أقنع جيمز ماكبرايد والدته برواية قصة حياتها. إنها ابنة حاخام يهودي ولدت في بولندا، وهاجرت مع عائلتها إلى الولايات المتحدة حيث ترعرعت في إحدى الولايات الجنوبية، وفي سن المراهقة هربت من هناك إلى منطقة هارلم في نيويورك حيث تزوجت رجلاً أسود واعتنقت الدين المسيحي وربت اثني عشر طفلاً وعلمتهم حتى تخرجوا جميعاً في الجامعة.

لون الماء هو كتاب جيمز ماكبرايد عن والدته التي هي شخصية فريدة من نوعها، وعن حياة أسرته والصعوبات التي واجهوها والإنجازات التي حققوها.

ردمك ٢ ـ ٠٤٢ ـ ٠ ـ ٩٩٩٠٦

ISBN 99906 - 0 - 042 - 2

